رواية

عبد الإله بلقزيز

الحركة



منتدى المعارف
alMaaref Forum

عبد الإله بلقزيز

الحركة

رواية





منتدى المعارف
alMaaref Forum


الحركة

«جميع الشخصيّات الواردة في هذه الرواية هي من نسج الخيال ولا تمت إلى الواقع بصلة وأي تشابه في الأسماء أو الأحداث هو مصادفة ليس إلا، كما إن الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر منتدى المعارف».

ISBN 978-614-428-011-9

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٢

منتدى المعارف

بنايــة «طبارة»، شارع نجيب العرداتي ـ المنــارة ـ رأس بيروت

ص.ب.: ٧٤٩٤ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ ـ لبنان

بريد إلكتروني: info@almaarefforum.com.lb

المحتويات

تقاسيم على مقامٍ عشرينيّ

- ١ -

يَطيب له، في المساحة الصغيرة التي يمنحها لنفسه كي يفكّر، أن يستلقيَ على ظهره، ويضع الكفَّيْن على الصّدر، ويُطْبِق الجفنيْن. ليس يدري لِمَ يختار هذه الوضعية بالذات؟ لِمَ يستشعر فيها راحةً عميقةً وتيقُّظاً في الذهن؟ يعرف أنها عادة قديمة دَرَجَ عليها منذ الصغر، مثل عادات أخرى لم يتخلص منها على كِبَر، مثل إدخال الراديو معه إلى الحمّام، أو افتراش الأرض عند تناول الطعام وحيداً، أو وضع الوسائد تحت القدمين عند النوم. نَهَرتْهُ أمُّه مراراً، وهو صغير، محاوِلةً صَرْفَهُ عن هذه الطريقة من الاستلقاء التي تشبه أوضاع الموتى، لكنه لم يَحِدْ عنها كلّما عَنّ له أن يفكّر، وإن كان يَحْصُل له لماماً أن يفكّر، أو أن يقرّر أن يفكّر. ومع أن مبدأه في الحياة، الذي التزمَهُ، هو أنّ من يفكّر كثيراً يخطئ كثيراً، إلاّ أن بعض الرغبة في التأمل يخالجه أحيانا، وفي ومْضات سريعة، فيستجيب له رأسه.

كثيراً ما يردّد مع نفسه أن مشكلة الإنسان هي دماغه، فهو - كما قرأ في مجلةٍ يوماً - الذي يأمر الجسم بكل شيء، ويحرّك الساكن فيه: يأمرهُ بالجوع، وبالرغبة الجنسية، وبالرغبة في النوم. وهو المسؤول عن القلق، والتوتر، والحزن، والشعور بالفراغ. هو إذن، مستودعُ المصائب وخزَّانُها،

ومَن أفلح في أن يُقفِل بابَه ويعطّل نشاطه، نَعِمَ بالراحة والهناء. جرَّب أن يفعل ذلك في حياته، وخامرهُ شعورٌ بأنه نجح إلى حدٍّ ما في إخماد جذوة رأسه. لكن مشكلةً في الأمر تعصَّت عليه تماماً، هي نشاط دماغه أثناء النوم. ما يعطيه إياه في النهار بيمينه يأخذه منه في الليل بشِماله. ماذا تكون الأحلام والكوابيس غير أنها من عمل الدماغ؟ قرأ ذلك أيضاً في المجلة عينِها. ملعون دماغُه؛ يَعْقِدُ معه هدنةً في النهار، وينقضّ عليه كالفريسة في الليل!

هذه المرّة ضَغَطَ عليه الطلبُ الداخليّ للتفكير أكثر من أيّ وقت مضى. حاول عبثاً أن يَصْرِف هذه الرغبة عنه وينسى، فلم يُفْلِح، ولم يَجِد ذلك ممّا يليق به. يمكنه أن يتجاهل أموراً كثيرة، وضغوطاً عديدة، من دون أن يشغل نفسه بها، إلاّ هذه المسألة التي تلحُّ عليه منذ أيام. لم يُعِرْ كبيرَ اهتمامٍ لزوجته حينما طلبت منه الطلاق، فأنْفَذَ رغبتها من دون نقاش، وبقِيَ أعزباً منذ ثمان سنوات. وحين طلبتْ منه أختُها أن يتريث في مجاراة رغبة الزوجةِ الغَضْبى -أختِها- إلى حين خلودها للهدوء، وأن يفكّر ملياً في تبعات الانفصال عليه وعليها وعلى ولديهما الصبيّ، الذي لم يكن قد جاوز حينها العاشرة، اكتفى بأن أجابها بأنه لا يرغب في أن يفكّر في أيّ شيء، ويكفيه أن أمّ الولد تفكّر في الموضوع نيابةً عنه. وحين دعسَتْ حافلةُ ركّابٍ سيارته، فأدخَلتْ بعضَها في بعضها، وهي مركونة في وضعٍ قانوني، لم يَسْعَ في تعبئة أوراق التأمين عليها، للتعويض عن الأضرارَ التي لحقَتْه من طيش سائق الحافلة وخِفّته، ولا شَغَلَ نفسَه بإصلاحها في ورشة إصلاح، بل اختار أن يتنقّل بين البيت والعمل والمقهى راجلاً، أو في سيارات أجرة. وحين سأله حسن، ابنه، بعد حصوله على الباكالوريا في الصيف الماضي، عن أيّ التخصصات يقترحها عليه في كلية العلوم: قسم الرياضيات والفيزياء أم قسم البيولوجيا والجيولوجيا، لم يشغل نفسه بالتفكير معه في جوابٍ، وإنما دعاه إلى أن يختار ما يشاء بنفسه.

الآن يجد نفسه مدفوعاً إلى التفكير. وأيّ تفكير ينتظره هذه المرّة؛ في أمرٍ جَلَل لا يستطيع له دفعاً. وهو أمْرٌ، من فرط هَوْله وتَعَقُّده، يدعوه إلى تفكيرٍ طويل وعميق لن تنفع معه جلسةُ استلقاءٍ واحدة أو اثنتين أو عشْراً. وهو ليس على يقينٍ بأنه سيَقْوى على ذلك، أو أن دماغه سيخرج من التجربة مثل ما دخل فيها، سليماً مُعَافى، بل هو على يقينٍ قاطعٍ بأنه لن يَقْوى، ولن ينتهي الحال برأسه إلاّ إلى مزيدِ وجَعٍ ودوار. بالأمس فقط، جرَّب أن ينظر في الذي يشغله، أخذ حمّاماً دافئاً، ودخل إلى غرفة النوم، واستلقى مُسْدِلاً جفنيه، ثم أطلق العنان لدماغه في حساب الأمور، وإجالتها على الوجوه والاحتمالات. أحسّ بالتعب وبالحلكة تملأ الأفق المغلق، لكنه قاوم واستمرّ يحاول. لم يشرح الله صدره ليفهم ما غمض واستغلق في المسألة. نَفَسُهُ قصير لأن عضلات دماغه رخوة، كما يظن، ولم تتعوَّد على رياضة نفسِها في السابق. تَمَلَّكَه الإصرار على الاستمرار وإن لم يتحصّل له من التفكير شيء. ثم ما هي إلاّ برهة وجيزة على قراره حَمْل دماغه بالشدّة على الاشتغال بما تنوءُ به طاقتُه، حتى وجد نفسه يغطّ في النوم!

لم يكن يحمل كلّ هذا الهمّ الذي يجثم عليه اليوم بكلكله حين كانت رقيّة، طليقتُه، بقربه. كانت تَحْمل عنه وجع التفكير، تفكّر هي ويوافق، وحين يعنّ له أن يراجعَها في قرارٍ أخذته، يتوقف عن المحاججة أو المناكفة ما إنْ تبدأ في عرض مبررات قرارها عليه. لو كانت معه في البيت هذه الأيام، لرفعتْ عنه هذا العبء، بل لَمَا تركتْ له مجالا لأن يتدخل. أليس الأمر يتعلق بأغلى ما عندها في هذه الدنيا: ابنها؟ لَعَنَ الله الطلاق. ها هو اليوم يدفع ثمنه بعد أن بات عليه أن يقوم بما كانت تقوم به رقيّة. لو أخذ بنصيحة أختها بديعة، فتريَّث في إجابة طلبها الطلاق، لما أَوْقع نفسَه في هذا المطبّ. والمشكلةُ أنه فات أوان الاستنجاد بأمّ الولد، للضغط عليه كي يرعوي ويعود إلى رشده، فالعلاقة ساءت بين الابن وأمّه منذ تركت البيت وهو صبيّ، وزادتْ سوءاً منذ تزوجت قبل أربع سنوات،

حتى أنه أضرب عن زيارتها في بيتها مثلما كان يفعل وهو مراهق، وخاصة في مناسبات الأعياد.

جدتُه لأبيه وحدها تستطيع التأثير فيه، لأنه يحبّها، ولأنها عوّضَتْهُ عن حنان الأمّ المفقود بعد مغادرتها البيت. لكن جدّة الابن لا تفهم في السياسة حتى تصرفه عنها، ثم إنها مريضة وكبيرة في السّنّ، ولا مصلحة له هو في إفزاعها بخبر ابتلاء حفيدها بالسياسة، وخطورة ذلك عليه وعلى سلامته. وهو ليس في حاجة إلى أن يشرح لها ما التبعاتُ الكبيرة التي ستعود على حفيدها إن أَمْعَن في ما هو فيه؛ فهي مثل ابنها تخشى السياسة وتكرهها، ولا تني تقول إنها فعلٌ من أفعال إبليس لعنه الله. بل لعلّها تكون هي مَن جَعَلَه يتكرَّهُ السياسة منذ شبابه، وينأى بنفسه عنها وعمّن عُرِفَ بتعاطيها من أصحابه. كانت تحذّره، وهو صغير، منها، وتقول له إنه بالسياسة نجح إبليس في إغواء سيّدنا آدم وحواء، والتسبُّب لهما في الخروج من الجنّة، وإنّ السياسيين جميعاً من نَسْل الشيطان، يحتالون على الناس ويسرقون أصواتهم في الانتخابات، بعد أن يصدّقهم هؤلاء، لكي يَغْتَنُوا. ولم يكن في حاجة إلى دليلٍ على صِدْق كلام أمّه، فلقد كان تلميذاً في الثانوية حين اندلعت مظاهرات ٢٣ مارس ١٩٦٥، ورأى بأمّ العين مَن يطلقون الرصاص على الفتية المتظاهرين، والدّم المسفوك في الشوارع. ثم رأى كيف أنّ بعض معارفه في الحيّ اغتنى سريعاً بعد أن صار عضواً منتخباً في الجماعة الحضرية، وكان قبل ذلك، بأعوام، يقترض منه ما يستكمل به نفقات الشهر!

اللعنة على هذه السياسة التي طرقت باب بيته، فجأة، ثم اقتحمته من دون استئذان، وجعلتْه يشعر - ربما لأوّل مرة في حياته - بهذه الكمية الهائلة من الخوف على حسن. ما كان أغناه عن هذا كلِّه لولا رفقاءُ السّوء الذين صرفوه عن وداعته وكتبه العلمية، التي كان يستغرب، هو، استغراقَه في قراءتها حتى بعد أن تنتهي الامتحانات وتَحُلُّ العُطل! عاش مرتاحاً من

جانب ابنه منذ غادرتهما رقية أمُّه؛ لم يصدُر منه ما يزعجه، أو يكلّفه انهماماً بأمره. ماذا حصل حتى تبدّلت الأمورُ فجأةً وانقلب سافلُها على عاليها؟ هل هي الجامعة التي أفسدت أخلاقه، وزاغت ببصره وقدميْه عن الطريق المستقيم؟ هل هو الانترنت: ذلك العدوّ الجديد الذي أصبح يُشيّب رأسه؟ منذ أخبره زميلُه في العمل، السيّد الهاشمي، أنه شاهد ابنَه حسن مع شباب آخرين يتحدثون في شريط مسجّل، منشور على الانترنت، عن مظاهرات حاشدة يعتزمون تنظيمها بعد أسبوعين، ورأسه في حالة دوار، ومعدته مقفلة، وفرائصُهُ في ذبذبةٍ ممتدة كأنه هاتفٌ محمول! لم يصدِّق الخبر حين سمعه أمس الأول من زميله. لكنه تأكد منه، أمس، مساءً بنفسه حين راح مع السي الهاشمي إلى بيته، وفتح العلبة السوداء الملعونة ليرى ابنه يتحدث واثقاً من نفسه وكأنه باراك أوباما!

لا مناص هذه المرّة من أن يمارس سلطته كأبٍ على هذا «المسخوط»، الذي كبرت أكتافه، وبات يتصوّر نفسَه بطلاً. لا يتذكر أنه ضربه يوماً وهو طفل، وحيث كان يستطيع أن يعاقبه على شغْبه وعبثه بأغراض والديْه، فكيف يعاقبه اليوم وقد صار رجلاً؟ وبماذا يستطيع أن يعاقبه إن شاء أن يعاقبه؟ بمنعه من الإقامة في البيت مثلاً؟ سيدفعه بذلك إلى رفقاء السوء أكثر، وسيقتل جدّته العجوز بالحسرة على حفيدها الذي تحبُّه أكثر ممّا أحبّته هو نفسه. ثم كيف له أن يعاقب مَن أصبح يتحدث على الشاشة بثقةٍ عمياء بالنفس وكأنه زعيم؟

يعترف الآن بأنه أخطأ حينما مَنَحه دائماً الحرية في أن يفعل ما يشاء، وأن يصاحب مَن شاء، وفي أن يعتكف في غرفته مع صندوقه الأسود يتطلع فيه كلّ الوقت وهو يفغر فاه. كان عليه، على الأقل، أن يعرف ما الذي يقرأه في ذلك الكمبيوتر اللعين. ولكن، كيف له أن يعرف وهو الذي يقف أمام العلبة السوداء مذهولاً لفرط جهله بعالمها السحري المغلَق عليه، حتى أنه لا يعرف كيف يفتحها؟ ها هو يدفع الآن ثمن إصراره على

إقفال رأسه، والتقلّب في بحبوحة الكسل ونعيم اللامبالاة؛ لو أخذ بنصيحة زملائه الهاشمي، ومحمود، وعبد السلام، بمرافقتهم لتلقّي دورة تكوينية في الكمبيوتر، قبل أربعة أعوام، لأصبح مثلهم صنديداً، وقادراً على أن يتجسس على رأس ابنه.

سيتحدث إليه ما إن يعود إلى البيت هذا المساء. سيقطع التردُّد بالحسم هذه المرة. سيكون حازماً من دون قسوة، ولن يَدَعَه يُنْكِر أو يناور، سيخبرُه أنه شاهده بأمّ العين وهو يخطب، ويحرّض الناس على عصيان المخزن. سيخيّره بين تَرْك هذا المرْكب الخَطِر وبين القطيعة معه إلى يوم الدين. سيجرّب أن يستثمر عاطفة الابن تجاه أبيه ليصرفه عمّا هو فيه.

ارتاح قليلاً إلى تصميمه وعزمه وقرارِه وضْعَ حدٍّ لهذا القلق الذي لازمه، منذ يومين، وخطف منه الرغبة في كل شيء، ثم دَخل غرفة النوم ليجرّب قيلولةً بعث الرغبةَ فيها في نفسه الشعورُ المفاجئ بالارتياح. قبل أن يرمي بجسده المُتْعَب على السرير، تذكر أنه وُلِدَ يوم ٢٠ فبراير؛ قبل سبعة وخمسين عاماً. عكّرتِ الذكرى مزاجه، ولَعَنَ ذلك اليوم، والتاريخ، الذي وُلِد فيه.

- ٢ -

أمطرت بشراً وماءً. الساحةُ عينُها التي كان يذْرعها أو يمْرُق منها سريعاً إلى مدخل المدينة العتيقة، حيث يقتني الأقراص المدمجة، أو يأخذ جهاز الكمبيوتر للتصليح، أمطرت ناساً ومطراً حتى خشيَ أن يَفْرَنْقِعَ الجَمْع، بعد أن كثُر المتأهبون للمشاركة، وقلَّت المظلاّت. البوليس في كل مكان ينتشرون، تبدو عليهم العصبيةُ والاضطراب مع تزايُد حشود المعتصمين في الساحة. يراقبون كلّ شيء بحذر وتحفّز، ويتحسَّبون للمفاجآت؛ فالمرّة هذه ليست كالسابقات، ثمة مطالب سياسية لم سبق أن رُفعت في الساحات العامّة، أو تردَّدَتْ خارج القاعات المغلقة والحشد المحدود. والظرفيةُ ظرفيةُ ثوْرات في معظم المحيط، والحماسةُ بلغتْ ذروةً ما عُرِف لها مضارع. يهمس توفيق في أذنه بأن الدولة لا شكَّ نادمةٌ على تهيئة ساحة باب الحدّ، وتوْسعةِ مساحتها للراجلين، ولو ظلت ملتقى طرقٍ، مثلما كانت، لَمَا حصل التردّد في إغلاقها أمام المتظاهرين بدعوى فتح الطرق أمام المرْكبات السيارة. يضحك من الملاحظة ويعلّق بتحدٍّ: «اللي عندو باب واحد، الله يسدّو عليه».

اللافتاتُ من كل جنسٍ ونوع، وشعاراتُها تعلو وتهبط في ميزان اللحظة السياسية التجريبية، من الأقصى إلى الأدنى، وكأنه مهرجان

مطالب، أو سوقٌ أسبوعيٌّ لتسويق المعروضات. ولكلّ بضاعةٍ بَرّاحٌ يرفع الصوت ليعلن عمّا لديه، فيرُدّ الثاني صدى صراخه. التنافُس شديدٌ بين هِتّيفَةٍ تنتفخ أوداجهم. الأعلى كعباً منهم من تُردِّد الحشودُ هتافَه. أمّا الميكروفونات البدائية المستخدمة، التي تشبه تلك التي يستعملها في الأسواق الشعبية باعة دواء البقّ والبرغوث، فتضيع فيها حروف الشعارات، وتتموَّه في موجات صوتيةٍ متكسّرةٍ وغامضة، فلا يُدْرَى أيٌّ معنًى تَحْمل، ولا أيّ كلام تلْفظ. سبق أن لاحظ ذلك على شعارات العمّال في احتفاليات الفاتح من ماي في العامين الماضيين، لكنه قدَّر أن ذلك لا يمكن أن يتكرر في مظاهرة شبابٍ حَسَنِ الصّلة بالوسائط التكنولوجية الحديثة.

يملأون الشارع الرئيس في المدينة، يتمشّوْن على هَوْنٍ وكأنهم يَتَنَزِهون. خُيِّل إليه، في لحظة، أنه يمشي في موكب تشييع حاشد. لا بأس، فلتكن، إذن، جنازة الاستبداد والفساد. وهؤلاء الذين تُرْفَع صوُرُهم مشطوباً عليها هم الموتى. لكن الذين يشيّعونهم لا يلتمسون لهم الرحمة والغفران، ولا يذكرون موتاهم بخير، بل يُنكرون عليهم ما نسبوه إليهم من قبيح الفعال، ويشتدّون في النكير. لاشك في أن من بين رفاقه من يوسّع دائرة الموتى، في هذه الجنازة، وأعدادهم، فيضيف إليهم زعماء الأحزاب والمنظمات السياسية، الذين جثمت أسمائهم وصورُهم على الصدور طويلاً. ليس متأكداً من أنهم يستحقون التشييع جميعاً، لكن بعضهم ستكون موتُه رحمةً له، ورحمة به، بعد أن هدّتْهُ الشيخوخة السياسية وأمراضها مثل الخرف.

يُخَيَّل إليه، أيضاً، أنه يُشيِّع خوفه وسلبيَّته، ويستقبل المعنى الحقيقي للحياة. كيف تحوّل مجرى حياته بهذه السرعة في المائة يوم الأخيرة؟ هل يمكن لأحداث كالتي وقعت في تونس ومصر، أن تمحو ثمانية عشر عاماً من اللامبالاة، وتاريخاً من الخوف، عاشها كملايين من الشباب كانوا مجرّد أرقام بشرية؟ صحيح أنه انْشدَّ إلى العمل الجمعوي الحقوقي، منذ نيّف وشهرين، وانْأَخَذَ بعالمه الإنساني، واستبدّ به الشعور أنه عثر أخيراً

على المجال الذي يفتح أمامه إمكان إطلاق طاقته المحبوسة. وصحيح أن صداقاته الجديدة في العمل الجمعوي كان لها طعم إنساني مختلف عن طعم الصداقات التي أقامها مع أقرانه في الحيّ والمدرسة، وأنها فتحت وعيه على قضايا لم يكن يعرف عنها الكثير، ولا كان يتخيل نفسَه أنه سيصبح يوماً من جنودها. كل ذلك صحيح، لكن الذي لا مِرْيَةَ فيه أن ولادة وعيه الرسمية إنما كانت في مطلع العام، قبل شهر ونصف فقط، في لحظة الذروة من ثورة تونس، وخاصة حين فرَّ حاكمُها وانتصرت، فأطلق انتصارُها الحشود في ميدان التحرير في القاهرة.

نحن، أيضاً، سنحوّل باب الحدّ إلى ميدان التحرير. اليوم نضع الحجر الأساس، وبعده سيقوم الصّرح. ولولا المطر المفاجئ، لَزَحَفَ عشرات الآلاف من أحياء الرباط وسلا. لكنهم، في المرّة القادمة، سيكونون أكثر. وقد يظلون معتصمين في الساحة لأيام إلى أن تتحقق المطالب. أمجد وإيمان يُصِرّان على أن مطالبنا ليست مستحيلة؛ نريد إصلاحاً ديمقراطياً ينهي عهد الاستبداد والفساد، ويتيح إمكانية قيام نظام ملكيّ برلماني، ولن نغادر الساحات إلاّ حين يستجاب لنا. هذه فرصةً تاريخية لا تُعَوّض. إن أضعناها قد ننتظر سنوات أخرى طويلة قبل أن تتوفر ثانيةً. أمّا وليد، وياسر، وأسعد، وجمال، وسليمة، فلا يراهنون كثيراً على إصلاح ديمقراطي، وإنما على ثورة شعبية تُنَال بها الحقوق. وليد يكرّر إننا لسنا أقلّ شجاعة وعطاء من شباب تونس ومصر، وسنخون الشعب، ونخون الثورة العربية، إن نحن اكتفينا برفع مطالب إصلاحية. إيمان لا تجد فرقا بين الثورة والإصلاح، فكلاهما يقودان إلى الديمقراطية، وإن اختلفت المسمّيات، وأمجد يوافقها الرأي ويضيف أن شعار الإصلاح يجمع أكثر ولا يفرّق. أنا وتوفيق ونبيلة ومريم من رأيهما، لكننا جميعاً نسلّم بأن على حركتنا أن تلتزم بالطابع السلْمي، وأن لا تنجرَّ إلى العنف حتى وإن لجأ إليه رجال الأمن.

لم يلجأ البوليس إلى العنف، تماماً كما توقعنا، الظرف حسّاس ولا يتحمّل شيئاً من ذلك. لاشك أنهم تابعوا ورؤسائهم - مثلما تابعنا - أحداث تونس ومصر، واتعظوا بدروسها. ولكنهم، قطعاً، يصوّرون وقائع المسيرة من مكان ما، ربما من فوق سطوح البنايات، لإعداد ملفات أمنية للمناضلين: على جاري عادتهم في مثل هذه الأحوال. إن فعلوا ذلك، سيكونون في منتهى الغباء؛ لأن كاميرات المحطات التلفزية الدولية والعربية تقوم بذلك على نحوٍ أفضل ومن أقرب المسافات، ولأن نشطاء الحركة عرّفوا بأنفسهم جماهيرياً، من طريق شبكة الإنترنت، من دون خوفٍ أو وجل. كنّا مطمئنين تماماً إلى أن أيّ احتكاكٍ بيننا وبين قوات الأمن لن يحصل، ولأننا لم نستبعد أن يوجد بيننا مندسون، يفتعلون مشكلات تستجرّ تدخّل البوليس، كما يمكن أن يحدث في أية مظاهرة أو مسيرة يبحث فيها جهاز الأمن عن مبرّر للتدخل، فيدسُّ فيها مَن يَدُس من زبانيته أو أُجَرَائه، فقد أعددنا العُدّة لمثل هذا الطارئ، وهيأنا اللجنة التنظيمية للتعامل مع مثل هذه الحالات الشاذة، ولم نَعْدُ ذلك. وليد وحده تمسّك برأيه في أن علينا أن نتحسب لأية مواجهة، وأن نؤمّن لنا بعض ما تيسّر من أسباب القوة غير الظاهرة، وبعض وسائط الدفاع، في حال استخدام القنابل المُدْمِعة، مثلما فعل الشباب المصري في ميدان التحرير. وحين قال له أمجد إن البوليس المغربي لم يسبق أن واجه مظاهرة بالقنابل المُدْمِعة، ردّ بأن هذه ليست كباقي المظاهرات السابقة!

بُحّ صوتي، كأصوات غيري، من الهتاف. كنت في الصفّ الأمامي مع رفاقي، وعليّ، في الوقت عينه، أن أتَنَقَّل، أنا وأسعد وجمال وياسر، بين الصفوف الخلفية للاطمئنان على سلامة التنظيم، على ما اتفقنا عليه في اجتماع اللجنة المحلية. شركاؤنا في المسيرة، من القوى السياسية، التزموا بما اتفقنا عليه، فلم يحاولوا البُدُوَّ بمظهر من يسيطر على المسيرة تنظيماً أو بالشعارات، وكنّا جاهزين للتصرّف مع خلاف ذلك لو حصل، وهو أمرٌ تُرِك

لأمجد وإيمان وسليمة للقيام به عند الضرورة. أخبرتني مريم أن والدة نبيلة ووالدها، ووالد سليمة، ووالدة وليد، وإخوة وأعمام وأخوال لرفاق كثر يشاركون في المسيرة. كان ذلك أمراً رائعاً يُسَرّ له أي مناضل. هاهم الآباء والأمّهات يسلّمون لأبنائهم زمام المصير، ويمشون وراءهم بعد سنوات طويلة كان أبناؤهم تَبَعاً لهم. آه، ليت والدي كان معهم. كنت سأشعر بالفخر. ليته حضر فقط ليشهد بنفسه كم هو جليل هذا العمل الذي أقوم به، عكس ما يعتقد، وليشعر، ولو لمرّة واحدة، بأني رجل راشد، وأنني، إذ أفعل ما أفعل، لا أعصى أمرَه كما يتصور، بل أمارس حقّاً من حقوقي كمواطن. لو شارك في هذه المسيرة، لكان ذلك أعظم احتفالٍ بعيد ميلاده.

- ٣ -

لم أعد أطيق دخول البيت أو المكوث فيه لأكثر من دقائق، أحمل فيها ما أحتاج إليه من أغراضي كالكتب والملابس، وأجلس إلى جدّتي قليلاً مُطْمئناً إلى صحتها قبل أن أغادر. يحدث أحياناً أن أعود إليه في آخر الليل، وأغادره في الصباح الباكر، كي أتفادى الالتقاء بوالدي، وما يجرُّه عليَّ ذلك من وجْبات التحقيق والوعظ التي مللت منها. لكن ذلك قلّما حدث، خلال الأسابيع الخمسة الماضية التي ساءت فيها العلاقة بيننا. فقد اضطرّني الضغط اليومي إلى التنقُّل بين بيوت أصدقاء كثر قبل أن أستقر، منذ أسبوعين، في شقةٍ مستأجرةٍ من قِبل مجموعة من الطلبة الزملاء ضيفاً عليهم.

الشقة بعيدة جدّاً عن كلية العلوم، وتقع في حيّ الفتح على المداخل الجنوبية للرباط، ممّا يُلزمني أن أستقل حافلة النقل الحضري، التي تقطع مسافةً تتراوح بين أربعين دقيقة وساعة، حسب ظروف السير ومستوى الازدحام في شوارع المدينة، قبل أن تتوقف عند أقرب محطةٍ لي من الكلية. وفيما كنتُ أستطيع العودة إلى بيت أهلي، عند الظهيرة، لتناول الغذاء، حيث لم يكن يتطلب مني ذلك أكثر من مسافة ربع ساعة راجلاً،

بات عليَّ أن أقضي النهار كلَّه، من الثامنة صباحاً حتى السادسة مساءً، بين الكلية وباب الحدّ ووسط المدينة، لصعوبة التنقّل بين الجامعة ومكان السكن.

لم يكن سبب معاناتي ما بات عليّ أن أقطعه من مسافات بين مكانيْن متباعديْن كلّ يوم، ولا حتى ما يسبّبه لي البقاء في وسط المدينة أثناء الظهيرة من إرهاق، ولكن مصدر معاناتي الكبير أنني لا أستطيع أن أساهم مع زملائي في أعباء إيجار الشقة، التي استضافوني فيها، ولا في مصروف وجْبات الطعام؛ فالذي أملكه، مما أقترضه من بعض رفاقي في الحركة، بالكاد يكفيني لتغطية نفقات التنقّل اليومي بالحافلة، وتناول «سندويتشات» شعبية في باب الحدّ، أو الاكتفاء بكسر نداء المعدة بتناول كرواسان، وقدح قهوةٍ وحليب، في مقهى في شارع محمد الخامس. ومع أن زملائي الأربعة في الشقة تصرفوا مع أوضاعي الاضطرارية الطارئة بقدْرٍ عالٍ وكريم من التفهّم، ومن الرغبة التلقائية والصداقة في التضامن، وطلبوا مني ـ ومنذ اليوم الأول ـ ألاّ أشغل نفسي بحصتي في الإيجار والمعيش، وأنهم لن يستَلِموا مني درهماً واحداً حتى ولو كانت ظروفي تساعدني على الدفع، لأن ذلك ـ كما قال وائل زميلي في الصّف الدراسي ـ يحرمهم من الشعور بممارسة واجب التضامن، إلاّ أن الحرج ظلّ يلازمني، ويضغط على أيّ شعورٍ لي بالراحة، وسط ذلك الجوّ الدافئ في الشقة، الذي نَفَثَتْهُ في نفسي وقفتُهم الرجولية معي. وحتى حينما كنتُ أتأخر، أحياناً، في العودة إلى الشقة، وغالباً ما كان يحصل ذلك حينما نعقد اجتماعات لشباب الحركة في المساءات، فيمتد بنا الاجتماع إلى التاسعة أو العاشرة ليلاً، وأضطر عندها لتناول سندوتشات مع رفاقي. . .، كنتُ أجد زملائي في الشقة ينتظرونني على العشاء في آخر الليل. وإذا امتدّ بي الوقتُ خارجاً إلى ما بعد الحادية عشرة ليلاً، كنت أجد وجبة الأكل تنتظرني في المطبخ. وكان ذلك ممّا يزيد من شعور الحرج لديّ.

لم يكن زملاءُ الإقامة الأربعة رفاقاً لي في الحركة؛ جمعتني بثلاثةٍ منهم كلية العلوم، وواحدٌ من الثلاثة هؤلاء - هو وائل - يدرس معي في قسم الفيزياء والرياضيات. أمّا كمال وعزيز، فيدرسان في قسم البيولوجيا والجيولوجيا، بينما يدْرُس عزّ العرب، ابن خالة عزيز، في كلية الطب. والصدفة وحدها دَعَت وائل إلى اقتراح فكرة الإقامة معهم في الشقة، بعد أن أعلمَتْه ابنةُ عمّه إيمان، رفيقتي في الحركة، والطالبة في السنة النهائية في المدرسة المحمدية للمهندسين، بأوضاعي مع أهلي، وقد سمعتْ عنها هي، أيضاً، من رفاق آخرين. وما لبثتُ أن فوجئتُ به يَعْرِض عليَّ الانتقال إلى الشقة التي يستأجرها مع زملائه الثلاثة، مؤكِّداً لي أن هذه رغبتهم جميعاً بعد أن أخبرهم، هو، بظروفي. وحين سألْتُهُ كيف عَلِمَ بأوضاعي، اكتفى بأن قال إنّ أخبار المناضلين لا تخفى على أحد. فما كان مني إلاّ أن علقتُ على كلامه مبتسماً قبل أن أردف: «إنها، إذن، بداية نضالية غير موفّقه منّي».

وائل وعزيز وعزّ العرب من مدينة وزّان، أمّا كمال فمن شفشاون، ولم تكن له بهم سابق معرفة قبل أن يلتقوا بالصدفة في الحافلة التي حملتْهم إلى الرباط في بداية العام الدراسي. كان كمال قبلها قد سافر إلى الرباط بحثاً عن بيت للإيجار بمساعدة أحد أقربائه في العاصمة. وحين ساقتهم الصدفة إلى التعرّف إلى كمال، الذي لم يكن قد رتب أمور إقامته بعد، وكان يعتزم قضاء بضعة أيام في بيت قريبٍ له في سلا، قبل أن يبحث عن مكان يؤويه، عرضوا عليه مشاركتهم في الشقة التي استأجروها، والمؤلّفة من غرفتين ومطبخ وحمام وفِنَاءٍ يشبه الصالون، فوافق على الفور. ولمّا كانت أحوالهم الاجتماعية شبه ميسورة، ناهيك بالمنحة الجامعية على هزالها، فقد كان يسعهم بيُسْر أن يستأجروا شقّة بسَوْمةٍ كرائية تبلغ ألفين وستمائة درهم في الشهر وأن يقتسموها أرباعاً.

طباع الأربعة هادئة جدّاً، وينفرد فيهم عزّ العرب بالمرح وإطلاق النكات والتعليقات الساخرة، وبالقدرة على شدّ الانتباه إلى الحكايات

والغرائب التي يرويها، والتي لا تستطيع أن تتبيَّن أيَّها واقعٌ وأيُّها متخيَّل. وفيما يُطلق ابن خالته عزيز العنان لصوته، فيقهقه عالياً، يكتفي وائل بأن يتبسم بهدوء وكأنه يتشكك في ما يسمع، أمّا كمال فيسأل في التفاصيل، وكأنه يدقّق أو يعيد تركيبَ روايةٍ ما سمع. وكلّما ظنَّ أنه فَتَح باباً لكشف التناقض في روايات عزّ العرب، أغلقه الأخير عليه بالحبكة الجيّدة والتماسُك، أو بإتقان تبرير الوقائع بإعادة بيان الروابط بينها. وحين تَلُوحُ له علائمُ شكٍّ على صفحة وجْهِ أحدٍ منّا، وكان يركّز النظر في وائل، أو تبدر من أحد شارة تفيد بالارتياب أو عدم التصديق، يختتم روايته بأغلظ الأيمان، أو يعمد إلى عزيز يتوسّله شاهدَ إثبات على ما يقول. وعندما يكون مضطراً إلى الاعتكاف في غرفته، التي يتقاسمها وكمال، لمراجعة دروسه أو تحضير واجبات جامعية، يسود الصمتُ في البيت أو يكاد، ويشعر الجميع أن شيئاً ما ينقص ليلتهم.

وجدتُ كثيراً من العزاء في هذا الجوّ الإنساني الدافئ. ومع أني لم أجالس زملائي في الشقة سوى خمس أو ستّ مرّات في الأسبوعين الماضيين، بسبب انشغالي باجتماعات شباب الحركة، والتحضير لمظاهرة نهاية مارس، ثم بسبب اضطراري لقضاء نهاية الأسبوع الماضي في الدار البيضاء للتنسيق بيننا، قصد إنجاح المسيرات الوطنية، إلاّ أن المناسبات القليلة التي قضيتُها معهم زوّدتني بشعور الاطمئنان بينهم، ونمَّت رابطة الصداقة الإنسانية التي كدتُ، في الأشهر الثلاثة الماضية، أفقد تمييزها عن علاقة الرفقة النضالية.

لم يكن أحدٌ من الأربعة مهتمّاً بالسياسة، أو بما يجري خارج نطاق الحصص الدراسية، تماماً مثلما كنتُ أنا قبل نوفمبر الماضي. ولكن، إذا كنتُ أنا لم أهتم بالسياسة لأن الوسط العائلي الذي نشأتُ فيه لا علاقة له بها، حتى لا أقول إنه يكره اسمها، فإن اثنين من زملائي الأربعة نشأوا في بيئة سياسية؛ إذ ينتمي والد عزّ العرب إلى حزبٍ معارض سابقاً، ومشاركٍ

في الحكومة اليوم، وكان جدُّهُ لوالده ـ وهو الذي سمّاه عزّ العرب ـ منخرطاً في المقاومة المسلحة ضدّ الاستعمار الفرنسي، واعتُقِل وهو في الخامسة والعشرين من عمره في الحوادث التي أعقبت نفي محمد الخامس. كما ينتمي والد كمال إلى حزبٍ إسلاميّ ممثَّل في البرلمان. ومع ذلك، لا يبدو أنهما تأثّرا بمحيطها الأُسْري. الأثر الوحيد لوالديْهما فيهما أن عزّ العرب خطيبٌ مفوَّه، ولا تنقصه الشجاعة، وكمال ملتزمٌ الفرائضَ الدينية لا يتهاون في أدائها.

حين أتذكر، الآن، كيف حَصَل ذلك الانقلاب الكبير في مجرى حياتي، قبل أربعة أشهر، أُدْرِك أن جاذبية السياسة والشأن العامّ أقوى من كل الحيطان والأسوار، التي قد يضعها المجتمع والأسرة في وجهها: «حماية» للناشئة منها. صحيح أن كثيراً من رفاقي في الحركة أبناء مناضلين يساريين: حزبيين أو جمعويين، ومنهم فؤاد، ووليد، وياسر، ومريم، وسليمة، ونبيلة. غير أن منهم أمثالي ممّن ليس بين آبائهم والسياسة إلاّ «حجاب السّتر». ويصْدُق هذا على أمجد، وعلى توفيق الذي عرّفني على العمل العام في نهاية أكتوبر الماضي حين حضرت معه، ولأول مرة في حياتي، نشاطاً سياسياً بمناسبة الذكرى الخامسة والأربعين لاختطاف المهدي بن بركة واغتياله. لم ينشأ توفيق في بيئة سياسية، والدُهُ إسكافيٌّ فقير، ووالدته تبيع الخبز ـ الذي تُعِدُّه بنفسها ـ في سوق الحيّ. ومع أنه لا يَنْتَمي إلى أيّ حزبٍ أو تنظيم سياسيّ، ولم يكن مقتنعاً بجدوى ذلك، بعد تجربة قصيرة في شبيبة «الحزب التقدمي» لم تدم إلاّ أشهراً قليلة، فإن عزوفه عن الانتماء لم يتولّد لديه بأثرٍ من التربية الأُسْرية، وإنما لإيمانه بأن عصرنا هذا هو عصر مؤسسات المجتمع المدني. هكذا قال لي، في منتصف نوفمبر، وهو يَعْرِض عليّ الانخراط في رابطة حقوق الإنسان التي ينشط فيها.

وجدتُ نفسي، من أوّل اجتماع حضرتُه للرابطة، منجذباً إلى هذا العالم الجديد عليَّ كلَّ الجِدّة: عالم النضال من أجل الحريات العامّة

وحقوق الإنسان. لم أشك، منذ اللحظة الأولى، في أنه لا يَقِلّ قيمةً وأهميةً عن العمل السياسي. بل إني شعرت بأنه هو الذي يستحق أن يوصف بالعمل السياسي؛ إذْ ماذا يكون العمل لفضح انتهاكات السلطة لحقوق الإنسان، وكَشْف أوضاع المعتقلين السياسيين في السجون، ومصير المخطوفين الغامض حتى اليوم، والاحتجاج على محاكمات الصحفيين، وتغريم الصحف، وختم مقرات بعضها بالشمع الأحمر، وفضّ اعتصامات حَمَلَة الشهادات العاطلين عن العمل بالقوة... إن لم يكن هو السياسة ذاتها؟ وأيُّ سياسةٍ أشرفُ من أن نرى حياتنا تَنْعَم بالحرية واحترام كرامة الإنسان، فلا يخشى المرءُ على نفسه من رأيٍ رآهُ وعبَّر عنه، ولا من حقٍّ مدنيّ أو سياسيّ مَارَسَهُ، ولا من تبعات مطلَبٍ طالب به وتَظَاهَرَ في الشارع من أجله، كما يفعل غيرُنا مِن خَلْق الله في البلدان التي تحكُمها نُظُمٌ متحضّرة؟

عند هذه العتبة وقف معنى السياسة عندي حينئذ، ربما بتأثيرٍ من توفيق ومواقفه المدافعة عن خيار المجتمع المدني، وربما بأثرٍ ممّا سمعْتُه في الاجتماعات، وما عاينْتُهُ من ضروب العمل فيها، وربما من افتقاري لقابليةٍ ذاتية لاستقبال معنًى آخر أكبر للسياسة، وربما من اجتماع هذه الأسباب كلّها. لكنّ ما جرى بعد تاريخ انضمامي إلى الرابطة، بأقل من شهرٍ ونصف، أخذني فجأة إلى حيث لم أتخيّل، حين وضعتُ قدمي لأول مرّة في هذا العالم. كنتُ، مثل ملايين الناس، أتابع على القنوات التلفزيونية مشاهد المظاهرات الصاخبة في تونس، وخاصة بعد أنِ اتّسع نطاقُها في الأيام الأخيرة من حُكم الطاغية. ما تخيَّلتُ أبداً أن تذهب الأمور إلى تلك النهاية التي انتهت إليها. عرفت، لأول مرةٍ، معنى الثورة، كتغييرٍ صاخبٍ لنظامِ حكمٍ قائم، ورأيتُ دموع الفرح تهطل من عينيْ توفيق وكريم وسليمة ونحن نتابع أخبار انتصار الشباب التونسي، وفرار الحاكم الذي كانت فرائص الناس ترتعد من اسمه وصورته. انتقلتْ عدوى الدموع إلى مقلتيّ، وتعانقنا كأننا نلتقي بعد غياب مديد.

شعرتُ في تلك اللحظة وكأني ولدتُ من جديد، كأن تاريخ ميلادي هو ١٤ يناير ٢٠١١ وليس صيف ٩٢. تضاعف شعوري ذاك بعد أنِ اندلعت الثورة في مصر، وتقدَّم شبابُها الصفوف، وتهاوى صرحُ نظام المستبد الفاسد، وكأنه لم يكن يوما، أو لم يفرض سطوته على شعبٍ طيلة جِيلٍ كامل. كنّا حينها ـ والثورةُ في ميدان التحرير ـ نتساءل، أنا وكريم ونبيلة، ومريم...، هي يكفينا أن نناضل من أجل حقوق المعتقلين وضحايا التعذيب وحرية الرأي والتعبير؟ كان توفيق مصرّاً على أن هذا النضال هو الذي أوصل المعركة في تونس ومصر إلى هذه اللحظة من النصر، وأن المطلوب منّا، اليوم، الخروج به إلى الشارع. أمّا سليمة وأمجد، فتحدَّثا كثيراً عن تجربة هيئاتٍ لم أكن أعرف عنها شيئاً، مثل حركة «كفاية» و«شباب ٦ أبريل»، وعن طبيعة عملهما كعمل سياسيّ ضدّ فساد النظام وضدّ توريث السلطة. وظل الجدل بيننا لأيامٍ إلى أن فاجأتنا نبيلة بالدعوة التي أطلقها شباب، عبر الإنترنت، منهم أمجَد وإيمان إلى، التظاهر في ٢٠ فبراير.

- ٤ -

للمرة الثالثة، خلال أسبوع، يقصد هذه المقهى قرب مبنى الإذاعة والتلفزة، منتظراً أحد روادها من زملائه في العمل. لم يكن، في ما مضى، يستجيب لدعوة أحدٍ منهم لتناول فنجان قهوة بعد نهاية الدوام، ليس لأنه لا يرتاح إلى المكان، ولا لأنه يترفع، ولكن لأنه لا يجد في نفسه ميلاً إلى الجلوس في المقاهي، ولأنه لا يحبّ الثرثرة التي تغري بها جلسات المقاهي. يجد نفسه، هذه الأيام، مدفوعاً إلى الْتماس جلسةٍ مع أيٍّ كان ممَّن يثوبون إليها من زملائه. قَصَدَها في المرة الأولى برفقة السّي الهاشمي، الذي بدأ معه حديثاً في المكتب وأتَمَّاه في المقهى، قبل أن يلتحق بهما ثلاثة آخرون. أمّا في المرة الثانية، فقصدها بنفسه باحثاً عن أيٍّ منهم، ولمّا لم يجد أحداً، هام على وجهه قليلاً بين شوارع حسَّان وزنْقاتها ، في انتظار وصول مَن يصل منهم. وحين عاد بعد نصف ساعةٍ من التطواف، وجد عبد الرزاق مقتعداً مكانه المعتاد داخل المقهى، ومنشغلاً بتعبئةِ لوحة للكلمات المتقاطعة. لم يتجاذبا إلاّ طرفاً قليلاً من الحديث حول مشكلات الموظفين مع المدير الجديد حين وَصَلَ السّي الهاشمي والمعروفي فغيَّرا الموضوع، لئلاّ يتحسَّس المعروفي من الحديث عن المدير الذي يمتّ إليه بقرابة عائلية.

قرّر هذه المرّة، وقد وَصَل مبكّراً، أن يجلس وينتظر. طلب برّاد شاي بالنعنع والشِّيبَة، والْتهى بتحليته بهدوءٍ يناسب زبوناً غيرَ مستعجل للمغادرة. طرقتْ أذنَه عبارة ٢٠ فبراير. استنفر سمْعَه جيّداً ليلتقط شيئاً ممّا يدور بين ثلاثة يتحلقون حول الطاولة المجاورة. خُيِّل إليه أنهم يفتعلون هذا الحديث ويقصدونه به. اختلس نظْرات سريعةً ليتأكد من صدق حدسه، فلم يتبيَّن شيئاً من ذلك في ملامح وجوههم، التي استغرقها الانخراط في الكلام إلى حدّ الانصراف عمّا يجري حولهم. تنحنى قليلاً ليحسِّن مستوى الإصغاء، فانتهت إليه بعض الكلمات المتقطعة، التي تعسَّر عليه الجمع بينها لتكوين معنىً ما. لم يساعده صوت التلفاز المرتفع في تركيز الإصغاء، فخطر له أن يراقب حركات شفاه المتحدثين عساهُ يتسقَّط منها كلمات دالة. سخر من خاطرته، واستسلم للانتظار، وهو يعلم أنه لن يطول لأكثر من نصف ساعة.

✤

لم يعد يشك في أن ابنه حسن مسحور. أحدٌ ما أطعمه شيئاً خَطَف لُبَّه، وجعله ينقاد له، وإلاّ ما معنى أن يخيّرَهُ بين السياسة والبقاء مع أهله في البيت فيختار السياسة؟! «عديم المروءة» يتحدَّاه ويقول له: كلّ المغاربة أهلي، وكلّ الوطن بيتي. طيب، اذهب إلى أهلك جميعاً، ودَعْهُم يوفّرون لك حاجياتك من مأكل وملبس، ودَعِ الوطن يفتح لك غرفةً للنوم. نَاكِرُ الجميل لا يخجل من أن يقول له إنه أصبح رجلاً يملك أن يقرّر مصيره بنفسه. من أين أتَتْهُ هذه الجسارة، فجأةً، وهو لم يكن يتمالك نفسه إنْ سمع نباح كلب في الشارع؟ كيف يسمح لنفسه بأن يحدّث والده بِنِدِّيةٍ، ولا يقيم للأبوَّة اعتباراً؟ لا يفعل هذا إلاّ مَن هو مسحور. وهو لا يستغرب أن يصيبه من السياسة سِحْر، فأكبر السَّحَرةِ في الدنيا من رجال السياسة. كم من بيتٍ عصفتْ به، ففرَّقت بين الأخ وأخيه، وكم من حيٍّ أشعلت النزاع بين سكانه، وقد كانوا جيراناً متساكنين، وكم من حربٍ قامت بين دولةٍ وأخرى

بسببها. وهاهي اليوم تصنع الوقيعة بينه وبين ابنه، وتدفع الأخير إلى أن يهجر البيت بمن فيه، وكأنه يخرج من سجن بغيض!

يتذكر، بخجلٍ، كيف فتح الحديث مع ابنه بحزمِ أبٍ تعوَّد من ابنه الطاعة، فانتهى إلى استعطافه بعبارات لم تَخْلُ من معاني العجز والذِّلّة! كيف تنطَّع المسخوط فتقصد إشعار والده بأنه رجل لا يملك مبدأً في الحياة حين قال له: إنّه عثر أخيراً على الطريق السليم الذي يُطَمْئِنُهُ إلى أنه يستحق الحياة، مادام أصبح يملك مبدأً. الغرّ لا يعرف أن هذا الطريق سيأخذه إلى الموت لا إلى الحياة، وإن لطفت به الأقدار، فسينتهي به في السجن. لم يترك له الملعون باباً ليدخل منه، أقفلها عليه جميعاً وأضعف حجَّته. واثق هو ممّا يقول، ومؤمن أشدّ الإيمان. وهو إلى ذلك يعرف كيف يتحدث، وكيف يردّ على الفكرة بالفكرة. لا يهتاب، ولا يتلعثم، وكأنه يؤدي دوراً مسرحياً حفظ نصّه بإحكام. فاجأه ذلك القدر من الجرأة لديه، بمثل ما فاجأته كفاءتَه في الجدل. أين تَعَلّم ذلك كله ومَن علّمه؟ والأنكى أنه لم يَدَعْهُ يأخذ معه ويعطي في الحديث طويلاً؛ إذْ لم يلبث، بعد جلستين من المناقشة الصاخبة، أنِ اختفى من البيت لأيامٍ ثلاثة متتالية. وحين عاد مساء اليوم الرابع، ظنَّه رَجَع عن عصيانه. ولكن ما إنْ حاول أن يفتح معه الموضوع من جديد، حتى صدَّه قائلاً إنه لا يرغب في أن يسمع مواعظ. أصبح الوغد يَحْسَب نصائح والده مواعظ، ويستسهل الردّ الفوري على كل كلمة يقولها، بعد أن كان يَزن كلماته في الأيام الماضية. أمّا حين أفهمه أنه لن يسمح لولدٍ طائش أن يتطاول على أبيه، حمل أغراضه وغادر البيت. ومن حينها لم يرهُ، وإن كانت جدّته أكدتْ له أنه زارها ثلاث مرّات، وجلس معها قليلاً قبل أن يخرج إلى مكان لا تعلم أين.

فكَّر في مَنْ يكون هذا العدوّ الذي أفسد أخلاق ابنه، وزاغَ به عن الطريق. هل تكون الجامعة مَن سخَّن رأسه وبثّ فيه هذه الجسارة المفاجئة؟ ربّما، فهو لم يكن هكذا قبل أن يلتحق بها. ولكن، لماذا لم

تفعل ذلك بغيره من أصدقائه الذين زاملوهُ في الثانوية، ودخلوا معه إلى الكلية مثل حميد ومحمّد وسليم؟ فمازال هؤلاء، مثلما كانوا مسالمين ولا مبالين بالسياسة! هل يكون الانترنت هو الذي فتّح عيونه على الممنوعات، وزيَّنَ له ركوبها؟ ربما، ولكن لماذا لم يحصل ذلك إلاّ في هذه الأشهر، بينما هو أدمن الانكباب على الانترنت منذ ثلاثة سنوات؟ لا شكّ، إذن، في أن مشاهد تلك السيبة التي عرفتها تونس ومصر هي التي أشعلت الفتيل فيه، وفي أمثاله من المجانين. وليكن، ما علاقته هو بزين العابدين بن علي وحسني مبارك حتى يخرج إلى الشارع متظاهراً؟ هل يريد وزملاؤهُ المجانين أن يقلّدوا شباب تلك الديار؟ ولماذا يقلّدونهم فيما أحوالنا غير أحوال التوانسة والمصريين؟ هُم مجانين فعلاً، وحَسَن أكثرهم جنوناً، وهل من جنون أكبر من أن يقول مع أصحابه، على الانترنت، إنهم يرغبون في أن تنتهي الدولة المخزنية وتقوم أخرى؟ هل لعاقلٍ أن يقف في وجه المخزن؟ لقد أخبره السّي الهاشمي بأن داعيةً إسلامياً مغربياً بعث رسالة إلى الملك، قبل أربعين عاماً، يعلن فيها معارضته لسياساته، فما كان منه إلاّ أن وضعه في مستشفًى للأمراض العقلية. وعلّق السي الهاشمي على الحادثة بالقول إن من يعارض المخزن لا يمكن إلاّ أن يكون أحمقاً. هو على حقّ، لا يمكن إلاّ أن يكون أحمقاً.

يتمنى في قرارة نفسه أن لا صيب ابنه مكروهٌ من فِعْلَته الخرقاء التي فعلها وهو غائب عن الوعي. إنه يقبل أن يضعوا ابنه في مستشفى للمجانين على أن يقتلوه، أو يُخفوه عن الأنظار. على الأقل سيبقى حياً، وسيتاح له أن يزوره في مواعيد زيارة المرضى، فيحمل إليه الطعام ويطمئن عليه. لا بأس من أن يكون أحمقاً فيستفيد من عفو المخزن، ويبقى رأسه فوق كتفيه. وإذا ما حصل له مكروهٌ، لا قدَّر الله، وقُبض عليه، وسيقَ إلى المحاكمة، سيسعى، بمساعدة زملائه وأصدقائه، في أن يقنع المحامي باستخراج شهادة طبية له تفيد بأنه يعاني من اضطرابات عقلية، وأنه كان يتلقى العلاج

منذ فترة طويلة. ستساعده هذه الإفادة الطبية، لا شك، في الإفلات من عقاب سجني يعلم الله وحده كم سيمتد ويطول. ولكن، ماذا لو لم تنطل الحيلة على المحكمة؟ هذا يتوقف على شطارة المحامي، وكفاءته، وقدرته على مراوغة القاضي، وإقناعه بوجاهة حجّته. لا بدّ، إذن، من أن يجد له المحامي المناسب لأداء هذا الدور. أمّا كيف يعثر على مَن يمكّنه من مثل هذه الشهادة الطبية، فالمال يفتح الأبواب المغلقة: ألم يقولوا إنه يشق الطريق في البحر نفسه؟!

كان ما يزال مسترسلا في تداعياته حين وصل السّي الهاشمي، واقتعد كرسياً مقابله. استعاد أنفاسه اللاهثة، في داخلٍ متعَب مكسور، وسأله عن سبب التأخر عن الموعد:

ـ كنتُ أتابع أخبار ليبيا في قناة الجزيرة، يبدو أن الثوار سيطروا على مناطق الشرق كافة، وهم يتقدمون نحو المدينة التي نشأ فيها العقيد.

ـ وماذا عن المغرب، هل قالوا شيئاً؟

ـ تحدثوا عن لجنة الدستور التي تألفت وعن اعتزام الشباب الاستمرار في مظاهراتهم.

ـ ما الذي يريده هؤلاء الطائشون بعد الشروع في الإصلاحات؟

ـ صرّح أحدهم أمس، لقناةٍ فرنسية، بأنهم متمسكون بمطالبهم ولن يحيدوا عنها، وأنهم ليسوا مطمئنين إلى وعود الدولة.

ـ وما هي المطالب التي يتمسكون بها؟

ـ الملكية البرلمانية.

ـ هل يريدون أن يحكم جلالة الملك والبرلمان معاً؟ ما هذه البدعة التي لم نعرف لها مثالاً؟

- لا، إنهم يريدون نظاماً لا يحكم فيه الملك؟

- لا يحكم! ما هذه التخاريف؟

- نعم، يسود ولا يحكم.

- وماذا تعني هذه؟

- أن تصبح ملكيتنا مثل ملكيات أوروبا: بريطانيا، والدانمارك، وهولندا، وإسبانيا...

- وبم تختلف هذه عنّا، أليس فيها ملوك؟

- نعم، ولكنهم لا يحكمون.

- ومَن يَحْكُم؟ مقدَّمو الحارات؟ ما هذه التخاريف؟!

- دعنا من هذا وأخبرني عن حسن، هل عاد إلى البيت؟

- لا، لم يَعُد، ولكن جدّته أخبرتني أنه زارها، صباح هذا اليوم، وقضى معها بعض الوقت قبل أن يعود إلى الجامعة.

- لماذا لا تحاول معه مرةً أخرى عساهُ يلين قليلاً.

- لا فائدة تُرْجى من صرْفه عمّا انغمس فيه. لا أراه إلاّ مُمْعِناً في ركوب رأسه، والمغامرة بمستقبله، وربما بحياته.

- ليس عن هذا أدعوك إلى المحاولة من جديد، فلا أنت ولا غيرك يستطيع أن يزحزحه عن رأيه.

- وفيمَ أحدّثه، إذن، إن لم يكن في هذا الأمر؟

- حاول، على الأقل، أن تقنعه بالعودة إلى البيت، ولا بأس من أن تَعِدَه بأنك لن تضغط عليه، أو تناقش معه انتماءه إلى الحركة.

ضَرَبَ كفّاً بكفّ وقال:

- حسبي الله ونِعْم الوكيل. أهذا ما أنتظر سماعه منك من نصائح يا السّي الهاشمي؟

ـ صدقني أن هذا سيكون أفضل من وجوده خارج البيت، في مكانٍ آخر لا تعلمه، ولا تعلم ماذا يجري فيه.

ـ أنت تدعوني إلى التسليم بالأمر الواقع، الذي وضعني فيه، بل إلى مباركته له، ومكافأته عليه.

ـ وهل تعتقد أن معاقبته بهذه الطريقة هي ما سيردعه.

ـ أنا لم أعاقبه، هو الذي عاقب نفسه واختار مغادرة البيت.

ـ لكنك أنتَ مَن خيَّره بين ترك السياسة أو مغادرة البيت، أو هكذا فهمت من كلامك. سوف تندم إنْ لَمْ تَسْعَ في إقناعه بالعودة إلى البيت، واستئناف حياته بشكل طبيعي. ستدفعه بذلك إلى اتخاذ قرارات أخرى لا يعلم أحد مع مَن سيتخذها، وفي أية ظروف، ولا إلى أين ستفضي به. أنت، على الأقل، ستستفيد من الشعور بأنه تحت ناظريْك، وستَهْنَأُ نفسُك قليلاً من الوساوس التي تنهش فيك. ومَن أدراك إنْ كانت أمورُهُ ستتغيّر قليلًا إذا ما ثاب إلى البيت والأهل، وشعر بالاطمئنان النفسي. ثم إنه الولد الوحيد الذي رزقك الله، فكيف تفرّط به بعد كل تلك التضحيات التي قدمتَها لتنشئته وتعليمه؟!

ـ لا أستطيع أن أطلب منه العودة إلى البيت من دون أن يعود عن أفكاره.

ـ وهل سيعود عنها إذا ما أقفلت أمامه سبيل العودة إلى البيت؟

ـ لن أقفل أمامه سبيل العودة إنِ اختار هو ذلك بمحض إرادته. ولكني لن أتساهل معه في أمر حماقاته، سأظل أضغط عليه كي يوقف نشاطه السياسي.

ـ أنا ألتمس لك سبيل الممكن وأنت تطلب المستحيل. وتأكد من أنك بهذا العناد ستخسر ابنك إلى الأبد.

ـ لقد خسرته منذ خرج عن طوعي، وسلك طريق التهلكة، ولم يَبْق لي إلاّ أن أنساه، أن أمحو ذكراه في نفسي.

ـ دعْك من المكابرة، أنت لا تملك أن تنساه لأنه ابنك. وما فَعَلَهُ ليس نهاية العالم، وقد فعل ذلك كثيرون أمثاله. ثم إن هذه الغمّة ستنتهي قريباً بعد إعلان الدستور، وستعود المياه إلى مجاريها.

ـ كأنك لا تعرف، يا السّي الهاشمي، بأنه وجماعتُه يطعنون في إجراءات التعديلات الدستورية، وأنت نفسُك قلتَ قبل قليل إنهم يريدون ملكية أخرى مثل ملكيات الأوروبيين.

ـ ليس كلّ ما يريدونه سيكون. سيجدون أنفسهم، في النهاية، وحيدين حينما ستميل الأحزاب إلى تأييد الدستور.

ـ ومَن أدراك بأنهم سيَيْأسون. ألم تَرَهُم يتظاهرون في كل مكان؟

ـ سيتعبون ثم يخلدون إلى الراحة.

ـ إيه كما تَعِب شباب تونس ومصر واليمن وليبيا وسورية، فعادوا إلى بيوتهم...

ـ صرتَ متفوّقاً عليهم في الإصرار إذن. يبدو أنك، ورغم كلّ خوفك، مازلتَ لا تعرف المخزن يا السّي أحمد.

ـ أعرفه وأخشاه، ولذلك أخوض المعركة مع هذا الأحمق حتى يعود إلى رشده، ويُجنِّب نفسه الويلات.

ـ أنا أفهم موقفك كأب، وأنا متعاطف معك من دون تردّد. ولكن يؤسفني أن أقول لك إن الطريقة التي تواجه بها المشكلة لن تجديك نفعا، لأن حسن جرفه تيار الشباب، وأنت لا تملك أن تقف في وجه التيار. الشيء الوحيد الذي تملكه هو أن توفّر له ضفة يستقر عليها بين الحين والآخر، والضفة هذه هي البيت. واسمع مني: لن تخسر الكثير من عودته

إلى البيت، ولكنك ستخسر كل شيء بوجوده خارجه ولك أن تتصرف مع عودته كتجربة؛ إنْ تَبَيَّنَ لك أنها مفيدة، فذلك ما نبغي، وإن تبيّن أنها لم تزده إلاّ سوءاً، ففي وسعك حينها أن تفرض عليه شروطك، أو تدفعه إلى البحث لنفسه عن مكان آخر.

ـ لن أطلب منه العودة حتى لا أضع نفسي موضع المسلِّم بالأمر الواقع.

ـ ما رأيك في أن تترك لي أمر التحدث إليه في الموضوع، ومن دون أن يشعر بأن شيئاً ما رُتِّب بيننا في المسألة.

ـ لا مانع لديّ في ذلك على أن لا يرد اسمي في الحديث كطرف، وعلى أن لا تعطيه ضمانات لن يجدها عندي.

ـ اتفقنا.

قَطَعا الحديث حين وَصَل المعروفي وعبد الرزاق، واستسلموا جميعاً لإغراء التداعي في كلامٍ متنقل بين ألف موضوعٍ وسانحة.

- ٥ -

لم تكن مظاهرة اليوم بحجم سابقتها قبل شهر، على الرغم من أن طقس الرباط بَدَا أفضل وأدفأ. سمع من وليد وياسر وجمال وسليمة وإيمان تقديراً مختلفاً لها، قالوا إن عدد المشاركين أضخم، والشعارات أكثر قوةً وحزماً، والتأييد من القوى السياسية والجمعوية أشدّ. إيمان قدمت تحليلاً متماسكاً لما جرى، قالت إن المظاهرة فاقت توقُّع الجميع، وخاصة مَن راهن بلؤم، أو بسوء تقدير، على أن تكون الاستجابة ضعيفة أو رمزية بعد الإعلان عن قرار تعديل الدستور. الأحزاب السياسية، أكّدت إيمان، تفوّقت على السلطة في الكَيْد الخفيّ للحركة وفي إشاعة الاعتقاد بأنها انتهت، أو هي إلى أفول. استشهدت بما كتبتْه صحفُها، وما أتى على لسان مسؤوليها. ولم يَفُتْهَا أن تنتبه إلى هذه الظاهرة الجديدة التي كشفت عنها الحركة، وهي وقوف قوى اليمين واليسار معاً ضدّها، وهذا ما يعني، في نظرها، أن الحركة تعبير عن إرادة شعبٍ مَلّ من هذه الدكاكين السياسية، التي لم تنفعه يوماً في قضايا الخبز والحرية والعدالة، وكان همّها دائماً تحسين حصّتها من السلطة والمنافع، وتعبيرٌ في الوقتِ عينِه عن ميلاد جيلٍ سياسيّ جديد يمتلك ثقافةً وإرادةً جديدتين.

سألها توفيق عن وقوف بعض القوى السياسية الأخرى المعارضة إلى جانب الحركة، وعمّا يعنيه موقفها المتضامن، وهل هو موقف صادق أم رغبة في ركوب موجة الحركة، فأجابت بأن شباب الأحزاب المناهضة للحركة هُم بدورهم وقفوا موقفاً مشرّفاً، ومخالفاً لمواقف قياداتهم، وهذا وحده يكفي دليلاً على أن الحركة فرضت نفسها على الجميع، إلى حدِّ إحداثها شروخاً في وحدة بعض الأحزاب. أمّا ما الذي يقف وراء المتضامنين مع الحركة، فأمْرٌ لا يمكن القطع بشأنه، وما يهم شباب الحركة هو أن يستفيدوا من هذا التضامن والتحالف، بقطع النظر عن نواياه، بشرط أن يحافظوا على استقلالية الحركة، وأن لا يسمحوا لأحدٍ بأن يمليَ عليها سياسته. ولم تنس أن تدعم رأيها بما فعله شباب تونس ومصر مع الأحزاب والقوى السياسية التي شاركتهم ثورتهم.

شيءٌ ما في نفسه يكذّب هذه الصورة الوردية، التي قدّمتها إيمان ووافقها عليها الآخرون؛ لعلّه ما رأى من مشاركةٍ شحيحةٍ في الأعداد، لعله الشعور بأن مظاهرة اليوم أكبر امتحان تجتازه الحركة بعد الإعلان عن التعديلات في الدستور، وأنها، لهذا السبب بالذات، كان ينبغي أن تكون أضخم حتى تطمئن الحركة إلى أنها مازالت في قلب الحركة الاجتماعية، وأنّ أحداً لم يخطف منها هذا الدور والبريق. خشي أن يُسَاء تفسيرُ رأيه إنْ هو جاهر به، وسط ذلك الشعور الطاغي بالانتصار الذي غَمَر رفاقه، لذلك تردّد في الكلام والتزم الصمت. وزاد من تردُّده خِشيتُه من أن لا تكون الصورة كاملة لديه عن الحركة في الأقاليم والمدن كافة؛ فها هو وليد يؤكد أن اتصالاته الهاتفية مع رفاق آخرين في مدن أخرى أفادته بأن مظاهرات الدار البيضاء ومراكش وفاس حاشدة، وتفوق أيّ توقّع، وهاهي سليمة تخبرهم بأن ابن عمّها أكّد لها من طنجة بأن المدينة شهدت أضخم مسيرة في تاريخها. ومع أنه كان يستطيع أن يصدق المعلومات، فيُطْمَئِن نفسَه بأن هذه أحوال المظاهرات في سائر بقاع العالم، تكون متفاوتة في الحجم بين

مكان ومكان، وخاصة حينما تتزامن في اللحظة عينها. ومع أنه كان يسعه أن ينطلق من هذه المسلّمة، فيدعو إلى التفكير في الأسباب التي حالت دون أن تكون مظاهرة الرباط بحجم زميلاتها في المدن الأخرى، وفي مسؤولية القائمين عليها هنا في ما ظهرت عليه من ضعف، إلاّ أنه تراجع، في اللحظة الأخيرة، وعزف عن الكلام. وحين سأله ياسر وتوفيق رأيه، اكتفى بالقول إنه يفضل أن يناقش المسألة في الاجتماع الذي سيعقده المسؤولون من شباب الحركة، محلّياً، في مساء اليوم نفسه.

✤

خرج من الاجتماع وذهنُه أكثر تشوّشاً مما كانه قبل أن يباشروا تقييم ما حدث. كان يحتفظ ببعض الشك في أن يكون تقديرُه صحيحاً؛ فهو لا يعرف الصورة كاملةً في المدن الأخرى - يقول في نفسه - مثلما يعرفها بعض رفاقه المسؤولين عن التنسيق مع نظرائهم في تلك المدن. وهم أكدوا أن المظاهرات فيها حاشدة، وهو لا يملك إلاّ أن يصدّقهم، وتجربتُه في العمل العام متواضعة، ولا تتجاوز الأربعة شهور، بينما خلف إيمان أربع سنوات في النضال الطلابي والحقوقي، وخلف وليد وياسر زهاء عامين من العمل في حقوق الإنسان، وخلف سليمة - الملتحقة حديثاً مثله بالجامعة والعمل العام - عائلة مناضلة مؤلفة من والديْن يساريَّيْن عريقين، وكمٌّ هائل من المعرفة بالواقع السياسي تشرَّبته في البيت، وهي في ذلك تُشبه نبيلة ومريم المنحدرتين من أسرتين مناضلتين. لاَذَ بالصمت، لتلك الأسباب، منتظراً أن يتبيّن الصورة أكثر أثناء المناقشات.

لاحظ في الاجتماع أن الرواية التي سمعها، منذ ظهر نفس اليوم، من بعض رفاقه - الحاضرين في الاجتماع - جُودِل فيها كثيراً ونال الجدل فيها من بريقها، ومن كثيرٍ من الاطمئنان إليها. فتح حديث أمجد وتحليلُه الشكّ فيها. كان مزوَّداً بالمعلومات التي تكفيه للطعن في إفادات ياسر وسليمة

وتحليل إيمان ووليد. لم تتجاوز مظاهرة الرباط العشرة آلاف مشارك في الحدّ الأقصى، بينما كانت الترتيبات أن يفوق العددُ أضعاف أضعاف ذلك. ومظاهرة الدار البيضاء لم تزد عن الأولى عدداً، أما طنجة فلم تشهد مظاهرة صاخبة ولا يحزنون؛ تعود المسؤولية إلى اللجنة التنظيمية، وإلى الأداء الإعلامي للحركة، ثم إلى عدم إحسان مخاطبة الرأي العام وبعض القوى السياسية المتردّدة لكسبها. كما أن العلاقة ببعض الجماعات السياسية، المشاركة في تظاهرات الحركة، ومسارعة بعض منتسبيها إلى الحديث إلى وسائل الإعلام والفضائيات، أوحى لكثيرين وكأن الحركة رهينةٌ لقرارها السياسي، أو على الأقل مصطفّة إلى جانبها. ثم إن الحركة ـ يستطرد أمجد ـ تحتاج إلى وقفة تأمُّل لتحليل الموقف، بعمق، بعد الإعلان عن تعديل الدستور، واستقبال ذلك بشكلٍ إيجابي من طرف الأحزاب السياسية.

ـ تتحدث عن خشيتك من اتهام الحركة بالارتهان لقرار حلفائها فيما تدعونا إلى أن نأخذ في الحسبان المواقف الإيجابية للأحزاب من الإعلان الرسمي عن تعديل الدستور، ما هذا التناقض؟! تَسَاءَل وليد باستغراب.

ـ لم أَدْعُ إلى استبدال قميص بقميص، دعوت فقط إلى التفكير في الظرفية الجديدة التي لم نُحسن الانتباه إليها، فواجَهَتْنَا نتائجُها في مظاهرات اليوم بهذا الذي تراه من هزيلِ الحصاد.

ـ مهلاً، مهلاً، قالت إيمان، لم تكن مظاهرات اليوم فاشلة كما تدعي.

ـ لم أقل إنها فاشلة، وإنما دون الذي توقعناه منها. هل نسيتِ أنكِ كنتِ تقولين، قبل بضعة أيام فقط، إننا بتنا نخوض امتحان المصداقية والبقاء، وإننا قد نخسر كل البريق الذي يشعّ من صورة الحركة إن عجزنا عن تنظيم مسيرة صاخبة؟ هل أُذكّرك بسؤالِكِ الذي أَلْقَيْتِهِ في وجوهنا جميعاً ووافقناك عليه: «كيف يستطيع غيرُنا أن ينظم مسيرات تضامنية مع الشعبين

الفلسطيني والعراقي يتجاوز المشاركون فيها المائة ألف والمائتي ألف، فيما نعجز حتى الآن عن تنظيم مسيرةٍ من خمسين ألف مواطن، والشعبُ هو نفُسه الشعب، والزمنُ هو نفسُه الزمن؟».

- لم أنْسَ، لكنّي ... .

- لكنكِ تحاولين الهروب من الحقيقة التي تفرض علينا المواجهة الشجاعة بدل التبرير.

جرّبْتُ أن أتدخل لتهدئة الموقف، بعد أن لاحت على وجه أمجد علاماتُ انفعالٍ لم يستطع أن يداريها صوته المهذب. لكنه استرسل مستسمحا إياي في إنهاء كلامه:

- لستُ أدعوكم إلى أن نعترف بأننا خسرنا هذه الجولة من رهاننا، هنا في الرباط، كما في المدن الأخرى، وإن كان مثل هذا الاعتراف من أوجب الواجبات النضالية والأخلاقية علينا تجاه جمهور الحركة، وتجاه الرأي العام والناس جميعاً. وإنما أدعوكم إلى إجراء وقفة نقدية نراجع فيها أخطاءنا وحساباتنا المتسرعة، ونقف فيها على أسباب الخلل والتعثر في عملنا، كي نتفاداها مستقبلاً، ونُحسن التصرّف. أدعوكم إلى التَّحَلّي بالشجاعة الأدبية وممارسة نقد ذاتي.

ردّ وليد على الفور متسائلاً:

- هل تريده نقداً ذاتياً معلناً أم ماذا؟

- ولِمَ لا، قال أمجد، أليست الصراحة رأسمالنا الوحيد في المجتمع وفي أوساط الرأي العام؟

أبْدَت إيمان امتعاضاً صامتاً من جوابه، بصوت مسموع استدركتْه بالقول إن المكان المناسب لمثل هذه المناقشة هي جلسات التنسيق الوطني. علّق أمجد في ما يشبه السؤال:

ـ وماذا جئنا نفعل هنا غير أن نناقش كلّ شيء بيننا، أم ترانا اجتمعنا لكيْلِ المدائح لأنفسنا على عظيم ما فعلنا؟

ـ توقّف عن السخرية أرجوك؛ قالت إيمان.

ـ أنا لا أسخر، أريد أن أفهم أيّ معنًى للمناقشة لديكم إن لم يكن وضع كلّ شيء على الطاولة.

سأله ياسر:

ـ لماذا تخاطبنا بالجَمْع وكأنك من دوننا، أو كأننا فريق واحد في مواجهة رأيك؟

ـ آسف للعبارة؛ قال أمجد.

تَعَاقب آخرون على الكلام: سليمة، ووليد، ونبيلة، ومريم، وكريم. مريم ونبيلة أكثر المتكلمين هدوءاً، ووليد أكثرهم إقناعاً أو ـ على الأقل ـ قدرة على المحاججة وإن بانفعالٍ لم أتحمَّله. لاحظتُ أنهم جميعا يناصرون رواية إيمان عن نجاح مظاهرة اليوم من دون مساجلة رأي أمجد. انفردت نبيلة بالجمع بين الموقفين، حين أشادت بالمظاهرة وما أُحْرِز فيها من نجاح، وبالدعوة إلى مشاطرة أمجد فكرته عن الحاجة إلى وقفة تأمُّل نقديّ للتجربة. وحين طلبتْ مني إيمان إبداء رأيي، أنقذني اقتراحٌ من كريم بتأجيل المناقشة إلى موعد قادم، لأن الوقت تجاوز العاشرة، وعلى الأخوات أن يَعُدْن إلى بيوتهن، وهو ما وافقته عليه مريم.

ما كنتُ لأخشى الانخراط في المناقشة وإبداء رأيي أُسْوةً بغيري، لكني فِئْتُ إلى التريُّث بعد أن لاحظت ذلك المقدار من التوتّر، غير الصامت، أثناء الحديث، وآثرتُ أن لا أضيف إليه سبباً للازدياد. كنتُ، مثل أمجد تماماً، غيرَ مقتنع بأننا أنجزنا مهمة اليوم بنجاحٍ يناسب التوقّع والانتظار. وخامرني بعض الشعور أنه لم يُجَافِ الحقيقة حينَ عَزَا السبب في ذلك إلى سوء قراءة

ما استجدّ من معطيات، منذ الإعلان الرسمي عن تعديل الدستور. لكني خشيت، في الوقت عينه، من أن يدبّ الخلاف بيننا، أو تنهار الثقة، فنفقد وحدتنا، وتتأثر عزائمنا بذلك. لذلك وجدتُ في كلام إيمان شيئاً ممّا نحتاج إليه، في مثل هذه الظروف، من استعادة الثقة بالذات. كنت حائراً أثناء المناقشة، وموزَّعاً بين موقفين لا يخلو أيٌّ منهما من وجاهة. ولكم أُعْجِبْتُ بحديث نبيلة، وقدرتها على التوفيق بين الرأيين. ومع أنها لم تبلغ الثامنة عشرة إلاّ قبل أيام، وهي تصغر إيمان بأربعة أعوام وأمجد بخمسة أعوام، إلاّ أن من الواضح أن أثر التربية النضالية الأسرية بيّنٌ في شخصيتها.

سألتُ توفيق، ونحن ننحدر باتجاه باب الحدّ، عن سبب عزوفه عن الكلام أثناء المناقشة، ففاجأني بقوله:

ـ تَطَاول عليَّ وليد في مناقشة جانبية دارت بيننا، بحضور إيمان ومريم، قبيل الاجتماع، ففضّلتُ الإضراب عن الكلام درءاً للحساسية.

ـ بمَ تطاول عليك، وكيف؟

ـ كنّا نتحدث في شأن الموقف من مظاهرة اليوم، وكان واضحاً أن وليد يحرّض منذ البداية على موقف أمجد، بشكل مبطّنٍ، زاعماً أنه سَمِعَ منه ما يفيد أنّ المظاهرة فاشلة، وأنّ علينا أن نفتح صفحة المحاسبة للّذين أساؤوا منّا تنظيمها، وهذا يعني ـ في نظره ـ أن هذه المحاسبة ستكون لاثنين في المقام الأول: له ولإيمان. فما كان مني سوى أن نبَّهته إلى أنه لا يجوز مصادرة حقّ أحدٍ في إبداء الرأي ولو كان مخالفاً، وأردفْتُ بأن أمجد إذا كان قد قال فعلاً ما نَقَلَهُ عنه، فهو لم يَعْدُ الحقيقة تماماً، لأن بعض الخلل اعتور تجربتنا اليوم. هل تصدّق ماذا ردّ به على كلامي؟

ـ ماذا قال؟

ـ قال إنه من الطبيعي أن أجاريَ أمجد في رأيه لأني من سلالة أحزاب متعوّدة على التواطئ مع النظام! وأنت تعلم، يا حسن، أنّي لست منتسباً إلى

أيّ حزب سياسيّ، ولا أعتقد بجدوى ذلك، وأن تجربتي في شبيبة الحزب التقدمي كانت قصيرة جدّاً ولم تتجاوز الأربعة شهور، غادرتُ بعدها إلى العمل في منظمات المجتمع المدني، وانتسبت إلى رابطة حقوق الإنسان التي لا يوجد من بين أعضائها منتم إلى الحزب التقدمي أو حلفائه.

- وبماذا أجبتَ وقاحته؟

- لم أتكلم، مسكت نفسي حتى لا أصطدم به.

- وماذا كان موقف إيمان ومريم؟

- لم تقل مريم شيئاً، صمتت مثلي وإن لاحت ملامح الأسى على صفحة وجهها. أمّا إيمان - والحقّ يقال - فقد نهرتْه بحدّة قائلةً إنّ هذا الأسلوب لا يجوز في حقّ رفيق مخلص ومحترم، وإن الحزب التقدمي حزب مناضل، وهو حزب الشهداء، ولا يكفي وجودُه في الحكومة، وموقفه الإيجابي من التعديل الدستوري، لشطبه من قائمة الأحزاب التقدمية.

- أنا مثلُك لا أتحمَّل لسانَه السليط، وطريقته في الكلام، ونزعة التحدي لديه. ومع ذلك، فقد كان موقفُك حكيماً بعدم الردّ على استفزازه. ويكفيك أن إيمان قالت له ما قالت ردعاً وتأنيباً. في كلّ حال، أتمنى ألاّ يؤثر كلامه في معنوياتك، أو يدفعك إلى العزوف عن المشاركة برأيك.

- لا، اطمئن.

- ٦ -

أمكن السي الهاشمي اليوم أن يعثر عليَّ في كلية العلوم، بعد يومين فاشلين من البحث عني، كما أخبرني. فوجئتُ حين رأيتهُ واقفاً على مدخل الكلية ونظراته متحفزة تتنقل بين الطلبة وتفرزهم واحداً واحداً. استغربت للأمر لعلمي بأن لا أحد عنده في هذه الكلية، فابنتُه أسماء تدرس في كلية الحقوق وابنه فؤاد مازال تلميذاً في الثانوية. لكن استغرابي انقلب فجأة إلى خوف حين لمحني وخفَّ للقائي وكأنه عثر على ضالة. انقبض صدري، وخِلْتُ شيئاً ما ألمَّ بأبي دعاه إلى المجيء لإخباري. قال لي وأنا مأخوذ بالمفاجأة المخيفة:

- الحمد لِلّه أني وجدتك بعد أن دوَّخني البحث عنك منذ يومين.

- خيرٌ، يا عمّي، ماذا حصل؟

- خير إن شاء الله، أريد أن أحدثك في أمر مهم.

- فيم؟ هل حصل لوالدي مكروه؟

- لا، لا، لكنه في حاجة إليك هذه الأيام أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

ـ لم أفهم قصدك.

ـ دعنا نجلس في مكان نتناول الغذاء سوياً ونتحدث في الذي جئت من أجله.

لم تكن ظروفي تسمح لي أن أقضيَ معه وقتاً طويلاً لأنني كنت مضطرّاً إلى العودة إلى الكلية بعد ساعة. لكني ما كنتُ أستطيع، في الوقت عينه، أن أعتذر لرجلٍ كان دائماً بمثابة عمٍّ لي، خاصة وقد أتى يبحث عني في اليومين السابقين. وهو، قطعاً، لم يفعل ذلك إلاّ أن ما سيفاتحني فيه على درجةٍ كبيرة من الأهمية. رضختُ لطلبه، وأنا أدير في رأسي الاحتمالات كافة، وأستعرضها واحدةً تلو أخرى، ونحن في السيارة في طريقنا إلى أكدال. استقر في ذهني احتمال أن يكون مبعوثاً من والدي لإقناعي بالعودة إلى البيت، والانصراف عن العمل في الحركة. لم أعْدُ الحقيقة في ما ظننت، إذ سرعان ما قطع السّي الهاشمي حبل تخميني سائلاً:

ـ ما الذي يدفعك، يا ابني، لترك بيت أهلك؟

ـ أجبت باقتضاب:

ـ لا شك في أنك تعرف السبب يا عمي.

ـ نعم أخبرني السي أحمد بما حصل بينكما، حين عَلِم بنشاطك في الحركة. ولكن ذلك لا يستحق أن تردَّ عليه بمغادرة البيت، هذا بيتك، والذين فيه أهلك.

ـ لم أترك البيت بمحض إرادتي، أُجْبِرتُ على ذلك.

ـ مَن أجبرك؟

ـ الوالد.

ـ لا أعلمُ هذا، لم أسمع منه ما يفيد بذلك.

ـ خيّرني بين تَرْك الحركة ومغادرة البيت.

ـ قد لا يكون هذا ما قاله لك بالضبط، ربّما فهمتَ الأمرَ على هذا النحو.

ـ إسألْه، إذن، إنْ لم تصدّقني.

ـ سأسأله حين أراه، لكن ما رواهُ لي غيرُ ما أسمع منك. بل أنني فهمتُ منه، في حديثٍ جرى بيننا قبل أيام، أنه يشعر ـ وجدّتُك ـ بالوحدة في البيت بسبب غيابك. بل إنه قال إنك تعاقبهما بهذا الغياب، ولا يمكن لمن يحمل هذا الشعور بالوحدة والحسرة على الغياب أن يحمل في داخله رغبة في أن تغادر البيت.

ـ عمّي، أنا أحفظ جيّداً ما قاله لي.

ـ هوِّن عليك، أنت اليوم رجُلٌ راشد، وتعرف أن المرء قد لا يملك في لحظات الضغط النفسي أن يراقب عباراته بدقة. ثم إنه، في كل الأحوال، والدُك، وعليك أن تراعيَ مشاعر الأبوّة وخوفه عليك.

ـ أنا نسيتُ الأمر يا عمّي أو كدت أن أنساه.

ـ كيف تنسى يا رجل؟ أليس لك أبٌ وجدّة؟

ـ أزور جدّتي بين حينٍ وآخر.

ـ ووالدك؟

ـ لا أرغب في أن نصطدم من جديد، وأنت تعرف موقفه من نشاطي في الحركة، وإصراري على العمل فيها.

ـ وما العلاقة بين نشاطك في الحركة والعودة إلى البيت؟

ـ كل العلاقة، لقد شرحتُ لك الأمر.

ـ لن يربط والدك بين الأمرين، صدّقني.

ـ ومن أدراك يا عمّي؟

ـ أنا أعرف.

ـ هل حدّثك في الأمر؟

ـ لا، لم يحدّثني، وهو لا يعلم أني سعيت في لقائك والحديث إليك.

ـ إذن، من الأفضل أن تعرف رأيه.

ـ هل تثق بي يا ابني؟

ـ طبعاً أثق بك.

ـ إذن، ما عليك إلاّ أن تعود إلى بيت أهلك كأن شيئاً لم يقع.

ـ لا يمكنني أن أفعل هذا، إلاّ بعد أن يبدي هو الاستعداد لذلك بنفسه، ويسلّم بأنني لن أدفع ثمن عودتي إلى البيت من حقي في ممارسة نشاطي في الحركة. لن أقبل منه مناقشةً في هذا الموضوع ثانيةً.

ـ أنت بهذه الطريقة تعقّد الموضوع كثيراً، يا حسن، ولا تترك مجالاً لمسعاي.

ـ لن أنسى لك سعْيك المشكور يا عمّي، لكنك لن تخالفني في أن حقوقي وكرامتي فوق أيّ اعتبار.

ضرب كفّاً بكفّ، وأردف متنهداً في ما يشبه اليأس «لا حول ولا قوة إلاّ بالله».

✤

لم أستطع أن أتبيَّن، على التحقيق، ما إذا كانت مبادرة السّي الهاشمي سعياً تلقائياً منه أملاهُ عليه حرصُهُ على صديقه، والدي، وعلى اطمئنانه النفسي الذي لاشكِ يعرف كثيراً عن اضطرابه، أم مبادرة مرتَّبةً ومتفاهَماً عليها منهما. أُدرِك، في الحالين، أنها لن تطفىء حرائق الخلاف بيني والوالد؛ فأن تكون مبادرةً شخصية منه، لن يكون مآلُها غير الفشل،

لأنها لا تقدّم لي ضمانات بأن والدي سيسلّم بحريتي في ممارسة العمل العام. وأن تكون ترتيباً مشترَكاً بينهما، ينقصُها الوضوح والصراحة، لأن الإيحاء بأنها مبادرة شخصية لا يعني غير أنه ليس وارداً عند أبي التنازل أمام حقوقي، وأنه يرمي بالكرة في ملعبي ويترك لنفسه - في حال عودتي بهذه الشروط المسكوت عنها - حرية التدخل في شؤوني ثانية. حين فاتحت أمجد في الموضوع لأستعين برأيه، حرص على طَمْأَنتي على صحّةِ موقفي طالباً مني، في الوقت نفسه، أن أكون أكثر تسامُحاً مع والدي، وأكثر تفهُّماً لأسباب موقفه، وأن أكثّف من زياراتي للبيت في الأوقات التي يكون فيها ولو بدعوى الاطمئنان إلى صحّة جدتي. أمّا توفيق، فلم يعلّق سوى بأن سألني:

- ألم تَشْتَقِ لأهلك وبيتك؟

أجبتُه:

- «نعم أنا مشتاقٌ و عنديَ لوعةٌ .... ولكنَّ مثلي لا يُذاع له سِرٌّ». كما قالت أمّ كلثوم.

ابتسم أمجد وقال مصحِّحاً:

- بل كما قال أبو فراس الحَمْداني، وغنَّت أمّ كلثوم.

- ٧ -

«اعطِ ما لِلّه لِلّه واعْط ما لقيصر لقيصر»؛ بهذه القاعدة أخذ أمجد في السنوات الجامعية المنصرمة، فَوَازَن بين المثابرة على حضور دروسه في كلية الطب، وعلى العمل في النقابة الطلابية والرابطة الحقوقية، من دون أن يغلِّب هوًى في النفس على آخر. لا يعرف إن كان يستطيع، بعد اليوم، أن يحافظ على هذا التوازن في يومياته، بعد أن لاحظ أن عمله في الحركة يلتهم مساحةً من الزمن، أوسع من ذي قبل، بالكاد تُبْقِي له على هامش ضيّق من الوقت لمتابعة دروسه. يؤرقه ذلك منذ شهر، منذ بدأ يستشعر الاختلال في التوازن. يؤرقه أكثر أنه بات عليه أن ينفق وقتاً إضافيا في قراءة الصحف الوطنية باللغتين، ومتابعة الأخبار عبر الإنترنت والفضائيات العربية والأجنبية. لا يريد لنفسه أن يخوض في عمل تاريخي، مثلما يقول، وهو يفتقر إلى عُدَّة اشتغالٍ كافيةٍ من معلومات، وتحليلات للموقف، وآراء ورؤًى. لكنه، الآن، أمسى يدرك أن تلك الإطلالات اليومية على خريطة السياسة والمواقف في البلاد تَفْعل فعلَها فيه، تُعلِّمه أن لا يفكّر وحده، أو أن يفكّر مستحضراً شركاء آخرين، في المعركة عينِها، لهم من الحِصَّة مالَهُ ولحركته، وتعلّمه أن يبحث في ما وراء التباينات عن الجوامع والمشتَركات

فيَلُوذُ بها. يعترف في داخله بفضل يوسف عليه في تنبيهه إلى وجوب التزامِ الاحتراز من إطلاق الأحكام السائبة في السياسة، وتحرّي التواضع والنسبية، والاعتراف بمساهمات الآخرين وأدوارهم، والتحرُّر من أوهام التجاوز والتمثيل الحصري للقضية. سمع منه ذلك قبيل مرضه ووفاته قبل عامين ونصف من ميلاد الحركة ـ وهو في ذروة اندفاعه الرفضوي ـ وهاهو اليوم يقف على وجاهة رأيه، بعد الذي عايَنَهُ من ضروب الانفلات في تفكير وسلوك كثيرٍ من رفاقه في الحركة.

ناضل يوسف في اليسار سنوات السبعينيات، وكان عضواً في قيادة تنظيم من تنظيماته، واعتُقل وحوكم بالمؤبّد، ثم قضى في السجن أربعة عشر عاماً ليُفْرجَ عنه مع عشرات آخرين. انسحب، بعد ذلك، من العمل السياسي إلى الصحافة والإعلام، لكنه ظل على علاقة طيبةٍ بالجميع، ولم يكن يبخل برأيه على أحدٍ يطلب رأيه. طيبوبتُه وتواضُعه، وبساطتُه، خصالٌ فيه آسرة، جِبِلّيّة غيرُ مفتَعلة. أحد أصدقائه قال له يوماً، على سبيل المزاح، إنه الوليّ الصالح لليسار، وعندما يموت، سيكون على اليسار أن يقيم له ضريحاً ومزاراً. رَحَلَ في صيفِ عامٍ قريب بعد أن نازع المرض الخبيث طويلاً في المصحّة. لكنه دُفِن في قبر عاديّ في مقبرة الشهداء بالرباط، وإن أقام له كثيرٌ من رفاقه ضريحاً في النفس ومزاراً في الذاكرة. تعرَّفَ إليه بالصدفة صباح أحد الآحاد في مقهىً يقع في ممرّ متفرع عن شارع محمد الخامس، قرب متجر «أودربي» ويحمل اسم لوحةٍ تشكيلية ذائعة الصيت. كان برفقة أحد رفاقه مارَّيْن من الممر المذكور باتجاه مبنى وزارة العدل، حيث يرصف رفيقه سيارته مقابل ساحتها، حين انتبه إلى يوسف جالسا في المقهى مستغرقا في قراءة صحيفة. توقف رفيقه والتفت إليه مشيراً إلى يوسف ومتسائلا:

ـ هل تعرف هذا الرجل؟

- لا .

- اسمع ، هذا ضمير جيلنا وضمير اليسار .

- من يكون؟ أقصد : ما اسمه؟

- هذا يوسف الحلواني . ربما سمعت به .

- ومن لا يعرف اسمه .

- سأعرفك به .

قدّمه إليه بوصفه أحد أبنائه النجباء في اليسار . ردّ يوسف ضاحكاً بأنه لم ينجب أبناء سياسيين من اليسار ، وإنما أنجب أبناء بيولوجيين لم يبلغوا سنّ الشباب بعد . استمع إليهما يتحدثان عن أيام الجامعة واليسار والسجن ، وعن رواية يوسف الأخيرة بالفرنسية عن تجربة السجن . تحمَّس لقراءة الرواية وسأله عن عنوانها ، فأفاده يوسف بالعنوان ، ونبَّهه بأنه سبق أن نشر رواية أصغر حجماً بالعربية حين كان مازال معتقلاً . جذبَتْه شخصيةُ يوسف وتلقائيَّتُه في الحديث ، وصراحتُه غيرُ المألوفة عند أمثاله من الرعيل الأوّل لليسار . وحين استأذناه في الذهاب ، لأنهما مرتبطان باجتماع لرابطة حقوق الإنسان ، تردَّد في طلب رقم هاتفه ، لكنه استجمع شتات شجاعته المبعثَر فسأله أين يمكن أن يلتقيه ثانية ، فتفاجأ بيوسف يجيبه من دون تكلّف : هنا ، في هذا المكان ، وفي هذا الزمان من صباح كلّ أحد . ومن حينها ، أدمَن على عادة اللقاء به مرَّة كلّ أسبوعين أو ثلاثة ، وعلى الإصْغاء إليه بانتباهٍ شديد لا يبدّده إلاّ التحاق شخص عابرٍ بهما .

كان من الممكن أن يظل مرابطاً في قمم الجبال ، مثلما يقول ، لولا يوسف الذي أنزله ـ من دون تقصّد ـ إلى الأرض الوطيئة ، وعلَّمه كيف لا يفكِّر وحيداً ، قائلاً له ـ بلهجته المراكشية الفاقعة في لسانه ـ «اللّي كَيَحْسَبْ بوحدو كَيْشيط لِيه» . لم يعد يحسب وحده منذ ذلك الحين ، صار مألوفاً عنده أن يسأل نفسه : ماذا يريد الآخرون ، وكيف يفكرون ، وما الذي

يستطيعونه، وماذا يمثلون، وأين ينبغي التقاطعُ معهم وأين ينبغي الافتراق؟ بدأ يشعر بالتدريج أنه يفكّر سياسياً، ويبرّر شعوره بالسؤال: «ماذا تكون السياسة إنْ لم تكن هذا الذي أفكر به؟». نعم، هي كذلك، يقول في نفسه، هي فنّ الممكن. هي، كما يقول الأطباء والصيادلة، كالدواء من جرثومة الداء. والداء في السياسة هو الواقع الذي تناضل ضدّه، ولكن الذي عليها، في الوقت عينه، أن تأخذ جرثومتها منه، أن تتشبع به حتى تقتدر عليه.

يعترف أنه كاد أن يفقد البوصلة في الأسابيع الثلاثة الأولى من قيام الحركة. بلغتْ به الحماسةُ مبلغاً يفهم اليوم أسبابه ودواعيه. لم يكن سهلاً عليه أن يقف بارداً أمام تيار الانتفاضات الذي غمر أرض تونس ومصر، وأصاب اليمن وليبيا والبحرين، في أوّل الحلم به والحَمْل به في المغرب، قبل أن يمتد موجُه إلى سورية. شأن الشباب جميعاً كان، بل شأن الناس عامّةً، أُخِذَ بما رأى وبسرعة تَهَاوِي حصون أباطرة الفساد والتسلط. خُيِّل إليه أن الزمن زمنهُ، وأن موعد جيله مع التاريخ أزف. وفي الخضم، لم ينتبه إلى أشياء كثيرة، ومنها أن النضال من أجل القضية عينها لم يبدأ مع بداية ميلاد الحركة، وأن الذين دخلوا السجون في الخمسين عاماً الأخيرة هم بعدد من يتظاهرون اليوم في الشوارع. وحين أُعْلِن عن الإصلاحات الدستورية، واستُقْبل الإعلان بالارتياح عند الأحزاب السياسية، أدرك أنه لم يعد يجوز له أن يحسب وحده، وأن رفاقه سيخطئون كثيراً إن قابلوا التطورات الجديدة بالتجاهل واللامبالاة.

- ٨ -

ألحّ أمجد على أن نلتقي به، توفيق ونبيلة وأنا، في البيت الذي يستأجره، مع ثلاثة من زملائه، في حي اليوسفية، على غير عادتنا في لقاءات أخرى سابقة جمعتنا في مقاهي وسط المدينة، أو في مقاهي أكدال. نبيلة وحدها تعرف البيت، وهي مَن أخذنا إليه مساءً في سيارة أجرة. سأله توفيق، وهو يستقبلنا على مدخل الشقة، عن سرّ إصراره على اللقاء هنا. أجاب بأن ذلك أفضل لحديث جديّ ومستفيض في موضوع حسّاس لا يجوز تناوُلُهُ في مكان عموميّ، حيث الآذان مستنفَرة لالْتقاط أدقّ المعلومات. وحين سألتُهُ عن سبب عدم دعوته مريم للمشاركة في الاجتماع، قال إن الأمر لا يتعلق باجتماعٍ، أوّلاً، وإنما بتداوُلٍ بين نشطاءٍ من الحركة، ثم لأن العبرة، ثانياً، ليست بعدد مَن يشارك في اللقاء، بل ما يسفر عنه من تَفَاهم بين المشاركين، مضيفاً بأنه يعتزّ بمريم ورصانتها وسخائها في العمل النضالي، واعداً بأنها ستكون أوّل مَن يُدْعى في لقاءٍ قادم إنِ اقتَضتْه الضرورة، وطالباً من نبيلة أن تبلّغها بتفاصيلِ ما سيدور في هذا الاجتماع.

لم يكن أحدٌ منّا يعرف ما هو الموضوع الذي دعانا أمجد إلى اللقاء للتداول فيه سوى أنه يتعلق بمستقبل الحركة، وهو عنوانٌ عامّ لا يؤدّي

بسامعه إلى معنى مخصوص. ساد الصمت بيننا قليلاً قبل أن يقطعه أمجد قائلاً:

- لاشك في أنكم تتساءلون عن سبب طلبي منكم اللقاء. أستطيع أن أقول باطمئنان إن مثل هذه اللقاءات الجانبية، وغير الرسمية، مفيد جدّاً في تبديد ما قد يلتبس أمرُه على بعضنا في الاجتماعات الرسمية، وفي الإفصاح عمَّا قد لا تسمح ظروف المناقشات بيننا في الإفصاح عنه في تلك الاجتماعات. ولكي أكون صريحاً معكم أكثر، عليَّ أن أشرح لماذا طلبتُ منكم، أنتم بالذات، المشاركة في هذا اللقاء. فعلتُ ذلك لعلمي، أوّلاً، بإخلاصكم للحركة وإيمانكم بمبادئها. وهُمَا إخلاص وإيمان لا أنفيه عن غيركم من المناضلين. وفعلتُ ذلك، ثانياً، لأني أعرف أنكم - وربما باستثناء نبيلة - لا تملكون فكرة كافية عن نوع الصلة التي ربطتني في السنوات الماضية بإيمان في ساحة النضال الطلابي والحقوقي، ولا التي جمعتني بوليد وياسر وسليمة وجمال وآخرين من الرفاق في العمل الجمعوي، و- بالتالي - فأنتم لا تعلمون عن خلفية الخلاف بيننا في اجتماعات الحركة. على أنني أجد نفسي مدفوعاً، بمناسبة هذا الحديث، إلى التأكيد على أن هدفي ليس كسب تأييدكم لموقفي، فأنا ضدّ الحَلقية، وضدّ هذا الأسلوب في العمل العام، الذي خرّب وحدة مؤسساتنا النضالية، وإنما هدفي توضيح موقفي أكثر، وسماع آرائكم فيه. ثم إنني أتمنى أن يكون في وسعكم حضور لقاءٍ مثل هذا مع إيمان ووليد وآخرين حتى تكونوا في الوضع الأفضل لتبيُّن مواقف الجميع.

بادرتُ قائلاً بعد أن أنهى الكلام:

- أنا شخصياً سأكون سعيداً بأن أعرف خلفيةَ موقفك النقديّ، الذي عبَّرت عنه في اجتماعنا الأخير الذي أعقب المظاهرة، أعني أسبابه التي لم تُفصح عنها.

قبل أن يجيبني سألته نبيلة:

ـ ما الذي يدعوك إلى الإحجام عن قول ما ستقوله لنا الآن في اجتماعاتنا الرسمية؟

ـ أنتِ بالذات تعرفين حساسية الموضوع بالنسبة إلى بعض الرفاق ممّن يُصِرّون على أخذ الحركة إلى خيارات لا نرضى عنها جميعاً.

ـ لكنك، تقول نبيلة، صاحب دعوة صريحة إلى الشفافية والصراحة في عملنا.

ـ هذا صحيح، لكني أخشى في الوقتِ نفسِه ألاّ أجدَ البيئة المناسبة لاستقبال هذه الصراحة، فندفع ثمنها من وحدة الحركة.

ـ هذا كلامٌ مسؤولٌ؛ قلت.

اندفع أمجد يشرح موقفه بتفصيل وهدوء شدّني إليه. قال إنه لا يشعر بالارتياح كثيراً تجاه مواقف بعض النشطاء، ممن يتصرفون بقدْرٍ من الادّعاء، وكأن النضال في البلد بدأ مع الحركة، فيستسهلون الطعن في طوية الأحزاب الوطنية، وكيْل الاتهامات لها، والتشكيك في نواياها تجاه مطالب التغيير الديمقراطي. وهذا، في نظره، سلوكٌ خاطئ، ولن يكون مآلُه سوى عزل الحركة عن محيطها الطبيعي، وحاضنتها السياسية الأوسع، وتقديم خدمة مجّانية للسلطة التي وحدها ستستفيد من دقّ الإسفين بين الحركة وهذا المحيط الديمقراطي الواسع. وقال إن هذه المواقف تُسَاق تحت عنوان حماية استقلالية الحركة من التدخلات الحزبية، في قرارها وعملها، بينما هو يشعر أن هذه الاستقلالية تتعرض للتبديد والخرق، وأن علاقات بعض التيارات السياسية بالحركة تتجاوز، بالتدريج، نطاق العمل المشتَرك إلى المشاركة في صنع قرارات الحركة وتوجهاتها. وقال إن انطلاق مسلسل الاستشارات حول الدستور خلقَ واقعاً سياسياً جديداً في البلاد لم يعد ممكناً للحركة معه أن تتجاهله، فتتمسَّك برفضٍ لا يتبيَّن له أُفُق أمام

مشاركة معظم القوى السياسية في تلك الاستشارات. وقال إن العلاقات بين نشطاء الحركة تفتقر إلى تقاليد الشفافية والحوار الصريح، حيث يتفرد البعض باتخاذ القرار أو يفتح، من وراء ظهور الآخرين، حواراً مع تيارات سياسية دون أخرى، فتَنْشأ، في الخِضَمّ، أجواء الحلقيّة والاستقطابات الداخلية التي ستُودي بالحركة إنِ استفحل أمرُها ولم تتوقف. ولذلك دعا في الاجتماع السابق - يقول - إلى وقفة نقدية لمراجعة التجربة، وتصحيح العثرات والأخطاء قصد تصويب المسار. ولم ينْس أن يشدّد، في خاتمة حديثه الطويل، على أن وحدة الحركة واستمرارية حَرَاكها الديمقراطي هدفٌ يسمو على أيّ اعتبار، وهو لذلك - كما قال - آثر في الاجتماع السابق أن يخاطب الجميع بلغةٍ عامّة، من دون الدخول في التفاصيل، لئلاّ يستثير حساسيات، أو يثير بلبلة في الصفوف. غير أنه مستعدّ، الآن، أن يتحدث بوضوح أكبر إن شاء الحاضرون ذلك مثلما قال.

ساد صمتٌ، بعد حديثه، تبيّنْتُ فيه علامات الاهتمام على صفحة وجه توفيق. لم أكن قد التفت صوب نبيلة لتقدير آثار كلام أمجد فيها، حتى طفِقت تقول:

- لن أختلف معك، شخصياً، في ما قلت في حدوده العامّة والمجرّدة، فأنا مثلك حريصة على وحدة الحركة وتجديد أساليب نشاطها، وعلى استقلالية قرارها ومبادراتها، وعلى حاجتنا إلى وضع تجربتنا في ميزان التقييم. وأنا مثلك أرفض الحلقية والتمحور في جماعات صغيرة، وأتطلع إلى الشفافية في علاقاتنا الداخلية. ولكن دعني أصارِحُك بأن هذه المبادئ عامّة وقد لا يختلف في شأنها اثنان، وربما لن نجد في رفاقنا من يعارضها. فَعَلاَمَ نختلف إذن؟ ولماذا نتجادل في أمور هي في ما يُخيَّل إليّ محطّ إجماع؟

- آه، قُلتِها بنفسك يا نبيلة - ردّ أمجد -: «يُخَيَّل إليّ». والحقّ أن الأمر كذلك، حُسْنُ ظنٍّ منك بأن الجميع يُقَاسِمُكِ الإيمان بهذه المبادئ.

ـ وهل تشكّ في ذلك؟ تساءلتُ.

ـ طبعاً أشك، بل إنّي على أرسخ يقين بأنّ قلّةً قليلة تشاطرنا الاعتقاد بهذه المبادئ. هل نسيتِ كيف جُوبِه موقفي في الاجتماع السابق بالاعتراض والاستغراب لمجرّد أني تجرأت على الطعن في صدْقية الرواية عن النجاح «الباهر» للتظاهرة، ودعوتُ إلى مراجعة نقدية لتجربتنا؟

ـ ربما السياق الذي ورد فيه حديثُك هو الذي أثار الحساسية منه. لو كان الاجتماع في يوم آخر، لاختلف الأمر.

ـ لا أعتقد أن هناك ظرفاً مناسباً لحديثي ذاك أفضل من اجتماعٍ يُعْقد لتقييم ما جرى في اليوم نفسِه.

ـ لعلّ اجتماعنا القادم، بعد غدٍ، يوفّر مناسبةً ثانية لمناقشة صريحة في هذه المسائل، قال توفيق.

ـ أتمنى ذلك مثلك، وإن كنتُ شبهَ يائسٍ من أن يحصل فعلاً؛ ردّ أمجد.

تريثتُ قليلاً، فأرجأتُ الحديث إلى أن يتخذ النقاش وجهةً أفصح، فما سمعتُه من أمجد من صميم قناعاتي، لكنه يقول عموميات مثلما لاحظتْ نبيلة بحق. وهي تفيدُنا من دون شك، ولكن كقواعد عمل فحسب، أما معالجة مشكلاتنا الداخلية فتحتاج إلى كلام صريح لاحظتُ أنّ أمجد أحجمَ عنه في ما قال. أنقذتني نبيلة من ضغط ملاحظتي حين خاطبت أمجد:

ـ أفترض أنه لا مانع لديك من أن تجيبني عن أسئلة دقيقة أستفهمك بها عن بعض ما قلت.

ـ طبعاً، تفضّلي.

ـ وبصراحة؟

ـ بكلّ الصراحة.

ـ لم أفهم، على وجه الدقة والتعيين، ما الذي تقصده بقولك إن استقلالية الحركة أصبحت عرضةً للتبديد والخرق. ممّن نخشى عليها؟

ـ أخشى عليها من المكانة الامتيازية التي باتت تتمتع بها قوىً سياسية بعينها في الحركة، أو في العلاقة بها، وما أصبحت توفّره تلك المكانة من «حقوق» سياسية في توجيه قرار الحركة باسم التنسيق والعمل المشترك. . . إلخ.

ـ مثل مَن؟

ـ تيار «الطريق القويم» و«حزب التحالف» و«حزب المقدمة» مثلاً.

ـ ولكن هذه القوى تشارك الحركة فعلاً نشاطاتها، وتتقاطع معها في مواقفها، ولا يمكننا أن نمنعها من مشاركتنا عمَلَنا النضالي لمجرّد أن لدينا موقفاً سلبياً من العمل الحزبي.

ـ الفارق كبير بين التحالف والارتهان.

ـ أنا شخصياً لم أَرَ بعدُ أيَّ مظهرٍ للارتهان في ما يجري بيننا وبينها من عمل.

ـ إسألي مَن ينسّق معها من رفاقنا، وانتبهي إلى سلوك نشطائها في مسيراتنا، ونوعِ الشعارات التي يفاجئوننا بها من دون أن يكون لنا رأيٌ فيها. ثم راقبي جيّداً تصريحات كثير من مسؤوليها، وما تنشره صحفها من بيانات وافتتاحيات. . .

تدخَّل توفيق متسائلا:

ـ ولكن هذه التيارات، التي ذكرت، ليس وحدها من يشاركنا فعالياتنا، هناك أيضاً «الإِقْسَاط والبِرّ» التي يقوم نشطاؤها بدور فعّال. ومع أنها ليست من اليسار، فلا أحد في الحركة يتحسَّس منها.

أجابه أمجد:

ـ بعض رفاقنا يريدها للاستفادة من قاعدتها الجماهيرية العريضة. وبعضٌ آخر يتعامل معها نكايةً في «حزب المساواة والإصلاح»، الذي تناهضُنا قيادتُه، وتحاصرُ مواقف من يؤيدنا فيه. وبعضٌ ثالث يريدها ليرفع

التهمة عن الحركة بأنها ضدّ فريق في المجتمع السياسي لأسباب ثقافية. لكن هؤلاء جميعاً يختلفون معها في المنطلقات الفكرية، ولذلك ليس وارداً أن تتمتع في الحركة بأيّ امتياز يهدّد استقلالية قرارها وخيارها. وقد لا تستمر العلاقة بها طويلاً، لأنها قائمة، منذ البداية، على غشٍّ متبادل. المشكلة مع التنظيمات الأخرى التي ذكرت لأنها تتقاطع فكرياً مع الحركة.

- لا أفهم، تقول نبيلة، كيف تُحذِّر من مغبّة عزل الحركة عن محيطها السياسي، وتُبْدي الخشيةَ، في الوقت نفسِه، من العلاقة بهذا المحيط بدعوى حماية استقلالية الحركة وعدم الارتهان له.

- وهل تعتبرين هذه التنظيمات الصغيرة هي المحيط السياسي الطبيعي للحركة؟ تساءل أمجد.

- ومَن عساه يكون المحيط الطبيعي الذي تقصد؟ ردّت نبيلة متسائلة.

- الأحزاب الديمقراطية جميعُها ذلك المحيط، وخاصة «الحزب التقدمي» و«حزب التحرير»...

- لكن الحزبين في الحكومة، قال توفيق.

- وما الذي يمنع من الصلة بهما؟ تساءل أمجد.

- نحن حركة شعبية، ويُفْتَرض أننا نتعامل مع قوى ليست في مواقع السلطة.

- وهل الحكومة تحكم البلاد؟ ثم أليس وراء هؤلاء رأي عام ديمقراطي؟ أليسوا مثلنا يطالبون بالإصلاحات والملكية البرلمانية؟

- «الحزب التقدمي» نعم، أمّا «حزب التحرير» فلا، حتى أن كثيرين يخشون من أنّ يتحالف غداً مع «حزب المساواة والإصلاح».

- قيل هذا أيضاً، بل قبل ثلاثة أشهر، عن «الحزب التقدمي» وعن احتمالات تحالفه مع «حزب الماضي والحاضر» حين ارتفعت أسهمه.

وقد يقال غداً عن علاقة حركتنا بجماعة «الإقساط والبِرّ». دعْك من محاسبة النيات واقرأ في المواقف المعلنة.

تدخلت نبيلة لتقول:

- لا ينبغي أن نتجاهل أن القوى الشبابية للأحزاب التي ذكرت تشاركُنا تظاهراتنا بمعزل عن مواقف قيادات أحزابها، وهذا يوفّر لنا ما تسميه بالمحيط السياسيّ الواسع لحركتنا.

- أدرك قيمة ذلك، قال أمجد، لكني أرغب في أن أرى علاقةً سياسية أكبر من مجرّد مبادرات هيئات حزبية فرعية.

- إذن، فأنت بهذا تعطي للاختراق السياسي الخارجي فرصةً أوسع مما هو عليه اليوم.

- أنا مؤمن بمعادلة سياسية تقول: كلّما وسَّعت دائرة العلاقات مع القوى الديمقراطية وفّرتَ للحركة حزام أمانٍ أمتن، وصُنْتَ استقلالية قرارها أكثر.

- ستظل هذه قضيةً خلافيةً داخل الحركة؛ قالت نبيلة.

- لذلك دعوت إلى تفكيرٍ جماعيّ ووقفةٍ نقدية، وخاصة اليوم الذي بدأتْ فيه الاستشارات حول الدستور.

- وما علاقتنا نحن بهذه الاستشارات؟ تساءل توفيق.

- كلّ العلاقة طبعاً.

وجدتُ السؤال ظرفاً مناسباً للحديث فتساءلت:

- نحن لسنا حزباً سياسياً معنياً بتقديم رؤيته حول التعديلات في الدستور، فما الذي يُقْحِمنا في المسألة؟

- بل يعنينا أمرُها كثيراً حتى لا أقول أكثر من غيرنا.

ـ ماذا تقصد يا أمجد؟ ؛ تساءلت نبيلة.

ـ أقصد أننا، ابتداءً، أوّل مَن حَرَّك مطالب الإصلاح في البلاد، بعد ركودٍ سياسيّ مديد، وأنّنا، ثانياً، أوّل من يجب عليهم أن يكون لهم رأي في أية تعديلات دستورية وقياس مدى استجابتها أو عدم استجابتها لمطالبنا.

ـ أنت بهذا تدعو الحركة، إذن، إلى المشاركة في الاستشارات.

ـ ليس تماماً، لكني أدعو إلى مناقشة هذا الاحتمال الذي قد يفرض نفسه علينا.

ردّت نبيلة على الفور:

ـ سبق لحسن أن قال، بحقّ، إن الحركة ليست حزباً سياسياً كي تشغل نفسَها بهذا الموضوع. وأنا أضيف أن طرح المسألة على المناقشة في اجتماعات الحركة لن ينتُجَ منه سوى الخلاف والفرقة.

ـ ولماذا تقطعين بأن الاختلاف في الرأي سيفضي بنا إلى الخلاف؟ قطعاً نحن لسنا موحَّدين في الرأي تجاه المسائل كافة، ولسنا نسعى في عملنا إلى مثل هذه الوحدة المستحيلة في الرأي، وأنتِ نفسك قلتِ إننا لسنا حزباً، بل حتى الأحزاب في عصرنا لم تعد تصنع في صفوفها رأياً واحداً. لكن الاختلاف في الرأي مشروع، وهو الذي يبرِّر الحوار والنقاش، ويُنْضِجُ شروط التفاهُم بين الناس.

تمنى توفيق إرجاء الحديث في هذا الموضوع وعدم طرحه للمناقشة في اجتماع التنسيقية المحلية للحركة في الاجتماع القادم درءاً للحساسيات، ووافقته نبيلة على ذلك منبهة إلى أنها لا تعترض على التداول في المسائل الأخرى بما فيها استقلالية قرار الحركة وعلاقتها بالقوى السياسية، لأن التفاهم حولها ممكن جدّاً. أمّا أمجد، فأصرَّ على أن علينا مناقشة كلّ شيء، بما فيه هذه المسألة، محذّراً من أن استنكاف الحركة عن التداول في

مسألة الاستشارات الدستورية لا يعني سوى أنها تسلّم بحقّ غيرنا في تقرير مصير المستقبل السياسي للبلاد بمعزل عنّا، وأنن سنصحو غداً على واقع سياسيّ جديد لم يكن لنا رأيٌ في صناعته، وعندها لن ينفعنا الاعتراض.

حين كنّا نهُمّ بمغادرة البيت، انتحى بي أمجد جانباً وطلب منّي أن أثير الموضوع في الاجتماع القادم. وعندما سألتُه عن سبب إحجامه هو عن طرحه، أجابني بأنه يفضل أن لا يبادر هو بإثارته حتى لا تتولّد حساسيات من ذلك، مضيفاً أنّ أحداً من الرفاق لن يشك في الأمر حين يصدر مني. لم أَعِدْهُ بشيء، ولم أزِدْ عن أن قلت له إنني سأفكّر في الموضوع. حين خرجنا، كنت أتوقع أن تعلّق نبيلة على حديثنا في البيت بطريقة ما تعبّر فيها عن عدم الارتياح لكلام أمجد، خاصة وأنها أكثر من جادله منّا في مواقفه، وتحفَّظ على بعضها. غير أني فوجئتُ بها تقول إنها تتمنى لو كان أطر الحركة جميعاً مثل أمجد في جمْعه بين التمسّك بالمبادئ ورجاحة العقل والحسّ السياسي الحاد.

- ٩ -

لم يحمل إليه السي الهاشمي أخباراً طيبة عندما أخبره، قبل أيام، بما دار بينه وحسن حين التقاه. أشْعَرَهُ كلامُهُ باليأس من رؤية ابنه ثانيةً في البيت، ووجد نفسَه لأيّامٍ في حيرة من أمره لا يعرف كيف يتصرف، وهل يعُضّ على جرحه وكرامته فيذهب إليه بنفسه بعد فشل وساطة زميله القديم. فجأةً نبعت في رأسه فكرة الذهاب إليه، ولم يطردها مثلما اعتاد أن يفعل في مثل هذه الأحوال التي تضطرّهُ إلى تجشم عناء القيام بأمر لا يرغب فيه. ربّما شجعه على أن يُقِرَّها في رأسه أن السّي الهاشمي أكّد له أنه أعْلَمَ حسن بأن مبادرته في الحديث إليه شخصية، وأن والده لا يَعْلَم عنها شيئاً، مثلما طلب منه هو نفسه أن يقول ذلك لابنه، كي لا يترك الانطباع لديه بأن والده تنازل عن شروطه، أو سلَّم بالأمر الواقع. وقد يكون صديقه أقنعه بأن الطريقة الوحيدة لطمأنةِ الابن هي أن يذهب أبوه إليه ويدعوه إلى العودة إلى البيت، من دون أن يفرض عليه شروطاً، أو يدخل معه في التفاصيل، فيترك للزمن أن يعالج مشكلة ابتلائه بالسياسة. أمرٌ واحدٌ فقط يعرفه هو أن الفكرة استقرت في ذهنه، وأنضجها شوقُه لابنٍ لم يَرَهُ منذ شهر، وضغطُ أمّه اليوميّ عليه لعودة حفيدها إلى البيت من «الحيّ الجامعيّ»، كما أفْهَمَهَا

حفيدُها يوماً حينما سألتْهُ عن أسباب غيابه ودَلَّ أباهُ، بذلك، على الجواب السهل عن أسئلتها المتكررة له.

يتفاجأ أمس بابنه في غرفة جدته. يعرف أنه يزورها من حين لآخر في أوقات ينتقيها، كالأوقات التي يكون فيها هو في العمل، متفادياً أيام السبوت والآحاد، حتى لا يلتقيان. مبعث المفاجأة هذه المرّة أنه وجدهُ في البيت في آخر المساء؛ حيث يعود هو عادةً من عمله. وحين دخل إلى غرفة والدته ووجده، نهض الابن لاستقباله وقَبَّل كتفه على جاري عادته، وحادثه قليلاً، وكان بشوشاً وتلقائياً على غير ما كان عليه منذ دبّ الخلاف بينهما حول السياسة. لم يطل مقامه كثيراً بعد وصوله، إذ سرعان ما نهض وودّعهما منصرفاً. وقبل أن يفتح باب البيت مغادراً، سأله أن يبقى معهما، ففوجئ به يَعِدُهُ بالمبيت في البيت في اليوم التالي، لأنه مضطر لأن يقضي الليلةَ مع زملائه تحضيراً لامتحان جزئي، ولأنه لا يحمل معه كتبه وأغراضه التي يحتاج. لأوّل مرةٍ يبكي متأثراً، غالب دموعه حين كان الابن ما يزال واقفاً صوب باب البيت، وما إنْ غادر حتى انسدلت دموع الأبوّة على وجه دثَّرَهُ الوجوم.

كان نومه أمس أفضل وأطْرى منه في الأيام الماضية، على الرغم من أنه أكل بنَهَم استجاب لشهية انفتحت على حين غِرّة. بَدَا سعيداً وهو يستعيد - مستلقِياً - وقائع تلك الدقائق المعدودة التي رأى فيها حسن، ودار بينهما ما دار فيها من حديث، وصولاً إلى وعْدٍ فاجأهُ. لم يَعُد يدري إنْ كان ما رآهُ من فعل السّي الهاشمي، وقد شاء أن يخفيه عنه خشية أن لا تكون استجابة الابن على الوجه الأكمل، أم أن نسمة رحمةٍ مفاجئة هبّت على مشاعر حسن، وأودعتْ فيها بعضاً من الرّقة. لا يريد أن يفسّر، لا قيمة لذلك، المهمّ أنه نَعِمَ بشعورٍ بالراحة لم ينعم به منذ شهرٍ ونصف، وأعفاهُ فعْل حسن من مشقة الذهاب إليه إلى الجامعة، وإقناعه بعودة لم يكن واثقاً من أنها ستحصل، ولا أنّ ابنه سيستجيب إلى دعوة والده إليها.

غيمةٌ اكْتَأَبَتْ لها النفسُ وانقشعت، غُمَّةٌ أطبقتْ على الصدر وارتفعت، كابوس هَدَّ المَنامات في ليالٍ حالكات وانزاح. كأنّ شيئاً لم يكن في الأيام الماضيات، كأن الرأس التي دوَّخَتْها المَخافةُ المؤرقة لم يَغْشَهَا همٌّ وكرب، كأن قوافل الحزن التي قطعت قِفَار القلب لم تَمُرّ بمكانٍ في النفس، كأنّ يأساً حارّاً كالجمرة لم يحرق أملاً فاتراً في الدواخل. كل شيء ينتهي مثل كابوس حرَّكته في الجفنيْن حوامضُ الأمعاء. فلينْسَ، إذن، أنه شُدَّ إلى آخِرِهِ كالوتَر وأنَّ في صمت. ولْيَنْسَ أنَّ رأسه هجَست في الأيام الماضية بما لم تهجس به منذ تكوّرت فوق كتفيْه، وأن رغبته في الحياة تناقصت إلى حدود نضوب مائها في قعر النفس. لِيَنْسَ كلّ ما كان، وليتذكر شيئاً واحداً أحداً: أن حسن سيعود إلى البيت. كم كان السي الهاشمي على حقّ حين قال له إنّ عودة الابن إلى البيت هي المبتغى الذي عليه أن يسعى إليه، وأن يَدَعَ أمْرَ عودته عن السياسة إلى أجلٍ آخر عسى الزمن يتكفل به ويستعجله. ها هو الآن يدرك حكمة صديقه الوفيّ، هاهو يشعر بأن دبيب نتائجها يسري في نفسه من دون أن يعرف، على وجه اليقين، إن كان حسن سيترك السياسة ويعودُ عنها ويَعُوذ منها.

لم يكن يدرك أنه يحمل في قلبه كل هذه الكمية الخرافية من الحبّ لابنه قبل أن يُفَجِّرها فيه رؤيتُه ابنَه في البيت في ذلك الوقت، بالذات، الذي يكون هو فيه في البيت. أين كان يخفي تلك المشاعر من قبل أن يختفي حسن عن ناظريه، بل أين كان يخفيها حين نصحه السّي الهاشمي بما نصحه به ولم يأخذ بنصيحته راكباً رأسه، وطالباً كلّ شيءٍ أو لا شيء؟ وكيف أمكنه أن يتحمل كل هذه الفترة من الغياب من دون أن تتفجر في داخله هذه الينابيع العاطفية، التي تدفّق تيارُها عليه منذ رآه في البيت، ومنذ ودّعه على الباب؟ كأن مشاعر الأبوّة تُولَد الآن في داخله. يخيّل إليه أنّ الأمر كذلك، فهو لا يتذكر أنها انتابتْهُ في ما مضى من الزمن. أو لعلّها المرة الأولى التي ستنبعث فيها بهذه الحرارة التي سرتْ فيه.

أغدق الشكر والمديح على السّي الهاشمي حين التقاهُ في مكتبه. اعترف له بأنه رجُلٌ حكيمٌ وجديرٌ بالاستنصاح، وأن مسعاه مع ابنه أثمر. شاركه صديقه مشاعر الارتياح، وطلب منه أن لا يُفْسِد ما أصلح اللهُ بينه وبين ابنه بخطإٍ ما في الحديث؛ كسؤاله عن نشاطه السياسي. وعده بأنه سيفعل ما وَسِعَهُ من جهد ليشعر حسن بالطمأنينة في بيته وبين أهله. قبل أن يودّعا بعضهما في نهاية المساء، قال له السي الهاشمي: «أرجو أن لا تصيبك الخيبة إن كانت عودة حسن إلى البيت مؤقتة». انقبض صدره من أثر العبارة.

- ١٠ -

لا أدري إن أحسنتُ صنعاً بالمبيت في بيت أهلي ليلة البارحة أم تسرَّعتُ بذلك، فربّما أوحتْ مبادرتي إلى والدي بأنني حسمتُ أمري وقرّرت العودة نهائياً، أو هكذا على الأقل بَدَا ليَ الأمرُ حين ودّعتُه - وجدّتي - صباحاً قائلاً له إنني قد أقضي معهما ليلةً أخرى بعد أسبوع. لم يَقُل شيئاً، لكني تبينتُ في ملامحه بعضَ الخيبة والانكسار، وبَدَا لي صوتُه محزوناً وهو يقول لي «في أمان الله يا ولدي، البيتُ بيتك». انتابني حينها ندمٌ لم أتميّز مصدرهُ!

قابل وصولي إلى البيت ليلة أمس بودٍّ بالغ أخجلني، عانقني بقوة وكأنه لم يرني أمس ذلك اليوم، وتبسّط في الحديث إليّ وهو يسألني عن الدراسة، ولم يُشِرْ ولو بالتلميح إلى نشاطي في الحركة، ولا حتى أبدى عتاباً رقيقاً على غيابي عن البيت. تصرَّف معي بتسامحٍ رفيع، لم أتوقعه منه، وكأن غمامة دكناء ما مرَّت بعلاقتنا في الأسابيعِ السبعة الأخيرة. ثم تركني مع جدتي قليلاً في غرفتها ليعود بهديته إليّ: جاكيت من النوع الجلدي الرفيع، وثلاثة قمصان. تأثرت بالمبادرة، وشعرت نحوه بعطف ممزوج بالألم تجاه ما سبَّبْتُه له في الفترة الماضية من مغص نفسيّ. ثرثرنا طويلاً، وضحكنا مع جدتي، فأطلقتْ جلستُنا دفئاً في البيت افتقده منذ

غبتُ عنه، بل للحقّ منذ زمنٍ طويل توقفنا فيه عن الاجتماع على صينية القهوة والشاي أو مائدة الطعام.

أقدّر كمية الحزن التي سأسبّبها لأبي بهذه العودة البتراء إلى البيت، والإحباط والخيبة اللذين جناهُمَا، وسيجنيهما، منها كما تبيَّنْتُ أمارات ذلك على صفحة وجهه وأنا أودّعه هذا الصباح. لكني اكتشفت كم كانت ضرورية لإذابة جليد أصاب علاقتنا ببعضنا، لِبَثِّ بعض الدفء فيها، لاستعادة بعضٍ ممّا انقطع من خيوط الصلة، فلقد يحين وقت نحتاج فيه معاً إلى وصال نبني عليه. وأنا الآن أشعر أنه بات واجباً عليَّ أن أمتِّنَ نسيجه بزيارات أخرى قادمة ومتقاربة في الزمن. لذلك وعدْتُه بالمجيء إلى البيت، وقضاء ليلة فيه في الأسبوع القادم.

هذا لا يكفي والدي، أعرف ذلك. لكني لا أملك ما يُطَمْئِنُني، حتى الآن، بأنه سيتخلى تماماً عن الضغط عليّ للتوقف عن نشاطي في الحركة. ولا أستطيع أن أتخيَّل ما سيكون عليه ردّ فعلي إن كرّر معي محاولاته، تلك، بعد أن تخطيتُ نهائياً عقدة الخوف منه، وقررتُ امتلاك مصيري. سبق أن قلتُ هذا للسّي الهاشمي، وقد لا يبعد أن يكون بلغَ والدي. وبما أني أكاد أن أقطع باستحالة إمكان أن يَقبل والدي التسليم بحقّي في النشاط السياسي، داخل حركة معارضة للنظام، وبأنه سيفتح معي الحديث في الموضوع ثانيةً، عاجلاً أو آجلاً، أفضّل ألف مرةٍ أن أراهُ بتقسيطٍ مريح من أن أراهُ بجملةٍ مزعجة.

✤

مرّت ثلاثة أيّام وليلتان لم أزر فيها الشقة التي يستضيفني فيها الأصدقاء الأربعة، بسبب مبيتي أمس في بيت أهلي، وأول أمس في بيت توفيق بعد لقائنا، نحن الأربعة، في شقة أمجد. شعرت هذا المساء بحنين إليها، إلى جلستنا الليلية على مائدة الطعام، ودعابات عز العرب التي لا يفسدها إلاّ

إصرارُه على قصفنا بمخزون بطنه من الغازات. اقتنيتُ ما استطعتُ اقتناءَهُ من طعام، مستفيداً من مبلغ الألف درهم، الذي نفحني والدي إياه وأنا أغادر البيتَ صباحاً: بيتزا، وفواكه، ومشروبات غازية، ومعلّبات سمك، وخضروات، ونيسكافيه، وعلب شاي وسكّر. هي المرّة الأولى التي أقوم فيها بهذا الواجب، الذي ضايقني طويلاً التخلّف الاضطراري عن أدائه، بسبب ظروفي المادية الصعبة. ومع أن زملائي في الشقة عاتبوني على حَمْل هذه الأغراض الغذائية معي، وأشعروني بأن سلوكي إشارة منّي بأنهم قصّروا معي في «حقوق» الضيافة، إلاّ أني كنتُ سعيداً بأني قدّمت شيئاً رمزياً للبيت، وخاصة حينما اكتشفتُ أن البيتزا وصلت في وقْتها، وألغَتْ سؤالاً طرحوه حول أخفّ عشاء ممكن لهم يَحْمل عنهم هذا المساء عبء الإعداد. أمّا عزّ العرب فخالفهم جميعاً حين قال لي إنّ إتياني بهذه البيتزا هو أفضل ما فَعَلْتُهُ منذ تعرّفتُ إليهم، وأنه وحده صادق في ما يقوله وهم كاذبون. ضحكتُ لتعليقه وبادلْتُهُ الشعور بأنه صادق أكثر من غيره لعلمي أنه يَمْزح كعادته.

كان كمال قد أنهى لتوّه أداة صلاة العشاء حين بادرني بالقول وأنا، مع الجماعة، أحتسي الشاي:

ـ أريد أن أحدثك في أمرٍ يهمّنا أنا ووائل.

ـ تفضّل.

ـ أرجو فقط أن يتوقف عزّ العرب عن الهزء.

ـ أجابه عزّ العرب على الفور:

ـ لا أعِدُك بذلك إنْ بَدَر من كلامك ما يستحق مني تعليقاً يناسبك، لن أُضيعَ على نفسي مناسبة التعريض بك إنْ تبرَّعتَ عليّ بها.

ـ قلتُ:

ـ لا بأس من تدخلات عزّ العرب لتطرية أجواء الحديث، خصوصاً إذا ما كان جادّاً على ما يوحي بذلك كلامك الذي تعتزم قوله.

ـ بل قُل لا بأس من وساوس الشيطان كي يمتحن المرءُ إيمانه...؛ قال كمال.

ـ قهقه عزّ العرب متسائلاً باستفزاز:

ـ هل يستطيع مؤمن هاوٍ أن يصمد أمام شيطان محترف؟

ـ ردّ كمال:

ـ الحمد لله أنك تعترف بأنني مؤمن وأنك شيطان.

ـ لا تصدّقوا أنه كذلك، إنه يصطنع سيماء السجود على جبهته بالأصباغ، لكن عينيْه تخدعانه حين يَرَاهُنّ في الشارع، اسألوني أنا الذي أعرف أسراره.

قطعتُ المزاح سائلاً كمال:

ـ فيمَ ترغب في الحديث معي فيه؟

ـ في الانضمام إلى الحركة.

قبل أن أبديَ ترحيبي، وأنا مأخوذ بالمفاجأة، سمعت عزّ العرب يقول بصوتٍ خفيض يشبه الهمس:

ـ يريد أن يؤُمّ المتظاهرين في الصلاة، يبحث عن عمل.

سمعه الآخرون فضحكوا. أمّا أنا فعلّقت قائلاً:

ـ يُسعدني كثيراً أن تكون لديك هذه الرغبة.

ـ هي أيضاً رغبة وائل.

تدخّل عزّ العرب ثانيةً قائلاً:

ـ تحدّث عن نفسك ودَعْ وائل «في التّيقّار».

ردّ وائل:

ـ لا تكن فضولياً، كمال يتحدث باسمينا نحن الاثنين.

ـ أريد أن أعرف فقط ـ قال عزّ العرب ـ إن كان كمال من أقنعك بالانضمام إلى «حركة حسن» أم هي بنت عمّك إيمان؟

ـ وماذا يفيدك أن تعرف؟ تساءل وائل.

ـ إن كانت ابنة عمّك، فأنا أستغرب كيف تأخذ برأي امرأةٍ ناقصة عقلٍ ودين في رأي كمال، وإن كان كمال مَن أقنعك، فأنت حينَها ناقص العقل والدين.

قطعتُ عليه حبل المزاح حين سألت سؤالاً اكتشفتُ، بعد التلفُّظ به، مقدار الغباء والغلظة فيه:

ـ وما الذي دعاكما إلى التفكير في الانضمام إلى الحركة؟

ردّ عليّ كمال بلؤم، ولكن بما يناسب غلظة سؤالي:

ـ دعانا إلى ذلك ما دعاك إليه.

ـ آسف، أقصد: لم أسمع منكما عن هذه الرغبة في الأيام السابقة، ويبدو أن المفاجأة أخذتني قليلاً فأسأتُ السؤال.

ـ لا عليك، قال وائل، المسألة بكل بساطة أننا تناقشنا في الموضوع ـ كمال وأنا ـ في اليومين الماضيين، بعد أن لاحظنا كيف باتت صفوف الحركة تتّسع، وسُمْعتُها تَعْظُم عند الناس، فخامرتْنا الرغبة في أن نكون جزءاً منها.

ـ هذا قرارٌ صائبٌ وخيارٌ مشرِّف؛ قلتُ.

ـ لكنك لم تُجبني عن السؤال: أَردف كمال.

ـ أيُّ سؤال؟

ـ كيف يمكننا الانضمام إلى الحركة؟

ـ تتقدَّم لِخِطْبتها من والدها: ردّ عليه عزّ العرب مازحاً.

أجبْتُهُ بتلقائية:

ـ الحركة ليست تنظيماً حزبياً يحصل فيه الراغبون في الانتماء على بطاقة العضوية، وإنما هي حركة شعبية نضالية مفتوحة لانتماء الناس جميعاً.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنه ما عليك إلاّ أن تشارك في نشاطاتها، في مظاهراتها ومسيراتها، كي تنضمَّ إليها وتصبح عضواً فيها.

ـ أفهم من هذا الكلام أنك تتهرّب من الجواب: قال كمال.

ـ لماذا تعتقد أنني أتهرَّب من الجواب عن سؤالٍ غيرِ ذي موضوع؟ الحركة هي هكذا، فعلاً، مثلما وصفْتُها، ليست حزباً يبُتُّ مسؤولوه في انتماء المترشحين لعضويته، فيزكّيه هذا أو يعترض عليه ذاك. إنها حركة جماهيرية ينتسب إليها جميع مَن آمَن بمبادئها في الحرية والديمقراطية، وناضل في صفوفها.

ـ لن أختلف معك في هذا التعريف، قال وائل، إن كان المقصودُ به علاقة عموم المواطنين بالحركة، وهؤلاء يُعَدُّون بعشرات الآلاف. ولكن، ماذا عمَّن يرغبون في أن يتحمّلوا مسؤوليات فيها، فلا يكتفون بمجرّد المشاركة في مسيراتها واعتصاماتها؟

لم أقاوم ابتسامةً، زحفت على ثغري، واستدركت قائلاً:

ـ أحْسَبُ أنك تعرف، يا وائل، أن أحداً من الناس لا يمكنه أن يتقدَّم من حركةٍ شعبية بملتمس يطلب فيه أن يصبح مسؤولاً.

ـ لماذا أصبحتَ أنت مسؤولاً فيها إذن؟ تساءل وائل.

ـ أجبتُه بهدوء:

ـ لستُ كذلك.

ـ هل تستغفلني؟ تساءل.

ـ لا، حاشاي أن أفعل ذلك، إنما أقول الحقيقة.

ـ أية حقيقة؟ أنا أعرف التفاصيل من إيمان.

ـ إذن، ما عليك إلاّ أن تسألها في الأمر.

تكلّم عزّ العرب معلقاً:

ـ هل أفهم من هذا أنكم ستحرمون الحركة من بركاتِ شيخٍ يَعْرِض عليها خدماته.

بدا بعض الضيق على كمال وهو يطلب من عزّ العرب أن يتوقف عن مشاغبته، ثم التفتَ إليّ قائلاً:

ـ لن أحرجك بمزيد من الأسئلة والكلام في الموضوع، لكني أتمنى أن تنقل رغبتي، ورغبة وائل، إلى إخوانك في الحركة، عسى أن يجيبنا أحدٌ منهم بطريقة أخرى أوضح.

أصرّ عزّ العرب على المعاكسة، فقال:

ـ هُمْ ليسوا إخواناً في الحركة، بل رفاق.

قلت لكمال:

ـ دَع وائل يعرض الأمر نفسَه على إيمان، فهي أهمّ مني في الحركة، وقد تجيب رغبتكما بما هو أوضح.

أصرَّ على معاندتي فقال بلؤم:

- إذن فأنت تعترف بتراتب المسؤوليات عندكم: هي أهمّ منك، هكذا قلتَ.

- نعم، هي أهمّ منّي، ولكن لا بمعنى تنظيمي كما تتخيل، وإنما لأنها أكثر وعياً مني وأقْدَم في العمل العام.

- طيب، حينما تجتمعون في اجتماعاتكم في الحركة، هل يكون عددكم بالآلاف كما في المظاهرات؟!

- لا أرغب في المماحكة يا أخ كمال.

- أسألك بجدّية.

- لا بأس، لا تَنْسَ أنه في الحركات الاجتماعية التي تكون من هذا النوع، تبدأ التجربة بمبادرات أفراد هم بمثابة فريق عمل متجانس، إلى حدّ ما، يطلق الفكرة ويدعو إليها، ويتداعى إلى مناقشة نتائج عمله. من الطبيعي، كما في حال مجموعتنا، أن نلتقي وأن نتداول في أمر تحركاتنا، وتجاوب الجمهور معها أو إعراضه عنها.

- إذن، فأنتم القائمون على الحركة، والناطقون باسمها.

- نحن لا ندّعي ذلك لأن أحداً من الناس لم ينتخبنا، كما يُنْتخب المسؤولون عن الأحزاب والنقابات والجمعيات، لنتحدث باسمه.

- لكنكم فعلاً تتحدثون باسم الحركة للصحف والتلفزيونات، ولديكم موقع إلكتروني تتواصلون من خلاله مع الرأي العام، من دون أن يكون أحد قد خوَّلكم ذلك.

- نفعل ذلك كمجموعة يقوم بينها تفاهُمٌ على مشتَركات جامعة، لا كجهاز يمثل الحركة، والدليل أنك تلاحظ أن الكثير من الشعارات التي يهتف بها الناس في المظاهرات لا نوافق عليه، والكثير ممن يشاركوننا المسيرات ينتمون إلى أحزاب وتنظيمات نخالفها الرأي، ولكننا نعتبرهم

جزءاً من الحركة. الحركة أكبر منّا كمجموعة يا أخي كمال، وهي للجميع.

- ولكني لا أريد أن أكون من هذا «الجميع» كواحد من «أيّها الناس».

- أنت ترغب في أن تنتمي إلى الحركة أم إلى مجموعتنا؟

- إليهما معاً.

ابتسمت للجواب، وقبل أن أتكلم، قال عزّ العرب بصوت خفيض.

- سيحُلّ الخراب بهما معاً.

أسرعتُ إلى الحديث قبل أن يبدو من كمال ردّ منفعل:

- لا تَنْسَ، يا كمال، أن العلاقة بين أفراد مجموعتنا قديمة نسبياً، وتعود إلى فترة العمل في مجال حقوق الإنسان.

- ما أعلمُهُ، منك أنت بالذات، أنك حديثُ عهدٍ بالنشاط في هذا المجال، ربما قبل شهرين أو ثلاثة فقط من انطلاق حركتكم.

أجبْتُه بطريقةٍ قصدت منها إشعاره بعدم رغبتي في الاستمرار في هذا الحوار العبثي قائلاً:

- إنْ كنتَ مصرّاً على معرفة لماذا قبلوني في مجموعتهم بهذه السرعة، فما عليك إلاّ أن تسألهم تفسير ذلك، وقد يساعدك وائل في سؤال الأخت إيمان في هذا الشأن.

- أعتذر إن كنتُ سببت لك إزعاجاً بهذا الحديث الذي يعلم الله أنني لم أكن أقصد به إلاّ معرفة أمور غامضة عندي.

- لا لم أنزعج، إنما حاولتُ أن أجيب أسئلتك بصراحة، وربما لم أُفْلح.

قال عز العرب مازحاً:

- أمّا أنا، فأعِدُك بأن لا أنضَمَّ إلى الحركة إلا بعد أن أتأكّد بأنها خالية من الدراويش.

ـ ولماذا تريد أن تقصيني، ردّ عليه كمال، بينما مكانك محفوظ في الحركة متى شئت الانضمام إليها، ألم يَقُل حسن إنها مفتوحة للجميع من أبناء الشعب؟

ـ لا تُعَيِّرهُ بالانتماء إلى الشعب: قال وائل.

ـ الشعبُ خيِّرٌ لا شِرِّير.

أضاف وائل متسائلاً بلؤم:

ـ إذن، لماذا يكون مكانُه محفوظاً وهو ليس من الشعب الخَيِّر؟

ـ لا تَخَف، ستحتاج إليه الحركة عندما تحتاج إلى البلطجية!

✤

لم يكن في وسعي أن أنسى وقائع هذا الحديث الذي دار بيننا، ليس لأنها المرة الأولى، في علاقتي بالأربعة، التي أجد فيها نفسي مدفوعاً إلى الحديث معهم في شأنٍ سياسيّ لم نتعود على الكلام فيه، ولا لأنّها المرة الأولى التي أتفاجأ فيها برغبة اثنين في الانضمام إلى الحركة، وقد توطَّن عندي أنهما، مثل زميليَّ الآخريْن، لا يعرفان من الدنيا غير الشؤون الخاصة...، بل لأنني وجدتُ نفسي ـ تحت وابل أسئلة كمال ـ في موقفٍ ضعيف، بل في حالٍ من الارتباك قد أكون وُفِّقْتُ في مداراتها، قليلا، بحيث لم يفطن لها أحد، لكني قطعاً تحسَّسْتها في داخلي، مستشعراً معها بعضَ المرارة. نبهتني أسئلة كمال، فجأةً، إلى حدود قدرتي على الدفاع عن صورةٍ للحركة أردناها لها جميعاً، نحن أعضاء المجموعة ، كحركة جماهيرية مفتوحة، وغير ممسوكٍ قرارُها من أية جهة حزبية أو غير حزبية، أو مصادَرٍ من أيّ نفر، أو مُمَرْكَز في أيدي أية فئة. لم يكن يفيدني كثيراً أن أحدّثه عن آلية التنسيق في أية حركة مدنية من هذا النوع، فهي عنده آلية سياسية مركزية، وأنا كان يعنيني أن أبدّد، في وعيه، فكرة وجود جهة

مركزية في الحركة، لأؤكد على طابعها الجماهيري المفتوح. ليس يعنيني الآن ما نَضَحت به أسئلتُه المتلاحقة من خشونة ورغبة في البحث عن تناقضات في كلامي، إنما يعنيني أن كثيراً ممّا طرحه من الأسئلة جدير بالانتباه إليه، وتوفير إجابات عنه، فقد يكون ما دار في ذهنه عينَ ما يدور في أذهان كثيرين من الناس، وقد يكون ما في أسئلته من تشكيكٍ، في نقاء الصورة التي نريدُها لحركتنا، مدعاةً إلى تفكيرٍ جماعيّ يقودنا إلى إجابات دقيقة عن استفهاماتٍ من هذا النوع.

قررتُ أن أحمل هذه الهواجس إلى رفاقي في الحركة وأعرضها عليهم، عسى أن تأخذ نقاشاتنا منحى أكثر واقعيةً واتصالاً بنبض الناس. ولِمَ لا قد تكون هذه الهواجس مناسبة للتخفيف من ضغط سجالات تندلع بيننا بتُّ أرتعب منها، وأتوجَّس خيفةً من أن تفتق ما بيننا من نسيج، أليست جديرة بانتباهنا أكثر؟ ولكن ماذا لو تلقَّفها أحدٌ بيننا، أمجد على الأرجح، وضمّها إلى أدلّته على وجاهة موقفه؟ أتمنى ألاّ يقع ذلك، أن نتعامل مع كل ما يمسّ صورة حركتنا ومصيرها بنزاهةٍ وموضوعية، بعيداً عن الأهواء، وعن التوظيف الشخصي، لأن قضيتنا لا تحتمل الالتهاء بمنازعات هامشية. أنا لا أتّهم أمجد بالتحديد، وعندي أن حظه من البراءة والاتهام كحظّ وليد، أو إيمان، أو إدريس، أو مهدي، أو سليمة، أو جمال، أو حتى مريم ونبيلة. أنا، بالأحرى، أتّهم سلوكاً يخيفني كثيراً أن تَلُوح علائِمُه في الأفق، وأن يُفْصح عنه بعضُ نقاشنا الداخلي.

خَطَر لي أن أتريث في عَرْض موضوع المناقشة التي دارت بيني وبين كمال على رفاقي، إلى أن أُنضج التفكير فيها مع أحدٍ منهم. وخطر لي أن أفاتح نبيلة، ابتداءً، فنفكر سوياً في المسألة. راقت لي الخاطرة أوّلا، ثم لم ألبث أن سألتُ نفسي: «ولِمَ نبيلة بالذات»؟!



- ١١ -

كنت ما أزال أفكّر في طريقةٍ لدعوة نبيلة إلى لقاءٍ بيننا في الغد، على انفراد، حين اتصلتْ بي، على هاتفي المحمول، تدعوني إلى لقائها في مساء اليوم نفسه، في مقهىً في شارع الأبطال، في أكدال، على مقربة من جامع بدر. أنقذتني مكالمتُها من تردُّدي في الاتصال، بل هي انتشلتني من أسئلة متزاحمة تداعتْ في الذهن. هي ليست المرّة الأولى التي أطلبها على الهاتف وأحدّثها؛ فعلتُ ذلك مرتين أو ثلاثاً، منذ تبادلنا رقمَيْ هاتفيْنا قبل شهرين، وقبل أسبوعيْن من إطلاق فكرة حركتنا: التي أذكُر أنها هي مَن أخبرنا بقيامها. لكن حديثنا على الهاتف كان، في السابق، عامّاً؛ عن اجتماعات الحركة ومسيراتها، وخالياً من مواعيد ثنائية مضروبة بيننا. ولقد فكّرتُ في أن أخيّرها، حين أتّصل بها، بين أن نتحدث في «أمرٍ شديد الأهمية» منفرديْن، أو أن ندعوَ مريم أو توفيق أو غيرهما. لكني استبعدتُ سريعاً فكرة تخييرها بين الأمريْن، ورأيتُ أن أنوب عنها في اختيار ما عنَّ لي اختيارُه. لم آنَسْ من اختياري ارتياحاً؛ فأنا خشيتُ أن تفسِّر طلبي على غير ما أرْضَى، وخشيتُ، ثانيةً، أن تسألني إن كان في الإمكان دعوة غيرنا إلى اللقاء مادام موضوعُه غيرَ شخصيّ أو خاصّ. وما

إنْ حادثتني بالهاتف، حتى رفعتْ عنّي عبءَ الهندسة والتخطيط، وإجراء حساب الاحتمالات.

لم أسألْها ما الموضوع الذي تريد أن تحدّثني فيه، فهي قطعت الطريق على احتمال السؤال حين قالت إنّها تفضّل أن نلتقي، لأن الهاتف ليس الوسيلة المناسبة للحديث في الأمر. وأنا لم أكن، من جهتي، أنتظر مثل هذا الاستدراك منها لأفهم أن الموضوع عامّ، ويتعلق، على الأرجح، بالحركة؛ فأنا أكاد أن لا أرى فيها إلاّ شخصية عامّة لا تفكّر ولا تتحدث إلاّ في الأمور الكبرى، مع أنها لم تتجاوز الثمانية عشر ربيعاً! وقلّما سمعتُها تتحدث في شأن خاصّ: في دروسها الجامعية مثلا، في علاقتها بوالديها، في هواياتها. حتى إيمان، التي يتضاءل الفارق بينها وبين أيّ رجل في اللباس، والمأكل، وتحمُّل المشاقّ البدنية، تأتي أحياناً على بعض الشخصيّ في حياتها بالحديث ولو عَرَضاً، أو تتندَّر بعلاقتها العاطفية الفاشلة في فترة التعليم الثانوي، أو تروي ما حفظته من نكات مصرية عن حسني مبارك، أو تعلّق ساخرةً على سياسيٍّ مغربي بأنه متحذلق، أو بهلوان، أو غبيّ، أو «عبْد مْشَرَّطْ الْحْنَاك». الوحيد الذي كان يشبه نبيلة في الانغماس في الشأن العام وفي العزوف عمّا هو شخصيٌّ وخاص - نظير شبهه لإيمان في صرامتها - هو أمجد. أمّا مَن تبقّى من أعضاء مجموعتنا، فعاديّون تماماً، ولا يخلطون بين ما لِله وما لقيصر، وإنْ كانت طباعُهم مختلفة بين حادٍّ وهادئ، بين مندفع ومتأنٍّ.

لم يكن لديَّ شكٌّ في أنها تدعوني إلى لقاءٍ يدور الحديث فيه على شؤون الحركة، وقد يكون مدارُهُ على ما تداولنا فيه في شقة أمجد قبل ثلاثة أيام. ومَن يُدْريني إن كان نبأ اللقاء تسرَّب إلي إيمان ووليد وآخرين فأحْفَظَهم، ورأت هي أن تَنْقُل إليّ شيئاً عن حفيظتهم، أو تسألني رأيي في كيف نحتوي المسألة. لكنّ يقيني بهذا، ولم أكن في حاجةٍ إلى استدراكٍ منها عن حساسية موضوع اللقاء لِيقِرَّ في نفسي كيقين، بقيَ ناقصاً، ومُحَاطاً

ببعضِ الإبهام الذي أدركتُ أمرَهُ للتوّ، أثناء المكالمة. لكني ما امتلكت الجرأة لكي أبدّدهُ بسؤالٍ استيضاحي عمّا إذا كان لقاؤنا في المساء سيكون ثنائياً، أم بحضور آخرين. لقد أنقذتني من ورطتي حين هاتفتني، ودعتني إلى اللقاء، محرّرةً إيّايَ من عبءٍ شديدة الوطأةِ عليَّ، لكنها لم تُكْمِل جميلَها بما يفيد أنها تُوجِّه دعوة إليَّ وحدي من دون شريك. ومع ذلك، عليَّ أن أحمد حظيّ الذي ساق لي دعوة من رفيقةٍ بِتُّ فجأةً أشعر تجاهها بشعور خاصّ، غير سياسيّ هذه المرَّة. لا أدري متى نبع هذا الشعور في داخلي، لكنّي وجدْتُهُ يطْرَق نفسي أمس ليلاً ويضغط عليَّ بشدة، وعلى حين غِرَّة، بعد أن وجدتُني ـ وأنا أخلد إلى النوم ـ أفكّر في ما دار بيني وبين كمال، وأقرّر نقل هواجسي في الموضوع إلى رفاقي في الحركة... ثم إليها هي ابتداءً.

✤

وصلتُ إلى المقهى في الموعد مستقلاً الحافلة من باب الحدّ. قطعتُ المسافة بين محطة الحافلة، الواقعة في شارع الأمم المتحدة، والمقهى بخطوات سريعة حتى أسبقها إلى الموعد، لكني فوجئتُ بها تنتظرني واقفةً على الطوار المقابل لمخبزة الأبطال. بادرتني بالقول إنها وصلت قبل عشر دقائق، بعد أن أنهت معاملة إدارية في مقاطعةٍ تقع خلف قاعة بن ياسين للرياضة، لكنها لم تعثر على طاولة فارغة في المقهى، فاضطرت للوقوف على مقربة منها لانتظاري، مقترحةً عليَّ أن نتوجَّه صوب المقاهي المقابلة لجامع بدر. عثرنا على مكانٍ داخل مقهًى مجاور للمسجد، بعد أن انتبهنا، متأخريْن، إلى أن الوقت الذي ضربنا موعداً فيه، وهو السادسة والنصف مساءً، هو موعد الذروة في مقاهي أكدال، حيث يبدأ زحف الموظفين المغادرين لأماكن عملهم عليها. أَجْبَرَنَا الاكتظاظ في الصالة الداخلية للمقهى على الجلوس إلى طاولة في السطح الخارجي، متحمِّليْن برودة طقس مساءٍ من مساءات بداية الربيع. لكنّنا أفدْنا من ذلك أننا وجدنا نفسيْنَا

وحيديْن في المكان بحيث نملك التحدث بحرّية من حسبان «مضايقات» زبناء في أماكن مجاورة.

لم نكن قد شرعنا في ارتشاف الاكسبريس، التي طلبنا فنجانيْن منها، حتى بادرتْ بالقول:

- أعتذر عن استعجالي إيّاكَ اللقاء، في هذا اليوم، لأن الموضوع لا يحتمل التأخير، ويتطلب تداولاً بيننا.

قبل أن أسألها عن نوع هذا الموضوع، الذي لا يحتمل التأخير، قلتُ بلؤمٍ حاولت أن أخفيه في ملاحظةٍ محايدة:

- توقّعتُ أن تكوني قد دعوتِ مريم أو أحداً آخر من رفاقنا إلى الموعد.

- هل يزعجك أن نلتقي نحن الاثنين.

أَجَبْتُ بانشراحٍ غطَّيتُ عليه بتفاجيءٍ مصطَنَع»:

- إطلاقاً، إنما هو مجرّد توقّعٍ اعتباطي لم أفكّر في بواعثه في نفسي. خير، ما هو هذا الأمر الذي لا يحتمِل التأخير.

- علمتُ صباح هذا اليوم أن صحيفة ستجري حواراً صحفياً مع أمجد غداً، وأنه سيعلن استعداد وفدٍ من الحركة للّقاء بلجنة التعديلات الدستورية.

- ماذا تقولين؟

هذه هي الحقيقة.

- هل تأكّدتِ من معلوماتك؟

- متأكدة.

- لا تؤاخذيني إن قلت لك: هذا موضوع خطير لا ينبغي استسهال الحديث فيه، أو التصرف بأيّ ردّ فعلٍ إزاءَه، من دون التدقيق في صحّة الخبر.

ـ هل تعرف عني أني أطلق الكلام جزافاً، أو أختلق الأخبار؟

ـ معاذ الله، ولذلك قلتُ لكِ اعذريني إن قلتُ ما قلتُه من باب تحرّي الدقة، فأنا أعرف، مثلما تعرفين، ويعرف سائر رفاقنا في الحركة، أنّ المتربّصين بنا كثر، وأنّ وسائلهم في إيذائنا متنوعة، وأوّلها الإيقاع بيننا من خلال افتعال خلافات وتناقضات، ودسّ أخبار مختلقة.

ـ ما تقوله وجيهٌ من حيث المبدإ، ولكن يؤسفني أن أقول إن الخَبر صحيح فعلاً.

لم أُجِب بشيء، آثرتُ أن ألوذ بالصمت، وأن أنقل مشاعر الشكّ من لساني إلى ملامحي. أدركتُ ذلك فقط حين أجبرها صمتي المرتاب على أن تقول:

ـ لقد سمعتُ الخبر من أمجد نفسه هذا الصباح.

ـ مِن أمجد؟!

ـ نعم، اتصلتْ به إحدى الجرائد، أمس، وطلبتْ منه تصريحاً حول عمل لجنة التعديلات الدستورية، فاتفق معها على حوار صحفي بدلاً من تصريح. وأخبرني بأنه يعتزم الإعلان عن رأيه، في الموضوع عامة، وعن موقفه الإيجابي من التعامل مع اللجنة، وآلية عملها بشكل خاص.

ـ وماذا قلتِ له حين أخْبَركِ بذلك؟

ـ حاولتُ ثَنْيَهُ عن فكرة الحوار، فلم يتجاوب مع محاولاتي، بل أصرَّ على إعلان موقفه أياً تكُنِ العواقب. يَئِسْتُ من تغيير موقفه، وهذا ما دفعني في النهاية إلى الاتصال بك وإخبارك، عسى أن يكون في وسعك أن تُثْنِيَه عمّا يعتزمه.

«كم أنتِ طيبة يا نبيلة ـ قلتُ في نفسي ـ وحَسَنَة الظنّ بي وبإمكانياتي المتواضعة. أنتِ لا تعرفين، يا عزيزتي، مقدار ما أشعر به من هشاشةٍ في

الموقف والرأي حينما أجد نفسي في مقابل أمجد، أبدو صغيراً جدّاً أمام قامته، تلميذاً يتعلّم الأبجديات، أو هكذا على الأقل أشعر». قلت مبتسماً:

- أشكرك على حسن الظنّ بي، لكنك تعرفين عناد أمجد وتمسّكه الشديد بما يحسَبه الموقف الصحيح. وإذا لم تكوني قد أَفْلَحْتِ أنتِ في ثنْيه عن إتيان ما اعتزمه، فكيف لي أن أصيب نجاحاً في ذلك؟ أفترض أنّ الإجراء الأمثل، في هذه الحال، أن يشارك رفاقُنا كافة في هذا الجَهْد، عسى أن نُفْلح جميعاً في تغيير رأيه.

- مستحيل...

- لماذا مستحيل؟

- ليس من الأنسب أن يَعْلم بذلك وليد، وياسر، وجمال، وأسعد، وإيمان، وسليمة، وعمر...، وإلاّ انفجرت المعركة التي لا نريدها، والتي أحاول، من خلال اتصالي بك، أن نتفاداها.

- أنت مُحِقّة في ما تقولين، ولكن ليس من الضروري أن نوسّع الدائرة، يمكننا أن نكتفي بلقاءٍ يجمعنا به اليوم أنتِ وأنا ومريم وتوفيق ومناقشة الأمر معه.

- فكّرتُ في ذلك منذ الصباح، قبيل مهاتفتك، لكني فضّلتُ أن أتصل بك قبل أيّ إجراءٍ بمبادرةٍ جماعية، لعلمي أنّك الأعْقَل والأكثر رصانة فينا جميعاً.

«إرفقْ بي يا إلهي، لا طاقة لي على تحمُّل هذا الدّفق من الكلام العَسَلي». أحسسْت بأن دماً حارّاً يتدفق إلى رأسي ووجهي. خشيت أن ينفضح أمري، أمام عينيها المصوَّبتَيْن إليَّ، فارتجلتُ استدراكاً غبياً:

- أشكرك على حُسن ظنِّك بي، لكني - صدقاً - لا أملك المقدرة وحدي على زحزحة أمجد عن رأيه.

حسناً، جرّب أن تحدّثه في ذلك بالهاتف الآن، وإذا لم يتبيّن لك أنّ إقناعه ممكن، يمكننا حينها أن نطلب منه لقاءً عاجلاً، هذه الليلة، أو صباح غدٍ، قبل موعد حواره الصحفي ظهراً.

✤

حين ودّعتُ نبيلة في الساحة المقابلة للمقهى والمسجد، بعد اطمئناني إلى أنها عثرت على مكان في سيارة الأجرة، قررتُ أن أقطع المسافة بين أكدال وحيّ الفتح راجلاً، حتى أستوعب ما جرى في الفترة الزمنية القصيرة التي قضيتُها مع نبيلة في المقهى، والتي لم تتجاوز الساعة. لا أدري كم تبلغ المسافة بين المكان الذي أنا فيه وشقة الزملاء الذين يستضيفونني: أربعة كيلومترات أو خمسة أو يزيد، لا أدري. لكني وجدت في نفسي حاجة إلى تحرير قدميّ ورأسي من أيّ قيد، وإرسالهما في البعيد، وبَدَا لي أن ساعتين ونصف أو ثلاثة من المشي الوئيد توفّر لي فسحةً لاستعادة ما جرى من حديث، وللتفكير في هذا النفق الجديد الذي يزجّنا فيه أمجد بعناده المخيف والمؤذي. ليس ثمة ما يستعجلني للوصول إلى مكان إقامتي في حيّ الفتح، بعد أن أغلق أمجد في وجهي باباً أخيراً للتفاهم، وألقى بي ونبيلة في وهدة يأسٍ لا قعر لها.

كلَّمْتُه على الهاتف ونحن في المقهى، نبيلة وأنا، في محاولةٍ مني لإرضائها ليس أكثر. أعلمْتُه بأن نبيلة أخبرتني بموضوع اعتزامه إعلان موقف في شأن الدستور في الحوار الصحفي، ورجوْتُه ـ بعد أن أكَّدَ لي صحّة الخبر ـ أن يتريث قليلاً رحمةً بأوضاعنا التي لا تحتمل صدمةً عنيفةً من هذا الحجم. رَدَّ عليَّ، بهدوء الواثق من نفسه، قائلاً إنه لم يَعُد يعير أهميةً للحفاظ على صورةٍ وهميةٍ لحركة متماسكة، لمجرّد الردّ على منتقديها فيما ثمنُ ذلك التضحية بمطلب الإصلاح الذي انفتحت إمكانيتُه أمامنا. قلتُ له مرْغَماً ـ والتردُّد في النفس والصوت يتملكني مزاحماً رغبتي في إشعار نبيلة

بما لديَّ من جرأةٍ وحزم ـ إنّه لا يملك الحقّ في أن يتحدث للصحيفة باسم الحركة، وأجابني بأنه لن يأتيَ بدعةً إنْ فَعَل ذلك، لأنّ غيره من الرفاق سبقه إلى تنصيب نفسه ناطقاً باسم الجميع. رجَوْتُه أخيراً أن يعطينا، نبيلة ومريم وتوفيق وأنا، فرصةً أخيرة لمناقشة الموضوع في بيته هذه الليلة، فردَّ بأنه حَسَمَ أمْرَه وليكن ما يكون.

بَدَا القلق شديداً على ملامح نبيلة وهي تتابع حديثي إليه. أنهيتُ المكالمة من دون أن أقول شيئاً. ساد صمتٌ بيننا لفترة قبل أن أسمعها تستأذنني في الذهاب لأنها محبَطةِ كما قالت. أنا أيضاً محبَطٌ مثلها. لا، إحباطي مضاعف: خَذَلَنَا أمجد الذي نرى فيه مثال المناضل الحريص على وحدة الحركة، وخذلتُها حين خيَّبتُ أملها في قدرتي على التأثير في موقفه. لاشكّ أنها بالغت في تقدير ما أملك من تأثير، وإلاّ ما التجأتْ إليَّ من دون سائر الرفاق الآخرين. أنا سعيد بهذه الثقة، ومفجوع لهزيمتي أمامها في الوقت ذاته. ليس لي ما أفعله سوى أن أعضّ على الجرح، وأحاول أن أرفع من معنوياتها. قلتُ لها إن أمجد قد يتراجع في اللحظة الأخيرة، إذا فكّر ملياً في المسألة، وقد يفاجئنا غداً بهاتف يخبرنا فيه أنه أعاد النظر. تطلعت فيّ ملياً وابتسمت قائلة: لعلّك لا تعرف أمجد جيّداً. أجبتها بأني أعرفه وأعرف تصميمه، ولذلك قلت لها، في البداية، إن إقناعه بالعدول عن قراره أمر صعب. وحين سألتُها إن كان يحسُن بنا أن نخبر مريم وتوفيق بالموضوع، أجابتني بيأس: «وماذا ينفع إن عَلِما بالأمر، لن يغيّر ذلك شيئاً».

عبّرت لها، ونحن نغادر المقهى، عن رغبتي في إيصالها إلى قلب المدينة، حيث تقطن في حيّ الليمون، مقترحاً أن نتمشى لنأخذ حظاً أوفر في الحديث، لكنها اعتذرت بداعي التعب والرغبة في الاختلاء بالنفس في البيت. وقفنا قليلاً في انتظار سيارة الأجرة حين نبعت في رأسي فكرة السير راجلاً إلى حيّ الفتح.

شعرت بالتعب، بعد ساعتين من المشي، ثم توقفت لأرتاح قليلاً على مدخل حيّ المسيرة. لا بدّ من سيجارة لتنظيم فوضى التداعيات في الرأس. تذكرتُ، في هذه اللحظة، أنّ عليَّ أن أسأل عن نبيلة، وأطمئن إلى أنها وصلت إلى البيت بسلام، ومال مزاجُها إلى الصفو. يرنّ الهاتف من دون ردّ. لاشك أنها وضعته على الصامت، أو أنّه بعيدٌ عن متناولها. لا أستطيع أن أقطع بتخمين، لا أعرف عاداتها مع هاتفها، وخاصة بعد أن تدخل إلى البيت. استأنفت السير، ثم لم ألبث أن توقفت فجأة بعد أن داهمني سؤال مباغت: لماذا أخبر أمجد نبيلة بأمر حديثه الصحفي، ما دام هو أصرّ على أن يجريه، ورفض العدول عنه أو حتى مناقشته؟ انتبهتُ إلى أنه فاتني أن أطرح على نفسي، وعلى نبيلة، هذا السؤال حين اصطدم مسعاي إلى إقناعه بعناده. خيّل إليَّ أنّ هذا السؤال جدير بأن يبرّر اتصالي هاتفياً بنبيلة أكثر من أن أهاتفها للاطمئنان على سلامة وصولها إلى البيت وهدوء خاطرها. طلبتُ رقمها ثانيةً من دون جدوى. استأنفت المسير، وقد لاحت أمامي علائم حيّ الفتح، وأنا أدير السؤال في رأسي ثانية وأمنّي نفسي بأن أترك نبيلة، هذه المرة، رسالة على العلبة الصوتية أطلب منها فيها الاتصال بي حالما تستمع إلى رسالتي الصوتية. لم أكن قد بدأت أصعد الدرج إلى الغرفة حتى نَبَعَ سؤالٌ خبيث في باطني: «لماذا اختار أمجد نبيلة بالذات، ومن دوننا جميعاً، ليخبرها بشأن حديثه الصحفي؟».

سؤال خبيث فعلاً وإن كان دقيقاً؛ هي ليست أقرب من موقفه مني أو من توفيق، علاقاتها بإيمان ووليد متينة، وقد تكون أوثق من علاقتها بأمجد! هل أنا متأكد فعلاً من هذا؟ ماذا أسمّي، إذن، حديثه إليها في شأنٍ خطيرٍ خصَّها به من دوننا جميعاً، أليسَ قرينةً على ثقةٍ لديه بها متينة؟ أمجد لا يغامر بإفشاء سرّ إذا كان يعرف أن ذلك سيصل إلى من يتحيَّن فرصة تصيُّد أخطائه. لابدَّ أن علاقةً ما تجمعهما، ولا أعرفها، تبرّر له أن يُسِرَّ لها بأمرٍ خطير.

انزعجتُ لهذا الخاطر المشؤوم، لكني وجدتُ نفسي مهيأً للاستسلام له. اكتشفت ذلك حين صرفتُ عني فكرة الدخول إلى البيت، وعدتُ أدراجي إلى الساحة المقابلة للعمارة، لأقتعد مصطبة إسمنتية أمام محطة الحافلات. بحثتْ نفسي سريعاً عن مكان منعزل يسمح بتفكير هادئ في السؤال وحواشيه. لا يخامرني شكٌّ في أن هواجسي سليمة تماماً، ولا يخالطها وساوس؛ كان في وُسع أمجد أن يخبرني أنا، لو كان غرضه هو الإخبار حصراً. كان يمكنه أن يوزّع علينا جميعاً، نحن الأربعة على الأقل، أعني: نبيلة ومريم وتوفيق وأنا، الخبر المشؤوم بالعدل والنَّصَفَة، إن لم يكن يرضيه أن يخصّني - أو أحداً غيري - به. لم أُهَلْوِس، ولم أتزيَّد حين استنتَجْتُ ما استنتجت؛ بين أمجد ونبيلة علاقة أو عاطفة، ولو من طرفٍ واحد هو أمجد، تبرّر إيثاره إيّاها بالإعلام. لن يقنعني أحدٌ بعكس ذلك. لا يكفيني أن أسمع من نبيلة إطراءً يصل إلى حدّ القول إني «الأعقل والأكثر رصانة» لأطرد عني هذا اليقين المفاجئ. أسأل نفسي عن هذا الذي يمور في داخلي وعن معناه، هل هو الحبّ؟ وهل يمكن للمرء أن يُحِبّ في يوم أو يومين، ليعاني ما يعاني العريق في الحب؟ وهل يمكن أن يكابد إلى حدود الغِيرة؟! ولكني أستدرك بالتساؤل عمّا إذا كان أمجد وحدهُ من يُشَكّ في أمر حبّه لنبيلة، وأن تبرئة الثانية واجبة ولو مؤقتاً إلى أن يستبين الأمر.

من المرهق أن يفكّر المرء وليس بين يديه قرائن. التخمين عملية صعبة ومعقدة، وكثيراً ما يضيع معها التفكير، فيزج بنفسه في الدهاليز والسراديب والأنفاق. والمشكلة تَعْظُم أكثر حينما يخال الإنسان أية عبارة طائشة، حركة تلقائية، قرينةً مادية، أو شيئاً بهذه المثابة، لمجرّد أن القرائن عَزَّت واستعصتْ. أنا أشعر بذلك الآن؛ يُخيَّل إليَّ أن نبيلة متواطئة مع أمجد على كتمان الموضوع عن الآخرين، وإلاّ لماذا اعترضت على اقتراحي إخبار مريم وتوفيق بما جرى، بدعوى أن علمهما بالأمر لن يغيّر من موقفه شيئاً. نبيلة مبدئية، ولا يمكن أن تشترك معه في كتمان أمرٍ بهذه

الخطورة التي تهدّد وحدة الحركة، لو لم تكن تحبّه. لماذا أخبرتني، إذن، إذا كانت مشتركة معه في الكتمان؟ يردّ وسواسي: ربما لأنها فعلاً أملت في أن أُفْلِحَ في صرفه عن فكرةٍ ليست هي مقتنعة بها. أنا متأكد أنها ليست موافقة على الحوار الصحفي وما سيقوله فيه، لكني لستُ متأكداً من أنها لا تحبّه. ليس بين الحب والاتفاق في الرأي، هنا، علاقة. العلاقة الوحيدة تتعزز حين أفترض أن الذي بينهما حبٌّ، حينها يكون لجوؤُها إليّ من باب السعي في منع صورة حبيبها ممّا يتهددها من ضروب النّيل منها، وربّما التشويه.

لم أتخذ قراراً بمغادرة مكاني الذي أقتعده إلاّ حين تمكنتْ مني قُشَعْريرة برد. رنّ الهاتف حين هممتُ بالوقوف، انشرحت أساريري وأنا أسمع صوتها تعتذر مني عن عدم الرد على مكالمتي، لأنها لم تنتبه بسبب خفض صوت المحمول وانشغالها مع والدتها في إعداد العشاء. قلت لها:

ـ خَطَر لي وأنا أفكر في الموضوع أن أسألك عن سبب إقدام أمجد على إخبارك بما يعتزم الإعلان عنه من رأي إذا كان قد حسم أمرهُ في نفسه، ورفض مناقشة غيره فيه.

ـ هذا موضوع يطول شرحه، في كلّ حال أنا واثقة بأنك لن تحدّث أحداً في الأمر.

- ١٢ -

بَدَا توفيق، وهو يودّع إيمان في ساحة باب الحدّ، مأخوذاً بشخصية هذه الفتاة الفريدة في الجمع بين الحزم والتسامح، الصلابة والوداعة، إلى حدٍّ لم يتخيّله في السابق. كأنها المرة الأولى التي يتعرف فيها إليها. كأن كلّ الذي قيل عنها ورواهُ كثيرون، ولاحظ هو بنفسه الكثير منه في لقاءات عديدة، جمعتْهم في الشهرين الماضيين، محضُ تخيّلات وأقاويل لا أكثر. بدت له، قبل يومه هذا، رجلاً عنيداً في صورة امرأة، وإن ظل يُكنّ لها الاحترام الشديد لمبدئيتها وشجاعتها. يحلو لأمجد أن يلقّبها بمارغريت تاتشر. حين عاد إلى معلومات الإنترنت عن تاتشر، اكتشف أن التلقيب لم يكن شططاً، ما خَلاَ في عدم جواز التشبيه بين مناضلة ومذنبة، وأنّ أمجد ما أراد باللقب ذمّاً، وإنما وصفاً مقارِباً للجامع بين امرأتين يَتَنَسْوَنَ الذكورُ أو الرجال أمامهما. يُخيَّلَ إليه اليوم أنها تشبه الأمّ تيريزا من فرط حنوّها وتسامحها مع ما فعله أمجد، حتى مع يقينها القاطع بأن ما فعله خطأ جسيم. الآن فقط يدرك قيمة ما قال له حسن يوماً تعليقاً على صرامتها: وراء صرامتها رقّةٌ عاطفية رفيعة. وحين سأله عن سبب مثله إلى حسبانها كذلك، قال له حسن إنّه عاين كيف تتصرَّف بوداعة مع قريبها وائل وأصدقائه.

✤

لم يستطع أمجد أن يقنع أحداً، في اجتماع هذا المساء، بوجاهة موقفِه، وإنْ هو نجح في عرضه بشكل متماسك يكاد أنْ لا يعتريه تناقض. ظلّ جميعُ مَن حضر، ما خَلاَ نبيلة ولو باحتشام، متمسكاً بالرأي القاطع بأنه أخطأ، في حواره الصحفي، في التعريض بصورة الحركة، لدى الرأي العام، والإيحاء بأنها لم تعد موحَّدة، أو أن التناقضات تخترقها إلى الحد الذي تبدو فيه وكأنها أصيبت بأمراض الحَلَقية. دافع عن نفسه باستماتةٍ منبّهاً إلى أنه لم يقدّم نفسه في الحوار، الذي أُجريَ معه قبل يومين، ونُشِر أمس، بوصفه ناطقاً باسم الحركة، واستدلّ على ذلك بجملتين منه شدّد فيهما على أنه يعبّر عن موقف شخصي غيرِ ملزِم. وحين سألته سليمة عمّا إذا كان يجوز له أن يعبر عن موقفٍ شخصي في حركةٍ تحكمُها مبادئُ جامعة مشتركة، أجاب بأنه لا يَعْلم إن كان للحركة موقفٌ رسميّ معلن من المشاركة في المشاورات الدستورية، وأنه يعرف أن غيره سبقه إلى الحديث للصحف ووكالات الأنباء في شؤونٍ لم يُتَّخذ فيها موقف جماعي، وأنه - فوق هذا وذاك - متمسّك بحقه في الرأي حتى وإن صَدَر عن الحركة موقف جماعيّ، ولأن مَنْعَهُ من إبداء رأيٍ مخالف، بدعوى الإجماع، قمعٌ فكريٌّ لا يقبله أو يرضاه.

بَدَا موقفُه في غاية الحرج حين طالبه وليد وأسعد بأن يتدارك خطأه بإصدار بيان حقيقة، في الصحيفة التي أجرت معه الحوار، يعلن فيه أنّ موقفه شخصيٌّ وغيرُ ملزِم للحركة. رفض بشدّة أن يستجيب معتبراً هذا الذي يُطْلَب منه ينتمي إلى أساليب القمع والإرهاب التي نَخَرَتْ أمراضُها الحياة الحزبية في البلاد، وأنه لم يرتكب ما يعتذر عنه، وإنما أبْدَى رأياً يحْكُم عليه بالحقّ أو بالباطل مَن سيتبنّوْنه من مناضلي الحركة أو مَن سيرفضونه. حاول التحدي، لكنه جوبه بمن قال له إنّ رفضَه التجاوب مع هذا الاقتراح سيُجْبِر الحركة على إصدار بيانٍ في حقّه يُعْلن انتهاء صلته بها. لم يُتْرك له مجالٌ لأن يتفلت بحجة أنه أشار، أثناء الحوار، إلى أن

رأيه شخصي، فقد وجد مَن يردّ عليه بإشهار فِقْرَاتٍ من الحوار يدعو فيها الحركة إلى تشكيل وفدٍ لِلِقاء بلجنة التعديلات الدستورية. ثم لم يلبث وليد أن قال في حزم وقطع: «إذن، لم يبق إلاّ أن نصدر نحن هذا البيان نعلن فيه أنك بِتَّ خارج الحركة». بهت أمجد، أجال النظر في الحاضرين، ربما ليقيس أثر كلام وليد فيهم، ثم توجّه إليه بالسؤال:

ـ مَن فوَّضك أن تتحدث باسم الحركة وتصدر بيانات نيابة عنها؟

ـ لست أنا من سيفعل، لكني أبلّغك أن هذه نية رفاقنا في الدار البيضاء وفاس وطنجة. وأنا مطلوب مني أن أخبرهم بما اعتزمتَ فعله من تصحيح للخطأ الذي ارتكبت، أو من امتناع عن ذلك، حتى نتصرف.

ـ من أنتم؟

ـ تعرف من نحن؟

التفت أمجد إلى الحاضرين قائلاً:

ـ أظنكم مثلي تنتظرون معرفة من يكون هؤلاء القادة الذين يديرون الحركة من وراء حجاب، ويقررون مصائر المناضلين فيها.

ـ هؤلاء القادة هم أنفسهم مناضلو الحركة الذين تخذلهم وتطعنهم من خلف بمواقفك المهادِنة للنظام.

تكلمت نبيلة، الوحيدة فينا من تكلّم، قائلة:

ـ هذا كلام غير مسؤول، يا وليد، في حقّ مناضل.

ردّ وليد:

ـ دعي العواطف الشخصية جانباً، لا يضير الحركة أن تنظّف صفوفها من الإصلاحيين والمهادنين.

انفجرت إيمان محتجة:

ـ أرفض بشدّة هذه اللهجة الجارحة في الحديث عن مناضل تقدمي عريق مثل أمجد، ولا يرضيني أن أسمع هذه العبارات في حقه من رفيق له. قد يكون أمجد أخطأ بانفراده بالتعبير عن موقفٍ لا يرضي كثيراً منّا، ولكن لا يجوز أن نقابل خطأً بخطإٍ أكبر هو المساس بكرامة بعضنا. وأنا، في كل الأحوال، لا أرى سبباً لكلّ هذه المجادلة العقيمة، وللضغط عليه بطلب إصدار بيان حقيقة، يكفينا تشديدُه في هذا الاجتماع على أنه لم يَعْدُ التعبير عن موقفٍ شخصيّ ملزِم. ماذا نريد أكثر من هذا؟

ـ نريد بكل بساطة، قال أسعد، ومن دون تجريح أن يعلم الرأي العام، لا نحن فقط، أن موقف أمجد موقف شخصيّ فحسب.

ـ لا مانع لديَّ من أن نصدر بياناً؛ قالت إيمان.

ـ وبماذا طالبتُ أنا إن لم يكن بهذا؟ تساءل وليد.

ـ أنت تريده بياناً عقابياً ومهيناً ـ قالت إيمان ـ وهو مالا أقبله، شخصياً.

ـ أين الإهانة فيه؟ تساءل وليد.

ـ كيف تطرح مثل هذا السؤال وأنت تتحدث عن بيان تتبرأ فيه الحركة من عضوية أمجد فيها؟ إذا كان لابدّ من بيان، فليكن توضيحياً ومقتضباً يقول إن ما ورد على لسان أمجد في موضوع اللقاء باللجنة هو وجهة نظر شخصية. هذا ما يهمنا في المسألة كلّها، وهو الحقيقة التي لا ينفيها أمجد نفسه، ولا يضيرنا في شيء أن نعلنها. لكني لن أكون مرتاحة إلى قرار إصدار البيان إلا بعد أن يوافق أمجد على ذلك.

ـ وإن لم يوافق؟ تساءل جمال.

ـ لستُ مستعدّة حينها للموافقة على إصداره. وهذا رأيي الشخصي ولا أُلزِم به أحداً.

ـ ليس لدينا الحق في أن نقرّر في المسألة، قال وليد، فلدينا رفاق آخرون في مدن أخرى يعنيهم الموضوع مثلما يعنينا.

ردّت إيمان:

ـ إذا وافق الرفيق أمجد على فكرة البيان، أنا أتكفل بأمر إقناع رفاقنا الآخرين بما اتفقنا عليه، إن أنتم خوّلتموني التفاهم معهم في المسألة.

وافقنا، نبيلة وحسن ومريم وأنا، على اقتراح إيمان، فيما بدا على ملامح وليد وأسعد احتجاج صامت، وامتنع جمال عن التعليق، أمّا ياسر فاستمر صامتاً يرسم خطوطاً وأشكالاً هندسية على ورقة. تطلَّعنا جميعاً إلى أمجد ننتظر رأيه، فقال:

ـ أنا لا يعنيني أن تصدروا بياناً أو أن لا تصدروه، هذا شأنكم الذي لا أملك أن أتدخل فيه. أنا قلت رأيي بحرّية في الحوار الصحفي ولم أسِئ إلى أحدٍ أو جهة، ولا تحدثتُ باسم الحركة، كما يفعل كثيرون، ومنهم من يؤاخذني اليوم على موقفي! أتيتُ إلى هذا الاجتماع حين أُعْلِمْتُ بأن ثمة لغطاً حول ما قلتُه للصحيفة، وحسبت أنني أستطيع أن أبدّد الالتباسات التي قد يكون حديثي خلّفها لدى البعض. إن كان فينا من لم يقتنع بسلامة أسبابي في قول ما قلته في الحوار الصحفي، فذلك شأنه. وأمّا أن يُطلب مني اعتذار أو بيان، فذلك منتهى التطاول على حريتي لا أقبله من أيٍّ كان. وأنتم، مثلما قلت، أحرار في أن تتبنوا الموقف الذي يمليه عليكم ضميركم النضالي. غير أني أرغب في أن أعبّر عن عميق الامتنان للأخلاق الرفيعة التي أبدتْها إيمان، من خلال سلوكها الرصين وموقفها التوحيدي العاقل في هذا الاجتماع. وأنا لم أكن أنتظر هذا الاجتماع لأكتشف فيها هذه المناقب، فنحن لم نعرف عنها يوماً نزقاً في السلوك، أو مراهقةً في الكلام. أعطتِ المثال منها لمعنى المناضل الملتزم. إنها مناضلة نفتخر بها في الحركة، ويفتخر بها الوطن. والآن أستأذنكم في مغادرة الاجتماع.

وقف، والجميع في صمت، وتأهّب للمغادرة حين خفّت إليه نبيلة محاولة ثنية عن الخروج. التفت إلينا قائلا:

ـ اطمئنوا، أنا لم أغادر الاجتماع احتجاجاً، بل لأدعكم تناقشون ما أنتم فيه بكل حرّية، ولأرفع الحرج عمن يجد في نفسه حرجاً في الحديث بمحضري.

استأنفنا الحديث بعد خروج أمجد بسؤال من وليد عمّن سيكتب البيان. ردّت إيمان بالقول إنها تفضل طيّ الموضوع عند هذا الحدّ ونسيان أمر البيان. وحين جادلها أسعد ووليد بأنها وافقت على اقتراح إصدار البيان، ردّت بأنها قرنت ذلك بموافقة أمجد. جرّب أسعد أن يذكّرها بأن أمجد ترك الحرية للحاضرين في اتخاذ الموقف الذي يرتأونه، فما كان منها سوى أن قالت: «وأنا أيضاً مثله أترك لكم الحرية في اتخاذ الموقف الذي تشاءون»، وقامت مُؤْذنةً بالمغادرة.

أنهت الموضوع بهذه الطريقة، وانتهى بذلك مبرر الحديث فيه، ذلك أن أحداً منّا لا يمكنه أن يتخيل إمكان استمرار الاجتماع من دون إيمان، وخاصة حينما يكون علينا فيه أن نتخذ قراراً من هذا الحجم. وجدنا أنفسنا نلحق بها تباعاً، مريم وحسن ونبيلة وياسر وسليمة وأنا. لم يبق في قاعة الاجتماعات، حين غادرْنا، سوى وليد وأسعد وجمال. حينما وقفنا أمام مدخل المكان الذي نحن فيه، على مقربة من سور المدينة العتيقة، سمعتُ إيمان تطلب من نبيلة أن تتصل بأمجد، وتلتقي به، فتحاول تطييب خاطره. ولم ألبث أن فوجئت بإيمان تدعوني إلى أن نتمشى قليلاً في اتجاه باب الحدّ، وافقتُ على الفور، وودّعتُ حسن والرفاق متواعداً معه على اتصالٍ هاتفيّ في آخر الليل أو صباح الغد.

سألتني إيمان رأيي في الذي جرى في الاجتماع. لم أجد ما أقوله سوى أنني أشاطرها موقفها النّبيل وتصرّفها الحكيم. طلبت مني أن أدع المجاملة جانباً وأتحدث صَراحةً وبمعزل عن موقفها هي مما جرى. قلت لها، ابتداءً، إنني لا أجامل، إذْ أُفْصِح عن هذا التقدير، لأن الجميع يَحْمله

لها في نفسه، وقلت إن أمجد تَسَرّع في الإدلاء بمواقف خِلافية أحرجتنا جميعاً، لكن الطريقة التي نوقش بها في الاجتماع لا أقبلها أنا شخصياً لأنها تُوَتِّر الأجواء بيننا، وتكرّس قيماً سيئة في علاقاتنا الداخلية. ثم وجدتُني أُسِرّ لها بمخاوفي من أن يتوقف أمجد عن حضور اجتماعاتنا بعد الذي جرى. فأفهمتني أن أمجد ليس بالشخص الذي تهزّه جملة استفزاز، أو جملتين، من النوع الذي تفوَّه به وليد. لكنها استدركت قائلة إنها ستصاب بالإحباط الشديد إنْ حصل ما أخشاه فأضْرَبَ أمجد عن اجتماعاتنا، لأن مناقشاتنا من دونه ستكون من دون طعم، ومن غير عمق. وأضافت أنه لابد لنا من طريقة لإلزام وليد باحترام أخلاقيات المخاطبة. ودَّعتُها وانصرفت.

✤

تردّدتُ، وأنا في البيت، في الاتصال الهاتفي بأمجد لأطمئن إلى أنه لم يتأثر سلبياً بما جرى. أنا مدين له كثيراً بالشعور بالإيجابية لنشاطي في الحركة، فهو مثال المناضل بالنسبة إليّ، وحين أقارن بينه ووليد أو حتى ياسر ـ الذي كان اليوم هادئاً جدّاً على غير عادته ـ أُصَابُ بالذهول للفجوة بين نمطين من المناضلين. من حسن الحظ أن إيمان نَابَتْ عنّا جميعاً في وضعه عند حدّه، وفي إعادة الاعتبار إلى أمجد. أنا لا أستطيع أن أتخيل نفسي في اجتماعات الحركة من دون أمجد. قد يكون هذا أيضاً شعور حسن وربما آخرين. وها إني أكتشف اليوم أن إيمان مثله في طمأنة النفوس إلى أننا لا نطبخ الحصى في ما نفعل. كنت أخشاها في ما قبل، أو لكي أكون دقيقاً، كنت أخشى أحكامها القطْعية، وبعض ما يبدو على حزمها من علامات تطرُّفٍ راديكالي لا تميل إليه نفسي. غير أنها رفعت عني اليوم عبء هذا الشعور الطائش الذي تلبّسَني على غير تبيُّنٍ في ما مضى. أستطيع الآن أن أقول، باطمئنانٍ شديد، إننا في حاجة إليها أكثر من أي وقت سابق لترشيد علاقاتنا، وضبط توتراتنا، وخاصة في ما لو تأثر أمجد بما جرى اليوم، وقرر أن يتوقف عن حضور اجتماعاتنا، أو عدم الانتظام في حضورها.

رنّ هاتفي المحمول فيما أنا مستغرق في الحديث النفسي. أخبرتني مريم بأن أمجد يفكر جدّياً في الانقطاع عن حضور اجتماعاتنا. سألتُها كيف علمت بذلك، فأجابتني بأن نبيلة أبلغتها، حين حدثته بالهاتف قبل ساعة. وقع ما كنت أخشاه وأتحسَّب له. قلت لمريم:

ـ خالجني الشعور، ونحن في الاجتماع، أنه سيفعل ذلك، راقبتُ جيداً أصداء كلام وليد وأسعد على وجهه وملامحه، وأدركت أنه لن يتحمل أكثر ممّا سمعه مساء هذا اليوم. وحين غادرنا مكان الاجتماع، كنت أتمنى لو أن إيمان هي من أخذ المبادرة واتصل به، لكني فوجئت بها تطلب من نبيلة أن تفعل ذلك. لا أقصد أن نبيلة لا تَقْوى على ثَنْيِه عن الاستسلام لشعور الإحباط مما سمع، ولكن أقصد أن أثر إيمان فيه سيكون أقوى لما كان بينهما من سابق خلاف، ولوقوفها إلى جانبه على الرغم من ذلك الخلاف.

ـ أنا لم أسمع إيمان تطلب من نبيلة ذلك، لكني أفهم جيداً لماذا تطلب منها، هي بالذات؛ ربما لأنها تراهن على أن ما بين أمجد ونبيلة من حبّ متبادل يملك أن يُشفَى من الجراح ما لا تملكه لغة العقل ووسائل الإقناع.

لم أسألها عن قصة الحب بين أمجد ونبيلة، التي أعلم عنها أول مرة، وتجاهلت أمرها وكأنني أعرف به أو لا يعنيني، واكتفيتُ بأن قلت لها:

ـ لابدّ، إذن، من أن نبذل جميعاً مسعًى في ثنيه عن موقفه.

ـ لهذا اتصلتُ بك، فقد طلبتْ مني نبيلة إخبارَكَ وإخبار حسن بضرورة أن نلتقي، نحن الأربعة غداً، ونتفق على لقاء مع أمجد. وأنا أطلب منك إبلاغ حسن باقتراحها، ونعيد الاتصال لاحقاً، أفضل في صباح الغد لأننا الآن في منتصف الليل، لكي نتفق على موعد.

هاتِف حسن مقفل. لابدّ أنه نائم، سأتصل به في الصباح الباكر.

- ١٣ -

أخفقنا في إقناع أمجد، نحن الأربعة الذين التقيناه في بيته مساء اليوم التالي لاجتماعنا المشؤوم. كنتُ يائساً من تحقيق نتيجة حتى قبل أن نلتقيه، لكني قبلت الذهاب معهم على مضض نزولاً عند إلحاح توفيق. وحين بدأ الحديث، لُذْتُ بالصمت، وتركتُ الآخرين يجرّبون ما اعتبرْتُه مستحيلاً. فعل توفيق ومريم ما في وسعهما أن يفعلاه لثنيه عن مقاطعة الاجتماعات من دون جدوى. أثار انتباهي صمت نبيلة على غير عادتها، فهي لم تتفوه بأكثر من جملتين في البداية، ثم أعرضت بعد ذلك عن الكلام. خيّم الوجوم علينا جميعاً وإن سعى أمجد في تبديده من خلال التبسُّط في الحديث، ورواية النكات الجديدة عن مبارك وبن عليّ والقذافي. أوهمني تصرُّفُه في البداية وكأنه غيرُ راغب في الكلام. استمع بعناية إلى مريم، ثم إلى توفيق، وسألني رأيي فاكتفيت بالقول إني أوافق على رأيهما. أمّا نبيلة، فلم تتحدث إلا تعقيباً على توفيق حين استعمل عبارة «وقاحة وليد»، طالبةً منه أن يسحبها لأنها ليست من مفردات المخاطبة التي يليق بنا استخدامها، فما كان منه إلاّ أن استجاب فوراً بالاعتذار عن استخدامه إياها عفواً ومن دون نيّةٍ في التجريح.

قال، في ما يشبه الرغبة في إقفال الحديث في الموضوع، إنه يشكر مشاعر الجميع نحوه، ويُقدّر رغبتهم في استمرار حضوره ومشاركته في اجتماعات الحركة، لكنه اتخذ قراره بعد تفكيرٍ ورويّة وليس تحت تأثير ردّ فعلٍ عمّا حصل، وأنه لا يجد في نفسه استعداداً لمناقشة الموضوع. ثم استدرك قائلاً إنه سيكون سعيداً إنْ استفاد الجميع من فرصة هذا اللقاء الطيب، «الذي خلقه لنا إصرار مريم عليه»، كما قال، وفُتِحَ نقاش حول مستقبل عمل الحركة، ككل، وبمعزل عن مشاكلها الصغيرة. ولكن، ما إنْ سأله توفيق عمّا إذا كان يعتقد أن أحداً من الحاضرين يملك حافزاً نفسياً لمناقشة شيءٍ ما بعد هذا الموقف الحَرِج الذي وَضَعَنَا ـ هو ـ فيه بإصراره على مقاطعة الاجتماعات، حتى انطلق أمجد في الحديث.

قال ردّاً على سؤال توفيق:

ـ أنا لم أعلن مقاطعتي للحركة أو انسحابي منها حتى أضعكم في موقف حرج كما تقول.

لكنك تعلم، أكثر منّا جميعاً، أن فعاليات الحركة وخياراتها تتقرر في هذه الاجتماعات. وأنت، في ما أعرف أنا على الأقل، لست من النوع الذي يشارك في عمل ليس مقتنعاً أو مؤمناً به.

أنا مؤمن بالحركة كفعلٍ جماهيري مدنيّ ذي تأثير في حياتنا الوطنية ومستقبلنا السياسي. والحركةَ لا تُخْتَصَر في عشراتٍ من النشطاء، هنا وهناك، يجتمعون وينسّقون، فيتفقون أو يختلفون، ولا يمشي جسمُها إلاّ بأرجلهم، لأنها إن أصبحت كذلك انتهت، كحركة، وتحوّلت إلى تيارٍ سياسيٍّ صغير لا شأن له. ثم إن الجماهير التي تنزل في مسيرات الحركة متنوعةُ المشارب والخيارات، وليست مبرمجةً على موجةٍ واحدة. انتبهْ مثلا إلى الشعارات المرفوعة، لا أقصد بها تلك التي نتفق عليها نحن فنثَبِّتُها على لافتات محمولة، وإنما أقصد الشعارات التي يصدح بها آلاف الشباب،

هنا في الرباط، وأمثالهم في مدن أخرى؛ بعضهم يطالب بالحرية ويهاجم الاستبداد، وبعضهم يطالب بالعدالة ويندّد بالفوارق الطبقية والفساد، وبعضهم يطالب بالملكية البرلمانية ويتندّر بالمخزن، وبعضهم يكفيه التشهير برموز سياسية من خلال حمل صورها مشطَّباً عليها بهذه العلامة أو تلك. هذه اللوحة الخصبة من المواقف والخيارات هي ما يمنح الحركة ألَقَها، ويجعلها حركةً لجميع الشعب، ويحمي حصّةً كلّ واحد فيها من احتكارِ أو استئثار من يبتغي احتكارَ الحركة، وفرْضَ عقيدةٍ سياسية واحدة عليها. أنا مؤمن بها من حيث هي هذا البحرُ الواسع الذي نسْبح فيه جميعاً، ويسعنا جميعاً. ولذلك لستُ في حاجةٍ، أو لم تَعُد بي حاجة، إلى أن أكون في موقع التنسيق أو التنظيم الميداني، لأشعر بأنني أنتمي إليها. إن الشعور الوحيد الذي ينمو في داخل الفرد، ويترسّخ حثيثاً في وعيه، كلما تمسَّك بموقعٍ «قياديّ» وهميّ، هو أنه يُنشئ حزباً سياسياً من «مادة خام» اجتماعية يوفّرها له مثل هذه الحركة الاجتماعية. إنّ مقتل هذه الحركات هو إقفالها في خيار سياسيّ من لونٍ واحد، هو تخريبها. وكم من حركةٍ في عالمنا المعاصر قَضت تحت أنقاض هذا النوع من التفكير المغلق. وصدّقوني حين أقول إن هذا الرأسمال الاجتماعي والجماهيري قد نفرِّط به إن حاولنا احتكارَه أو توظيفه في خيار سياسي وحيد. ثم صدّقوني حين أقول إنه كان في وسعنا أن نصنع حركةً أضخم جماهيرياً، وآمَنَ سياسياً، لو اتسع صدْرُنا لخيارات أخرى داخل الحركة التقدمية والديمقراطية في البلاد، وهو ما لم أفتأ أدافع عنه وأدعو إليه كما تعرفون، لكن بعضاً غيرَ قليلٍ من رفاقنا خالفني الرأيَ في المسألة، وأمْعَنَ في خيار الإغلاق المحكَم. أعترف لكم أن موقفي لم يَجد مَن يتبناهُ ويحوّله إلى رأيٍ عظيم الشأن في الحركة، وإن كان من واجبي القول إنّ بعضاً غيرَ قليل من المناضلين اسْتَحْسَنَهُ، وأنتم من هذا البعض. غيرَ أن أملي كبيرٌ في أنّ التمسُّك بمبدأ حرية الرأي في الحركة لن يفسح المجال لمثل موقفي في الذيوع والانتشار فحسب، وإنما

سيتيح لنا ـ أكثر من ذلك ـ أن نكسب أنصاراً جدداً لمعركتنا الديمقراطية. سيكونون كثراً من حيث العدد، وبعشرات الآلاف، لكن الأهمّ من أعدادهم النصاب السياسي الذي سيتأمن لحركتنا، وهو ما دعوته في مناقشات سابقة بحزام الأمان السياسي الذي ليس منه بدٌّ لإضفاء الطابع الوطني الجامع على عملنا الديمقراطي.

ساد صمتٌ برهةً قليلة قبل أن تقول مريم:

ـ لا أظن أحداً منّا، نحن الأربعة على الأقل، يختلف معك كثيراً في الرأي والتقدير. غير أنه ليس علينا أن نخسر وجودك بيننا في الاجتماعات ثمناً لِتَمَسُّكِكَ برأيٍ نعترف بوجاهته. فأنت تستطيع، من خلال لقاءاتنا في اجتماعات الحركة، أن تستمر في التعبير عنه، وفي إقناع المناضلين به أكثر ممّا يسعك أن تفعل ذلك من خارج هذه اللقاءات.

ـ دوري سأبذله في أيّ موقعٍ كنت فيه. وقبل أن نبدأ لقاءاتنا في الشهرين الماضيين، وقبل أن تنشأ فكرة الحركة في ذهننا بأيام، كنت أناضل في الحركة الطلابية ومجال حقوق الإنسان. لم أتعود على أن أعيش حالة الفراغ، ولن أعيشه. وإذا لم يكن المرءُ منّا مسؤولاً في موقع، فمسؤوليته أمام القضية التي يناضل من أجلها تكفيه كي يشعر بضغط الواجب عليه باستمرار. اطمئنوا، سأظل معكم في الساحات، بعيداً عن الغرف المغلقة، إلاّ إن شئتم أن نلتقي هنا بين فينة وأخرى، بل ولا مانع لديّ من أن نلتقي حتى في المقاهي، وسأكون سعيداً بأن يتواصل الحوار بيننا.

قال توفيق بنبرة يأس:

ـ كأني بك تعلن هزيمتك أمام رأيٍ داخل مجموعتنا بهذه الطريقة من الانسحاب.

ـ الهزيمةُ أن أسلِّم به، وأنا ما سلّمتُ به، بل أحسَبُه مغالياً حتى لا أقول متطرّفاً، وأنا مزاجي السياسي واقعيٌّ كما تعلم، ومتحرّر من الطوبويات.

- أنت لم تسلّم به، ولكنك سلّمتَ له.

- ما الذي سلمتُ له؟

- الميدان... لكي يتحرك فيه حرّاً طليقاً من دون قيود.

- وماذا تفعلون أنتم؟ إن سلّمتُم بالأمر الواقع، فهذا ما سيحدث، لكن ظني بكم أنكم لن تفعلوا.

- رأيُنا سيصبح أضعف في غيابك عن الاجتماعات، قالت مريم، وأنت كنتَ ظهيرَنا في مناسبات كثيرة كنّا لا نجد فيها مَن يحسن التعبير عمّا نؤمن به. سنكون الآن في وضع ضعيف.

- ليس من حقكم أن تيأسوا.

- نصيحة غير مقبولة من يائس؛ قال توفيق ضاحكاً.

- لستُ يائساً، لكني ما عدتُ على يقينٍ من أني سأفيد في تغيير الأشياء من الموقع الذي كنتُ فيه قبل يومين. وحتى لا أهدر مزيداً من الوقت، اخترتُ أن أنقطع عن الاجتماعات، وأفتح حواراً متواصلاً مع كلّ من أعرف من المناضلين حول عملنا الديمقراطي. هل تسميّ هذا يأساً؟

سألتْ مريم ببعض تردُّدٍ وحرجٍ لم تستطع إخفاءهما:

- ألم نكن جميعاً، أعني نحن الموجودين هنا، في غنًى عن مبادرتك بإعلان مواقف عبر حوارٍ صحفي؟ دعني أوضح أن قصدي ليس القول إن مواقفك تلك ليست موفَّقة، أو إنني شخصياً أختلف معها، وإنما قصدي أن إخراجها على هذا النحو جرَّ علينا هذه المشكلات التي كنّا في غنًى عنها.

- تعرفين يا مريم أنني لم أقل شيئاً جديداً في الحوار الصحفي يختلف عمّا أعبّر عنه دائماً في اجتماعاتنا، وخاصة في الاجتماعات الأربعة الأخيرة التي احتدَّ فيها الخلاف بيننا. إذا كان الجديد هو أن موقفي صار

معروفاً لدى الجميع في الحركة وخارجها، فعليك أن تعلمي أن أمرهُ أذيع في مناضلي الحركة حتى قبل أن يُجْرَى معي حديثٌ صحفي. وقد سألني رفاق كثر في الدار البيضاء وغيرها من المدن، في اجتماعات التنسيق، عن معنى عبارات صدرت عني في اجتماعاتنا في الرباط، وعمّا تعنيه سياسياً. لقد كان هناك من يرغب في الإساءة إلى صورتي في الحركة ـ أو هكذا هو اعتقد ـ من خلال ما أشاعه من صحيح الكلام وزائِفِهِ عني. ولذلك، لا مبرر للاعتقاد بأن حديثي للجريدة أثار أزمة، لأن هذه موجودة سلفاً، وستستمر في الحركة بين منطقين في النظر إلى الأشياء. كلّ ما قد يكون جديداً، في الموضوع، أن البعض سيجرّب استغلال الحوار للمزيد من الإساءة إليّ.

ـ لماذا، إذن، تتبرّع بهذه الفرصة لتمكين المسيء من الإساءة؟ تساءل توفيق.

ـ قصدتُ ذلك عمداً.

ـ كيف؟

ـ قصدتُ أن يخرج هذا الرأي، الذي أعبّر عنه أنا، إلى العلن أكثر، وأن لا يبقى حبيس المناقشات المغلقة، أو تَهَامُسَ الرفاق في الحركة، علَّه يثير مناقشات عامة وخصبة. لم يكن همّي أن أصفّيَ حساباً مع أحد، ولا أن أعطي أحداً فرصة النَّيل مني، همّي كان ومازال التفكير بصوت مسموع في مستقبل نضالنا الديمقراطي. وقد تستغرب إذا أخبرتُك بأن مكالمات عدّة تقاطرت عليّ اليوم وأمس، ممّن أعرفهم في الحركة وفي القوى الديمقراطية، وممن لا أعرفهم، يهنئونني على شجاعتي في إبداء موقفي.

ـ قد يكون منهم من تراءى له حديثك فرصة لإثارة الاستفهام حول وحدة الحركة، وخاصة من الذين اتصلوا بك من قوًى أخرى غير رفاقنا، قالت مريم.

ـ تسيئين الظن بالناس يا عزيزتي. الذين كلموني من خارج الحركة مناضلون محترمون، وبعضهم فاجأني أن يتصل بي وهو لا يعرفني وإن كنت أعرفه لأنه من أعلام السياسيين. لا أريد أن أذكر أسماء، ولكن هذه نبيلة أمامكِ فاسأليها.

صعقتني العبارة الأخيرة واستوقفتني. لم يكن ظنّي طائشاً ولا وسواساً، بين الاثنين شيء أكبر من مجرد الرفقة النضالية. حدسْتُه في البداية، على نحوِ عَرَضيّ، حين أخبرتْني نبيلة باعتزام أمجد إجراء حوار، وما كان لي إلاّ أن أحدسه وأنا أتبلغ منها خبر إعلامه إياها بالأمر من دوننا جميعاً. ثم زاد ظني استفحالاً إلى درجة الشك أمس حين خرجنا من الاجتماع ورحتُ إلى حيّ الفتح، جرَّبت الاتصال بها هاتفياً لمرّات عدّة، لكن خطها ظلَّ مشغولاً. وجرّبت الاتصال بأمجد، فكان خطه مشغولاً أيضاً. حاصرني الشك، بحثت عن اليقين بطريقة سخيفة: أتصل بها ثم أتصل بعد ذلك به فوراً لأجد الخطين مشغوليْن معاً. استمرّ فشل المحاولة لأكثر من ساعة. يئست من أن يردّ عليّ أحدٌ منهما فتوقفتُ لدقائق. حين استأنفتُ الاتصال، وكان ذلك حوالي الحادية عشرة ليلاً، وجدت خط هاتف نبيلة مُقفلاً. طلبت أمجد، فوجدت خطه هو أيضا مقفلاً. لم يعد ثمة من مجال للشك في أنهما كانا يتحدثان كل تلك المدّة التي جاوزت الساعة! الآن، يرفع أمجد، بعبارته العارضة، ما قد يكون بقيَ عندي من إبهام في المسألة. وداعاً أيها الوهمُ الجميل العابر.

ـ ١٤ ـ

تفتح عينيها في البعيد، تركّز النظر، ثم تُطْبِق كحدقة عينِ آلةِ التصوير تلتقط المشهد. تجيل البصر في كل مكان، في الشارع الرئيس وعلى جنباته، وفي الزنْقَات المتفرعة، كأنها تبحث عن هدفٍ ضائع بين الحشود. تعود سريعاً إلى مقدمة المسيرة، وقد وصلت بمحاذاة بنك المغرب، تتفحص الصفوف والشعارات، وتُوَشْوِشُ كلمات لهذا وذاك من أفراد اللجنة التنظيمية. كالنحلة هي تنتقل بين مكان وآخر، والتَّحايا وشارات النصر تُوزَّع عليها من كل مَن وقعت عليه عيناها من الذاهبين في الحشد نحو الحلم الكبير. لاحظتْ كيف تكاثرت، هذه المرّة، أعدادُ الشابات المحجّبات والشباب الملتحي أكثر من السابق، غير أنها لم تُلْقِ بالاً إلى ما قد يقال لها غداً في هذا الشأن؛ القضيةُ قضية الشعب كلِّه، والشباب كلِّه، قالت في نفسها، والمهم أن نكسبها جميعاً. ثم لماذا لا يمكن لمن قد يَتَسَقَّط مثل هذه الواقعة، ويبني عليها حكماً في غير صالح الحركة ونشاطاتها، أن يفتّح العينين أكثر لكي يرى آلاف الكوفيات الفلسطينية، وصور غيفارا، ويسمع هدير الشعارات المدنية الديمقراطية؟ الذين خرجوا وخرجْن من عنوانٍ سياسيّ متديّن لم يفعلوا ذلك كي يظفروا بالجنّة ـ تقول

في نفسها - بل من أجل أن يظفروا بالديمقراطية. وكما الجنّة تَسَعُ الفقير والغنيّ، الصغير والكبير، تَسَع الديمقراطية الجميع. تستأنف التنقل بين مقدمة المسيرة، على مقربة من مبنى البرلمان، ومؤخرتها في باب الحدّ. كم يكون عدد المشاركين؟ لا تدري على وجه التحقيق، لكنها تقطع، في يقينٍ، بأنهم جاوزوا الخمسين ألفاً. إذا تظاهر أمثالهم في عشر مدن، تكون الحركة قد حشدت نصف مليون في يوم واحد ووقت واحد.

كم هو رائع أن ترى ذلك لتطمئن إلى أن حماسة الناس للتغيير لم تتأثر بوعود الإصلاحات الدستورية، ولا بانطلاق عملية الاستشارات السياسية حولها، ولا بإجماع الأحزاب يميناً وشمالاً على تأييدها. خَشِيَتْ، مثل غيرها من رفاقها، أن تُحْدِث الوعودُ الرسمية بالإصلاح حالا من الاطمئنان والارتخاء في الناس والمناضلين، مثلما خشيت أن تصاب الحركةُ بالشكّ الذاتي في قدرتها على البقاء وحيدةً تجذِّف ضدّ التيار. وحيدة؟ لا، ها هي تسبح في بحْرٍ من الجماهير متدفق الأمواج. وها هي قوًى سياسية عدّة تسير في ركابها نحو الهدف المشترك. تمنت، في هذه اللحظة، أن يكون أمجد موجوداً؛ فهي لم تَرَهُ، وإن كان لا يخامرها شكّ في أنه لن يستطيع التخلف عن المشاركة في المسيرة إلاّ لمانعٍ صحيّ قاهر. ومَن يُدْريها إن كان يمشي في مكان ما وسط الحشود من دونَ أن يثير انتباه أحد. نسِيَتْ أن تسأل نبيلة عنه حين بدأ التجمع، قبل ساعتين، في ساحة باب الحد. ستفعل إن رأتْها ثانية بعد قفولها إلى الصفوف الأمامية. تمنّته أن يكون حاضراً لا لكي تتشفى منه، وتَرُدَّ دعواهُ بأن الحركة دخلت عدَّها العكسي، بعد بداية المشاورات حول الدستور، ولكن كي تشهد كيف تتجدَّد نبتةُ الأمل في نفسه وعينيه، فأمجد، مثلما تقول عنه، مناضل أصيل لا شيء يوجّهه إلاّ قناعاته الخاصة.

لاحظتْ ثانيةً أن الإنزال الأمني هذه المرة أعلى ممّا كان في المسيرتين السابقتين، وفي مسيرات أخرى أسبق في السنوات الأخيرة نُظِّمت تضامناً مع الشعبين العراقي والفلسطيني. انتشر رجال الأمن في

الشوارع الفرعية، لكنهم لزموا أماكنهم كالعادة ولم يضايقوا أحداً. غير أن وفرة أعدادهم وسياراتهم توحي لها بأن السلطة لم تعد تتحمّل تظاهراً جديداً، بعد أن قدّمت ما اعتقدت أنه تجاوُبٌ مع مطالب الشعب، وأخذت من الأحزاب المؤيّدة لخيار التعديلات وآليتها رخصةَ اعترافٍ بأنها قدّمت ما هو مطلوب منها شعبياً. حين قفلت راجعة نحو الصفوف الأمامية، وعلى مقربة من مبنى البريد المركزي، تراءى لها وكأن اضطراباً يحصل في الصفوف الأمامية للمسيرة قبالة مبنى البرلمان. استعجلت خطوها فانتبهت إلى شعارات غير معهودة تطرق سمعها تنبعث من هنا ومن هناك. حين سألت جمال، وكان يصرخ في صخب منبّهاً شباباً من اللجنة التنظيمية إلى ضرورة تمتين الحزام البشري على المسيرة من جهة فندق ومقهى باليما، قال إن بعض «البلطجية» حاول الاندساس في الصفوف. ضحكت من العبارة، التي عمَّمتها الفضائيات أثناء الثورة المصرية، ووصلت إلى قلب شارع محمد الخامس. وحين رغبت في العثور على مقابلٍ لها في مفردات العامية المغربية، واستعرضت ما يمكن أن يماثلها في المعنى أو يقاربها من مفردات مثل «الشْلاَكْط» و«الشْمَاكرية»، استعصى عليها الحسم فسلَّمَتْ بأنه لا بأس من استعمال عبارة «البلطجية»، أو «البلاطجة» كما يسميهم اليمنيون، وإنْ كانت تتطيّر من جمع التكسير اليمني الذي يضع هؤلاء المنحرفين مقابلاً ـ ولو نحوياً - للبلاشفة!

قضتْ بقية يومها مغمورةً بشعور الظفر والانتشاء. ليس قليلاً عندها أن تجتاز الحركة امتحانها الأصعب منذ سبعين يوماً من الإعلان عن قيامها. تذكرت فجأة حادثةً أثارتها في نفسها عبارة «السبعين يوما». لا تذكر الآن أين، ولا متى، قرأت عن رقصة لينين فرحاً، والتي فاجأت رفاقهُ في الحزب. كانت قيادة الحزب البلشفي مجتمعة بعد نيف وشهرين من نجاح الثورة. في لحظة، يقوم لينين بأداء رقصةٍ استغرب لها رفاقُه، وحين سألوه عن السبب: أجاب بما معناه أن الثورة الروسية تخطت بيوم

عُمُرَ كومونة باريس الذي دام سبعين يوماً قبل انهيارها. الحركة اليوم، بهذه التظاهرة العارمة، تتخطى حاجز السبعين يوماً بأيام.

حين التَقَتْ رفاقها في الاجتماع المسائي لتقييم ما جرى، ولتبادُل المعلومات عن مسيرات المدن الأخرى، لاذت بالصمت على غير عادتها، وتركت لوليد، وأسعد، وجمال، وياسر، وسليمة، ومريم، وتوفيق، . . . أن يتحدثوا. كان شعور الظفر يغمرها. تمنّت أن تعرف رأي أمجد في تلك اللحظة، ثم انتبهت فجأة إلى أنّ نبيلة لم تنبس طيلة الاجتماع ببنت شفة. سألتها وهم يغادرون جميعاً مكان الاجتماع عن أمجد:

- لم أَرَ أمجد هذا اليوم، بحثتُ عنه طويلاً بين الجموع من دون جدوى. هل شارك في المسيرة يا ترى؟

- نعم، كان هناك، أتينا سوياً، لكنه آثر أن يظل بعيداً عن مكان وجودنا لئلاّ يُحرج أحداً.

- ما هذا الكلام يا نبيلة؟ مكان أمجد ليس فقط بيننا، بل على رأس مجموعتنا.

- أشكر لكِ رأيَك الطيب فيه، لكنك تعرفين مزاجه في الموضوع.

- كنتُ أتمنى أن ألتقيه في المسيرة لأعرف رأيه.

- اطمئني، يا إيمان، هو في غاية السعادة من رؤيته ما حصل اليوم.

ـ ١٥ ـ

ما كنتُ أتخيّل أنني سأعيش في هذه الدّوّامة منذ شهر، وأن أتحمّل كل هذا التمزّق في المشاعر بين الوفاء لأمجد والوفاء لرفاقي في الحركة، بعد الذي وقع بينهما من تباعُدٍ وجفاء. ينتابني أحيانا شعورٌ عابر بأن بعضهم يشعر بالراحة لغيابه، فيأخذ حريته في قول ما كان يحسب لِلْفَوْهِ به حساباً حينما يكون أمجد موجوداً. حتى أني خِلْت أن بينهم من يمنح نفسَه حقّ التعريض برأيه من دون ذكر اسمه. غير أن هذا الشعور يتبدّد سريعاً حين يحدثني عنه آخرون في جلساتنا الخاصة، أو حين تأتي إيمان على ذكره أطْيَبَ ذِكْرٍ في اجتماعاتنا، فتُصِرّ ـ مثلاً ـ على القول إننا افتقدنا رأيا حصيفاً كنّا نسترشد به ونتعقل به الأشياء، أو إننا في أمسّ الحاجة إلى رأيه في هذه أو تلك من المواقف الصعبة أو المسائل المستعصية. غير أن أكثر ما كان يقال في اجتماعاتنا، ويُدلى به من آراء ومواقف، هو من النوع الذي لا يرتئيه أمجد أو يرتاح إليه. حتى حسن وتوفيق ومريم انغمسوا في نفس المحيط، وقلّت تحفظاتهم على الخيارات العامة، إلاّ في حالات قليلة حصل فيها بعضُ الجدل بين حسن ووليد. ولم أكن أنا، في الواقع، أختلف عنهم كثيراً في النظرة إلى الأشياء، وفي تقدير المواقف. كنت شديدة الاقتناع بما نقوم

به، الشيء الوحيد الذي ظل يزعجني هو طريقة المناقشات التي تجري بيننا، أو، للدقة، الكيفية التي يتحدث بها وليد وياسر، وخاصة الأول منهما الذي يوزّع الاتهامات على الأفراد والأحزاب وكأنه قاضٍ يتلو أحكامه على المتهمين! يقرفني ذلك أشدّ القرف، وأرى فيه خفّةً ونزَقاً لا يليق بنا. ولولا التدخلات المتكررة والحاسمة من إيمان لتصحيح أساليب الحديث ومفرداته، وملاحظات حسن النادرة ولكن العميقة، لوجدتُ نفسي مُضْربة عن حضور الاجتماعات.

حين أكون مع أمجد، تبدأ مشكلتي التي لا فكاك لي منها حتى الآن، أحبّه وأختلف معه في الرأي اختلافاً شديداً. لم يكن قد تبيَّن لي فارقٌ في المواقف بيننا حين أحببنا بعضنا مباشرة، بعد أول مظاهرة نظمناها في الرباط غداة إعلاننا عن ميلاد الحركة. تعرّفتُ إليه قبل المظاهرة بشهر، وقبل الإعلان عن ميلاد الحركة بأيام. حصل ذلك صدفة وأنا أجلس مع إيمان ومريم في مقهى يقع في الحديقة المجاورة لصالة الفنّ السابع. كان يجلس مع أصدقاء عرفت منهم، في ما بعد، ياسر وأسعد. رأته إيمان وكان مولّياً ظهره، فحدثتنا عنه، وعن سيرته النضالية كطالب في النقابة الطلابية وكمناضل في رابطة لحقوق الإنسان. وحين نهض مع أصدقائه للمغادرة، نادتْه ودعتْه إلى مجالستنا قليلاً. لبّى بترحاب ظاهر، وانخرطنا في الحديث وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن. أذكر أن الحديث الذي دار بيننا كان حول الاعتصام الذي نفّذ، عشية ذلك اليوم، في ميدان التحرير بالقاهرة. بدأتْه إيمان بسؤاله عن المعلومات التي لديه عن الاعتصام والقوى التي دعت إليه. انطلق يتحدث باستفاضة، وبتفصيل مثير ينم عن معرفته الواسعة بخريطة القوى الشبابية والسياسية في مصر. سألْتُه إن كان يعتقد أن الأمور قد تتطور نحو ثورة شعبية كالتي حصلت في تونس، أكّد - بلغة قاطعة - أن مصر متجهة نحو ثورة، لكنه لا يعرف إن كانت ستنتهي إلى إسقاط النظام أم إلى انتزاع مكتسبات ديمقراطية. الشيء الوحيد الذي كان على شبه يقين منه

أن هذه الثورة، إن اندلعت، ستنهي إلى الأبد فكرة توريث السلطة، وهذه وحدها ـ مثلما قال ـ تستحق التضحية بالدم والحرية من أجلها.

التقينا بعد نجاح الثورة في مصر، كانت فكرة الحركة قد خرجت إلى الوجود عند بعض رفاقنا، وتحدَّد موعد الانطلاق. بعد الإعلان عن ميلاد الحركة، تكثفت اللقاءات بيننا في الرباط، وبين رفاق آخرين في الدار البيضاء ومدن أخرى. كنت ألتقي أمجد، مع آخرين، يومياً تقريباً، وتوثقت الصلة بيننا. وبدا لمجموعتنا واضحاً أنها تمشي برجلين لا غنًى عن إحداهما: إيمان وأمجد. مِلْتُ إلى آراء أمجد أكثر في البداية. أشعرتني أنني أمام مناضل مثالي يشبه والدي في المبدئية والحزم والرزانة، مثلما رأيتُه منذ كنت صغيرة، ومثلما روت لي عنه والدتي. شعرتُ بانجذاب شديد إليه في الأيام الثلاثة الأخيرة، التي سبقت اعتصامنا الأول في باب الحدّ، ومسيرتنا في شوارع وسط العاصمة. وشعرت أنه بدأ يبادلني المشاعرَ عينها من دون إفصاحٍ باللسان. تكلمتْ عيناه في مرات عدّة قبل أن يقول لي، ونحن نسير سوياً تحت مَظَلَّتِهِ التي يحملها بيده لنتّقيَ زخّات السماء، إنه أجمل يوم في حياته أن ينطلق هذا الحلم الجماعيّ، وأن أكون إلى جانبه. حين شكرته على لطف شعوره، أردف قائلاً: «أحبّك». علمتْ إيمان ومريم بعلاقتنا منذ الأيام الأولى، أخبرْتُهما بذلك، وهنأتني إيمان. لكننا، في لجّة العمل الجماعي، كدنا أن ننسى الموضوع تماماً لأننا لم نعد إلى فتحه بيننا، بينما استمرت علاقتي بأمجد تتطور وتترسخ، إلى أن فاجأنا بانتقاداته الشديدة للحركة في مسيرتها الثانية بعد شهر من الأولى.

لم تغيّر مواقفه الجديدة من حبّي له، لكنها أشعرتني بأن خيطاً من خيوط كثيرة بيننا انقطع. من حسن الحظ أن الخيوط الأخرى ظلت متينة، ممّا حفظ شعور الحبّ المتبادل بيننا من تبعات ذلك الامتحان الذي اجتزناهُ سياسياً في النصف الثاني من شهر مارس. بدا لي حبُّه كثيفاً حتى أني خِلْتُهُ وُلِد قبل عامٍ لا قبل شهر؛ وهو شعورٌ حمى علاقتنا من هزّةٍ كان يمكنها

أن تُصَدِّعه. حين لاحظ والدي أني كنت منزعجة، بعد اجتماعنا الذي أثار فيه أمجد مواقفه النقدية من مسار الحركة، ورويت له ما جرى، حذّرني من أمجد، ولم يكن يعرفه، قائلاً إن مثل هذه الأصوات كثيراً ما يَندسّ في الحركات الاجتماعية لِيُؤَدِّيَ فيها وظائف تخريبية. وحين عرّفته بأمجد وناقشه، بحضور مريم، غيَّر رأيه فيه قائلاً إنه مناضل، ولكنه متذبذب في خياراته وغير حاسم. ومع أن والدي انزعج من مواقف أمجد، التي أعلنها في حواره الصحفي، وخشي من أن تؤدي إلى تقسيم الحركة أو إحداث بلبلة في صفوفها، إلاّ أن ذلك لم يغيّر من عاطفتي نحوه، على الرغم من شدّة تأثّري بمواقف والدي ووالدتي في السياسة.

يخيَّل إليّ، أحياناً، أن أمجد أحسن صنعاً حين قاطع اجتماعاتنا، إذْ وفّر بذلك على نفسه متاعب مواجهة الاعتراضات على مواقفه من الغالبية العظمى من نشطاء الحركة، ووفّر عليّ، أنا أيضاً، الشعور بالحرج من ارتباطي بإنسانٍ لم يعد محطّ إجماع مثلما كان. لكني، أنا التي أعرف مواقفه أكثر من غيري، وأناقشه فيها كلّ يوم، أشعر بأن غيابه عن لقاءاتنا أفقد هذه اللقاءات حرارةً وحيوية لم يكن يَسَعُ غيره أن ينفثها فيها. وأشعر أني أخونُه حين ألتقي مع أفكارٍ أعرف أنها تُضَايِقُه كثيراً. غير أني لا أملك إلاّ الاعتراف بأن أمجد استحق مني الاحترام المضاعَف، احترمْتُه حين تعرفت إليه وأحببْتُه، وتقاسَمْنا المواقفَ عينَها. لكني احترمتُه أكثر حين أدركتُ إلى أيّ حدّ هو ديمقراطيٌّ في تفكيره، وإلى أي حدّ هو حريصٌ على الحقّ في الاختلاف؛ فأنا ما رأيتُه مرّةً، منذ اختلفنا قبل شهر، يحاول أن يثنيني عن موقفٍ اتخذْتُه، أو يبدي لي انزعاجاً منه. يناقشني فنختلف، ثم يقول لي: أتمنى أن أكون مخطئاً يا نبيلة.

لو لم أكن نفسي مَن عاش هذه التجربة من التمزّق في المشاعر لما صدَّقْتُ أن شخصاً يمكن أن يُحِبّ آخر لا يشاطره الرأي. يمكن لمثل هذا أن يحصل في بيئات اجتماعية أخرى، تحكمها العلاقات الذكورية أو

المصلحية الانتهازية، لكن ذلك يصعب تصوُّرُه في بيئتي أنا: سواء البيئة الأُسْرية، أو البيئة الحركية. عمّي مثلاً، الذي اعتُقل مع والدي قبل سبعة وثلاثين عاماً، وقضى في المعتقل السريّ ثلاثة أشهر وأُفْرج عنه قبل محاكمة والدي والحكم عليه بعشر سنوات، انفصل عن زوجته الأولى لمجرد أنها ارتدت الحجاب بعد نجاح الثورة الإيرانية، مع أنها كانت ماويّة قبل ذلك. وأسعد، رفيقي في الحركة، قطع علاقته بصديقته قُدْس، بعد أن بلغه أن والدها اليساري السابق التحق بالحزب التقدمي، حين أعلنت منظمتُه حلَّ نفسها والالتحاق بالحزب. ومريم فشلت علاقة حبّها بأسامة، حين علمت بأنّ أخاه الأكبر عضو في « حزب المساواة والإصلاح». وخالتي رفضت الزواج، قبل عام، من رفيق قديم انتمى حديثاً إلى «حزب الأمس واليوم». أنا وحدي أشذّ عن القاعدة أو عن المألوف، فأحِبُّ الذي بيني وبينه خلاف.

ساورني القلق الشديد من أن يكون شذوذي عن القاعدة والمألوف مظهراً مَرَضيّاً في سلوكي وحياتي النفسية، سألتُ والدتي - التي تعلم عن علاقتي بأمجد بعد أن أخبرتُها بذلك قبلِ شهر - فطَمْأنتني بأن هذا الشعور طبيعيّ لا وجه للشك في سَوَائِه، وأنه أَمَارَةٌ قويّة على صدق مشاعر الحبّ، وأنّ الحبّ الذي لا يُمْتَحن، في مثل هذه الأحوال، فينجو برأسه من المقْصَلة، لا يمكن الاطمئنان إلى سلامته وصحّة معدنه. ولمزيدٍ من التأكيد على حُجِّيةِ رأيها ذكّرتني بأن الخلاف بين حزبها، الذي كانت تنتمي إليه أثناء دراستها في الجامعة، نهاية السبعينات، والمنظمة السرية التي كان ينتمي إليها والدي، أوائل العقد نفسه، كان خلافاً عصياً على التسوية، لأنه يمسّ الجذور، ويتصل بقضية سياسية مقدّسة بالنسبة إليها هي الصحراء المغربية. فلقد كان موقف «الحزب التقدمي»، الذي انتسبت إلى شبيبته في نهاية ذلك العقد، وترشحت على قائمته الطلابية في انتخابات التعاضدية بكلية الحقوق، حاسماً في الدفاع عن الوحدة الترابية، وإحلال قضيتها في صلب عمله السياسي. أما والدي، الذي كان حينها في السجن المركزي

بالقنيطرة، فانتسب إلى منظمة تدعو إلى حقّ تقرير المصير في الصحراء. ومع أنها تعرفت إليه في منتصف الثمانينيات، بعد انتهاء محكوميته وخروجه من السجن، وبعد انسحابها هي من «الحزب التقدمي»، إثر خلاف اندلع فيه وأدى إلى انشقاق داخله في ربيع العام ١٩٨٣، وبعد تراجع الخلاف بين المناضلين في المسألة، إلاّ أنهما ظلاّ على موقفيْهما من القضية متباعديْن، لكن الخلاف بينهما لم يُفسد للودّ قضية. صدّقتُها وتمنيت أن يكون حالي وأمجد كحالها ووالدي.

✤

ستنحفر مسيرة اليوم في ذاكرتي، مثلما انحفرت في ذاكرتي مسيرةٌ تضامنية مع الانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت في الأقصى حين كنتُ طفلةً في السابعة من العمر. أخذتني أمّي وعمتي معهما صباح ذلك اليوم من خريف سنة ٢٠٠٠ إلى باب الحدّ. وضعت أمّي على كتفيّ علم فلسطين، ولفَّت عنقي بكوفية مازلتُ أحتفظ بها حتى الآن، فيما هي كانت تهتف بشعار حفظْتُهُ منذ ذلك الحين وتردَّد في رأسي صداه: «فلسطين عربية، سحقاً سحقاً للرجعية». أما عمتي، فحملت صورةَ رجلٍ ملتحٍ يلفّ رأسه بالكوفية والابتسامة تغمر محيّاه عرفتُ، في ما بعد، أنه ياسر عرفات، وحدثتني عنه عمتي بتفصيل، فأحببتُه على الرغم من أن والدي قال لي إنه أخطأ كثيراً في قيادة الثورة. ولكنه حين مات، أو استُشْهد كما قالت لي أمّي، وأنا حديثة الالتحاق بالثانوية الإعدادية، رأيتُ والدي يذرف الدموع عليه لساعات وهو يتابع خبر وفاته في القنوات التلفزية. شاركتُ مع والدتي، بعد ذلك، في مسيرتين أخريين: واحدة تضامناً مع العراق، قبيل غزوه واحتلاله، وكنتُ في التاسعة من عمري، والأخرى بعد العدوان على غزة، وكنت في الخامسة عشرة من عمري. غير أن المسيرة الأولى ظلت أشدّ دفئاً في نفسي. لن أنسى تلك الحشود من البشر الذين ما تخيلتُ أنهم جميعهم يسكنون مدينتنا إلاّ ذلك اليوم. لم أرَ مثلهم حتى في المركّب الرياضي حين

أخذني والدي يوماً، وأخي غسّان الذي يكبرني بعامين، لمشاهدة مباراة في كرة القدم بين الفريق المغربي وفريق إفريقي. أتذكر أيضاً أن البوليس كان يملأ جنبات شارع محمد الخامس الفرعية، كما كان اليوم تماماً، لكنه لم يهاجم أحداً. كنتُ خائفة جدّاً، بل مرعوبة، لأنني تعلمت الكثير عن قسوة البوليس وبطشه ممّا سمعتُه في البيت من قصص مرعبة عن اعتقال والدي وتعذيبه. اليوم أيضاً لم يتدخّل، لكن وجوده الكثيف كان مستفزّاً ومنفّراً.

الساحة عينُها تجمَّعنا فيها. والشوارعُ عينها جُبْنَاها. والشعارات لم تَكَد تختلف إلاّ في بعض التفاصيل. كأننا نعيد عرْض المشهد نفسِه، كأن المياه البشرية التي تدفقت على نفس المكان، وأنا طفلة صغيرة، ما تزال تتدفق وتحمل في جوفها موجات من أجيال أخرى. ترى هل سنبلغ هدفنا مثلما رسمناه لنا قبل عشرة أسابيع حين بدأنا نرسم الخطوط والأشكال الأولى لهذه اللوحة، لوحة الحلم الجميل، أم سيكون علينا أن نحصل على القليل ممّا خرجنا من أجله مثلما يقول أمجد ويؤكد؟ أتمنى أن يخطئ تقديرُه، كما يقول ـ هو نفسُه- حينما نختلف في الرأي والتقدير، ولكني أرفض أن يُساء الظنُّ به من أحد. من حسن حظي أن والدي لم يُسِئِ الظنّ به، وإنما اكتفى بتَخْطِئةِ موقفه، والإنسان خَطَّاء كما كان يكرّر أستاذنا لمادة التربية الإسلامية حين كنت في الثانوي، والحقائق نسبية كما علَّمنا أستاذ الفلسفة في الباكالوريا قبل عام، وكما يردّد أمجد على الدوام.

- ١٦ -

كان يمكن لحادثة سقوط متظاهر من الحركة برصاص الأمن، في مدينة السردين الكيماوية، أن يُلْهِب عمل الحركة أكثر من ذي قبل؛ ليس مثل الشهادة رأسمال في العمل السياسيّ. لقد فُقِد الفقيد ورُزِء فيه أهلُه ورفاقُه، ولم يكن أحدٌ من الأخيرين يتمنى له أن يغيب. لكنه الآن شهيد، والشهيد يحيى في النفوس والإرادات، ويوضع اسمُهُ وساماً على صدْر من ينتمي إليهم. ثم إن موته برصاص الأمن حجَّةٌ على مَن قتلوه وعلى من أصابوا بالرصاصةِ عينِها، من خلاله، مطالبَ شعبية مشروعة، ومسيرة سلمية حضارية. سيكون القتلة في وضع صعب أمام الناس جميعاً، وأهل المدينة خاصة. وسيكون الاحتجاج ضدّ القتل فرصةً جديدةً لتشديد الضغط والخناق على السلطة. كان يمكن لهذه الحادثة، التي فجّرت الغضب في كل مكان، أن ترفع من مستوى التعاطف مع الحركة، التي استضعفها الأمن، وضاق بها صدرُ السلطة، وامتحنت نوايا الإصلاح عندها، لو لا أنها بدأت تخسر من صورتها كثيراً في مكان ما؛ لو لا استقبال بعض أعضائها لوفد إسرائيلي، لو لا انشغال الوسط السياسي بملامح الطبخة الدستورية عند هذا الحزب وذاك، لو لا تنظيم المظاهرات المضادة وخوف الناس من

الاصطدام بين المتظاهرين، لولا أن بعض المندسين يسيئون إلى صورة الحركة وسلميّتها، كما في المدينة الحمراء، لولا ذلك كلّه، لأمكن استثمار عملية القتل.

هكذا قدّرتْ إيمان المسألة وهي تتحدث إلى أسعد ووليد وجمال وياسر وسليمة وهم مجتمعون في بيت الأخيرة. رفض أسعد نظرتها التشاؤمية إلى أوضاع الحركة مستدلاً بأن نطاقها اتسع في المدن والبلدات الصغيرة، بعد ثلاثة أشهر فقط من انطلاقتها، ومشدّداً على أن الظرف أنسب لتكثيف نشاطاتها. أضاف ياسر أن الحركة غير مسؤولة عن استقبال الوفد الإسرائيلي والتجوّل معه في المعالم السياحية للرباط، لأن التي قامت بذلك ليست من نشطاء الحركة. أما أن الناس شُغلوا بمقترحات الأحزاب الدستورية فأمرٌ لا دليل عليه، كما أن المندسّين يمكن أن يوجدوا في أية حركة اجتماعية، وهم غير مسؤولين عن اختراقهم صفوفَهم، مثلما هم غير مسؤولين عن مظاهرات البلطجية المضادة. وحين عقّبت إيمان على كلامه قائلة إن الحركة لا ينبغي أن تستسهل هذه المشكلات المستجدة، ردّ وليد قائلاً، باستفزاز ظاهر كاد يعكّر الجوّ، إنها تذكّره بمواقف أمجد.

لم تتوقف كثيراً عند عبارات الاستفزاز، تعّودت منه التطاول على الجميع. سلّمت بأن تلك شخصيتُه التي لا يستطيع الخروج من قفصها، وتعايشت معها على مضض. ولكن، إذا كانت سامحت في حقها، فهي لم تكن تغفر له أخطاءه مع الآخرين من رفاقه، خاصة مع من لم يتعوّدوا منهم على أجواء المماحكات الكلامية مثل نبيلة ومريم وحسن وتوفيق. حتى سليمة، التي تبدو متوافقة معه في الرأي، وميالة إلى الاندفاع في بعض الأحيان، تجهر بالبرم من طريقته في المناقشة، ومن خِفّته في الكلام، وإن ظلت تتحاشى الاصطدام به تاركةً لإيمان مهمة وضعه عند حدّه حين الاقتضاء. قالت له مريم مرّةً، مازحةً، إن من عجائب الدنيا أن الحركة بقيت على قيد الحياة موحَّدة رغم وجوده فيها، ردّ عليها بعبارة سمجة

أثارت أعصاب نبيلة: «عليك أن تشكري أمجد الذي سمح لها غيابُه أن تظل موحّدة». وقال له حسن، مرّة، إن سلاطة لسانه لا تقل حدّة عن سياط المخزن، فأجاب بأنه يؤذي من يؤذيه فقط، ويحفظ التوقير لمن مَسَك عنه لسانه. وحين سأله توفيق متى بَدَرَ منه ما يسيء له حتى يستحق منه التقريع في مناسبات كثيرة، ردّ بأنه يؤذيه بمواقفه السياسية الوسطية.

أخذ حسن بنصيحة أمجد بعدم الاصطدام به وتفادي استفزازاته في المناقشة، لأن الانجرار معه إلى المماحكة تسليم له بشرعية أسلوبه في الحوار. حرص دائماً على الترفع عن الردّ، وحين يُجْبَر عليه، يردّ بعفّةٍ وتحضُّر. أما نبيلة، التي شاركت حسن أسلوبه في تجاهله، فالتزمت عدم الرد عليه في مطلق الأحوال، موحيةً له ـ بتقصُّدٍ مكشوف ـ أنه غيرُ موجودٍ بالنسبة إليها، أو أن كلامه لا يعنيها في شيء. ولم يكن توفيق، الذي يُحنِقه وليد، يملك أعصاب حسن ونبيلة، ومع أنه لا يشتجر معه ولا يردّ عليه، إلاّ أن دمه يفور في صمت، وحركة قدميه وأصابع يديه تنشط على نحوٍ غيرِ طبيعي، ووجهه يكفهر، كلما بدأ وليد يتحدث. وحدها مريم تستلطف جنون وليد، وتقبله كحالة إنسانية طبيعية، فتضحك عندما يُعَرِّض بشخصية سياسية، أو عندما يصدر أحكاماً متطرفة، وتمازحه قائلة إنها تثق في تقديره العسكري أكثر ممّا تثق في سلامة موقفه السياسي.

حاولت إيمان كثيراً أن تغيّر من عاداته في الكلام من دون جدوى. يحز في نفسها أنه يملك وجدناً نضالياً استثنائيا، ومبدئيةً في الموقف عزَّ لها مضارِع، لكنه يهدر ذلك كلَّه بمفردات طائشة يلقيها من لسانٍ منفلت من أية رقابة من الدماغ، فيصيب بها رفاقه قبل خصومه. وهي ما برحت تعتقد أن أمجد لم يوقف نشاطه في التنسيقية إلا بسبب تطاول وليد عليه. وهي تخشى أن يحصل الأمر نفسه مع آخرين وأخريات. قالت له مرة: «ألم تسأل نفسك لماذا لا يعترض أحدٌ من رفاقنا على أيّ فردٍ في المجموعة إلاّ عليك؟». أجابها بأن سبب ذلك جذرية خياراته ومبدئيتها ورخاوة مواقف

غيره. قالت إن مواقفه السياسية هي عينها مواقفها ومواقف ياسر وسليمة وأسعد وجمال وآخرين، لكن أحداً لا يحتج عليهم حين يدلون بها، فما كان منه إلاّ أن أجابها بأنه لا يعرف كيف يقمش رأيه بمفردات تمزج بين المبدئية والاحتيال. حدجَتْهُ بنظرةٍ معاتبةً، فانتبه إلى تسيُّب لسانه، فضحك ولم يعتذر.

أصداءٌ وثرثرات

- ١٧ -

لم يتجرّع أمين موقف حزبه وحلفائه من الحركة غداة ميلادها. ظل لفترةٍ يعتقد أن انصرافه عنها، وإبايَتَهُ المشاركة في أولى مسيراتها، سيغرّمه سياسياً، وجادل في أن موقف شباب الحزب ينبغي أن ينحاز إلى الحركة، ليس إنقاداً لصورة الحزب، وإنما لأنه لا يملك أن يعزل نفسه عن شبابٍ ديمقراطيّ ينزل إلى الشارع. «حسابات شباب الحزب لا ينبغي أن تطابق حسابات الحزب في هذه المرحلة»: هكذا قال لسفيان، وهو يحاول إقناعه بتبنّي موقفٍ مستقل، والعمل قصد حَمْل قيادة الحزب على تفهُّمه، إن لم يكن لديها الاستعداد لمباركته. شكّك سفيان في أن تقبل القيادة موقفاً من هذا النوع، لأن ذلك يحرجها كثيراً مع السلطة، وهي لا تودّ أن تضع نفسها موضع شكّ من أحدٍ في هذه الظروف. لكن إلحاح أمين وآخرين سرعان ما أثمر موقفاً مبايِناً لموقف القيادة، فسكتتْ عنه هذه مرغمةً، أو أرادتْه خطّاً آخر مفتوحاً مع التطورات والمفاجآت.

يتذكر الآن كمْ كلّفه الدفاع عن موقفه من ثمن داخل الحزب، حتى قيل إنه يفتح لحسابه رصيداً سياسياً خاصاً، مستثمراً الظرفية الجديدة، والحماسة الشبابية المشتعلة في الرؤوس والنفوس. ولولا أن غالبية شباب

الحزب خامرتهم المشاعرُ عينُها التي غمرته، وانجذبت إلى فكرة الانضمام إلى مبادرات الحركة، وإشهار مساندتها، لما أمكنه أن يَلْقى تأييداً من أحدٍ من قادة الحزب، ما خَلاَ بعض التواطئ الصامت من مُرَاد.

راقب، في البداية، وبكثيرٍ من الحسرة، كيف أن شباب «الإقساط والبرّ» يجاهرون بالتأييد للحركة، وبمشاركتها نشاطاتها، على الرغم من أنهم لا يقاسمون نشطاءَها الأفكار عينَها. «نحن أوْلَى بأن نكون هناك، كان يقول، فالسلالة الفكرية تجمعنا. ولو كنّا شريكاً، لكان على شباب «المقدمة» و«الطريق القويم» و«حزب التحالف» أن يعودوا إلى حجمهم الطبيعي. أو، على الأقل، كان في وسعنا أن نشكل، نحن وإياهم، قاعدة سياسية محترمة للحركة». أخبره مُرَاد أنه على اتصالٍ باثنين من نشطائهم في الرباط، أحدهما، واسمه توفيق، نشط لفترة قصيرة في صفوف شبيبة الحزب. أمّا الثاني، واسمه أمجد، فتعرّف إليه منذ ثلاث سنوات في المنظمة الطلابية، وهو يبدو الأهم من بينهم جميعاً، وأفكاره منفتحة وليس فيها ميول إقصائية كالباقين.

ـ هل يُبدي استعداداً لشراكتنا؟ تساءل أمين.

ـ يدافع عن ذلك وسط رفاقه، ويدور بينهم نقاش في الموضوع على ما أخبرني.

ـ في كل حال، نحن لا نستأذن أحداً في العمل، يكفينا أن نحسم أمورنا مع قيادة الحزب.

ـ هذا صحيح، ولكن لن نفيد كثيراً من مجرد المشاركة في مبادرات الحركة، إن لم نكن طرفاً في التنسيق مع نشطائها أُسوةً بغيرنا.

ـ ولكن ماذا لو أن نقاشاتها لم تُسفر عن موقفٍ إيجابي تجاه علاقتنا بها؟

ـ لا تَنْس أنني على اتصال مستمر بأمجد، وهو ـ للأمانة ـ يدافع عن علاقة الحركة بحزبنا وبـ «حزب التحرير» أيضاً.

ـ هذا عين العقل، وهو من مصلحة الحركة كما هو من مصلحتنا، فوجودنا يوسّع من قاعدتها.

ـ يعتقد أمجد أن علاقتهم بنا ستؤمّن قاعدة أمان للحركة، ستكون في حاجة إليها في المرحلة القادمة.

✤

يتذكر ذلك كلَّه اليوم. يتذكر كيف تَجَنَّد شبابُ الحزب للمشاركة في تظاهرات الحركة، في مدن عدّة، وكيف احترموا قواعد المشاركة التي فرضها نشطاء الحركة، فلم ينتهكوها، مثلما فعل آخرون، من دون أن يُحتجّ عليهم؛ أيَّ صراعٍ خاضوه حتى يسلّم الحزب بحقهم في استقلالية الموقف وحرّية المبادرة. لكنه فُجِع، مثل كثيرين من شباب الحزب، بالمواقف الباردة لنشطاء الحركة منهم، وبما يَهْمس به بعضُهم. وحين انتبه، متأخراً، إلى أنه يطبخ الحصى في رهانه، فترت حماسته للاستمرار في الدفاع عن صلةِ لشباب الحزب بحركةٍ بدأتْ تبدو له أنها ليست للجميع. فاتَح مراد في هواجسه، فما كان من الأخير إلاّ أن صَرَفه عن سوداوية رأيه قائلاً:

ـ دَعِ الاعتبارات النفسية، جانباً، وانظر إلى المسألة من الوجهة السياسية. لم ترتكب الحركة أخطاء سياسية بعد، ما زالت تطالب بما نطالب به من إصلاحاتٍ ديمقراطيةٍ ومحاربةٍ للفساد، ولكن بطريقتها الخاصة. حين تحيد عن هذه الأهداف، يمكن ساعتئذ أن تيأس منها.

ـ لكنها تتصرف وكأنها وحدها تملأ ميدان النضال، وكأن الحزب ليس في الصورة، بل هي تحمّله وحلفاءَهُ مسؤولية الأوضاع القائمة في البلاد.

ـ لا تنس، يا أمين، أن حزبنا في الحكومة منذ ثلاث عشرة سنة متعاقبة.

ـ لكنه لا يحكم.

ـ وهذه أعظم المصائب، ماذا يفعل في الحكومة إذن؟

ـ لكن قيادة الحزب هددت بالانسحاب، وكان لقرارها أثر في التعجيل بالإصلاحات.

ـ لا تصدّق قيادتك كثيراً، لم يعجّل بالإصلاحات سوى الخشية من مجهولٍ أرهصت به الحركة.

ـ أراك متحمّساً لها أكثر من المعتاد، مع أنك من أكثر مَن أعرف من المعتدلين في الحزب.

ضحك مراد وقال:

ـ صحيح، أنا معتدل. ولكن مطالب المعتدلين لا تتحقق دائماً بالاعتدال.

وَصَل سفيان حين همَّ بسؤاله، ولم يَطُل بهما الخروج عن الموضوع، حتى استفسر عن معنى قوله إن المعتدلين لا يحققون مطالبهم بالاعتدال دائماً. تجاهل سؤاله، أو هكذا خيّل إليه في البداية، حين قال:

ـ اسمع، الحركة حاجة نضالية كبيرة اليوم، لا ينبغي التفريط بها.

ـ لا أخالفك في هذا، ولكنها ليست وحدها معقد الرهان. وفي كل الأحوال، أنا لم أفهم قصدك من الاعتدال الذي قد لا يتوقف على الاعتدال. هل تعني أن الحركة...

ـ لقد أجبتُك بأنها أضحت حاجة نضالية ماسة، دعني أقول إنها كذلك بالنسبة إلى عملنا في الحزب: أصبحت حاجة ماسة لا غنًى لنا عنها في هذه المرحلة. تكلّم سفيان بغير قليل من الاحتجاج الصامت:

ـ أنت تعطيها أكثر من حجمها.

ـ لعلّي ما أنْصَفْتُها في قولي بما يكفي.

قال سفيان بتضايق شديد:

ـ هل وصل الأمر بحزب تاريخي كبير إلى أن يحتاج إلى أولادٍ صغار يخدمون قضيته.

ـ تذكّر أن هؤلاء الذين تسميهم «أولاداً صغاراً» يطلب الجميع، اليوم، ودّهم؛ مَنْ لديه طِلْبَةٌ لا يَقْوى على تحصيلها وَضَع بَيْضهُ في سلّة الحركة وغازلها. مَن كان يحْلُم بقسمةٍ عادلةٍ للسلطة، وخانهُ ضَعْف الحيلة مثلنا، يريدها بكل جوارحه، وإن أمسك عن تأييدها باللسان. ومَن قَلّت موازينُه في السياسة والتمثيل، اشترى ودّها بالكلام المعسول والقُرب والمجاورة. ومَنِ ابتغى لساناً جديداً للدولة، وضع لسانه تحت تصرّفها. ومَن رام التشفي في خصومه السياسيين وإنزالهم منزل المقدوح فيه والمشنَّع عليه، حرّضها عليهم من وراء حجاب. ومن خاف جانبها وخشي لسعة شعاراتها، رَكِبَ موجتها من بعيد. لا تصدّق أن أحداً غيرها، في هذا البلد، يملك أن يصيب السلطة بالأرق والمخافة. إنها نحن، حين كنّا نحن، ولم نصر إلى ما نحن عليه الآن. إنها أسنانُنا وأظافرُنا اليوم، ومن دونها نحن حيوانات أليفة مروّضة بين جدران محروسة. أظنك الآن فهمت قصدي بالقول إن الحركة حاجة بالنسبة إلينا، حتى وإنْ أحجمنا عن البوْح بذلك من باب المكابرة.

بدا الضيق شديداً على سفيان، وهو يتابع كلام مراد، لكنه لاذ بالصمت، فيما عقّب أمين:

ـ إن أخذنا بفرضيتك، فإن الأمر سيان: تعاملنا معها أو تجاهلناها.

ـ هو كذلك في النتائج، لكنه يختلف في نسبة المكاسب العائدة إلى الشريك وغير الشريك.

- وماذا لو كانوا في غنى عن شراكتك وتقصّدوا تحسيسك بذلك؟

- الشارع فضاء عمومي، يا أمين، لا يملكه أحد. إنْ نزلْتَ إليه يَوْمَ ينزلون، فأنت لا تُشَايِعُهُم أو تَهْزج لهم، وإنما أنت تؤدي دورك في المطالبة بحقوق تؤمن بها. عليك أن تشكرهم لأنهم يفتحون لك طريق النزول إلى شارع لم تَعُد تنزل إليه إلاّ متفسحاً أو قاصداً غرضاً من أغراضك. الشراكة هنا في القضية والعمل لا في القرار والتنظيم. دعهم يرمقونك بنظرةٍ جانبية ولا تَختبط. سيحترمونك غداً لأنك كنت معهم. والأهمّ من ذلك لأن ما ستحرزه من مكاسب سوف لن تكون عالةً فيه على غيرك.

- قليل من المناضلين مَن لا يزال متحمساً لمشاركة الحركة نشاطاتها، لن يقتنع أحدٌ برأيك. قد أستحبُّه شخصياً إن أَدَرْتُه في رأسي، لكنه لا مكان له في نفسي.

- ألم أقل لك إنك تُحكّم الاعتبارات النفسية في موضوع سياسيّ صرف لا مكان فيه لغير أخلاق السياسة.

ردّ سفيان بشدة متسائلاً:

- وهل من أخلاق السياسة أنه بات على الحزب أن يقتنص، سياسياً، فرصاً يفتحها له آخرون؟

- وماذا تكون السياسة إن لم تكن اغتنام الفرص؟ هذه غابة، فيها الأُسُود والضواري، وفيها الذئاب والثعالب، وليست مدينة فاضلة يحكمها العقل والفضيلة.

- كأنه لا يعنيك في شيء أن تركب موجة الحركة فقط لأنها ستصل بك إلى اليابسة بصرف النظر عن أي مبدأ؛ قال سفيان.

ردّ مراد مبتسماً:

- لاحِظْ أن الغاية والوسيلة، هنا، متجانستان، الغاية أن نصل إلى إصلاحات ديمقراطية والوسيلة حركة ديمقراطية، فأين المشكلة؟

ـ المشكلة في أن الأداة ينبغي أن يكون الحزبُ وحلفاؤه؟

ـ وماذا لو أن حزبي وحزبك تَعِبَ، وارتخت عضلاتُه، ولم يعد مستعدّاً للتضحية . . . حتى ببعض التمثيل والهزيل في الحكومة؟! ثم أنت لماذا لست راغباً في تقبُّل تعريفٍ موضوعي للحركة ككائنٍ سياسي من نَسْل الحزب وتاريخه؟ نشطاؤها ليسوا منّا، أعرف هذا، لكن أفكارهم نشرناها في البلد منذ أربعين عاماً وتبنّوها، وهذه مفخرة لنا تدفعنا إلى أن نشكرهم لا أن نَنْفِس منهم.

ـ ولماذا أَنْفِس من حركةٍ عابرة في البلد؟ أنا أجادلك فقط في اعتبارك إياها بديلاً من الحزب والقوى الديمقراطية.

ـ لا تضع على لساني ما لم أفُه به، قلتُ إنها أجرأ وأفعل وأقدر. وهي، شئتَ أم عاندت، تحمل برنامجاً هو برنامجنا الذي لم نشقّ طريقاً لتحقيقه.

تدخلتُ في الحديث لتطريته ممازحاً مراد بالقول:

ـ أنت هنا مع الحركة كهارون الرشيد مع سحابة بغداد التي لم تضع حمولتها في حاضرته، فقال واثقاً: اذهبي حيث تشائين، فَأَنّى أمطرْتِ سيأتيني خراجُك.

ضحك مراد وأردف:

ـ ما دمتَ فتحتَ هذه السيرة، دعني أقول لك إن كل هذه الثورات العربية التي تراها اليوم، وتتابع وقائعها مبهوراً بما فعله الشباب فيها، ستنتهي إلى غير أهلها. لقد صنعها هؤلاء، لكن الذين سيحصدون نتائجها غير الشباب.

ـ من تعني؟

ـ تلك الأحزاب التقليدية التي يتندرون بها هي التي ستجني الثمار لأنها، ببساطة، ذات برنامج سياسي وتنظيم.

ـ عدتَ إلى التمسُّك بالحزب إذن؟

ـ لم أبرحه، لكنك بطيءُ الفهم.

وضحكنا . . .

- ١٨ -

عَلِم توفيق، متأخراً، أن شهبون، ابنَ حيّه وزميلَه في المدرسة الثانوية سابقاً، الملتحقَ حديثاً بالمدرسة الوطنية للإدارة، انضم إلى «حزب الأمس واليوم». عرف ذلك منه بمحض الصدفة، مساء أمس، حين التقاه، بعد فترة انقطع فيها حبل الاتصال بينهما بسبب انتقال عائلة شهبون من حيّ تابركت في سلا إلى حيّ السلام في الربيع الماضي. التقيا في مجلس عزاء بمناسبة وفاة والد صديقهما المشترك عُمَر. غادرا سُرَادق العزاء، لحظةً، كي يدخّنا، وهناك تجاذبَا الحديث. سأله شهبون إن كان ما يزال ينشط في صفوف شبيبة «الحزب التقدمي»، فأجابه بأنه توقف، منذ مطلع الصيف الماضي، لأنه لم يعد مقتنعاً بجدوى العمل الحزبي، ثم لم يلبث أن تذكّر بأن شهبون توقّف قبله عن المشاركة في نشاطات الشبيبة عينِها، لكنه أحجم عن سؤاله عن السبب.

بادرهُ شهبون بالقول:

- لا أوافقك الرأي بأن العمل الحزبي لم يعد مجدياً.

وجد في كلامه عن الحزبية فرصةً لسؤاله عن توقفه عن النشاط في شبيبة الحزب. تساءل في ما يشبه الاستغراب:

ـ كيف يكون هذا رأيك في العمل الحزبي فيما أنت انصرفتَ عن العمل في الشبيبة منذ عامٍ ويزيد؟!

ـ لأن الحزب الذي وراءها لم يَعُد يروقني العمل فيه.

ـ إذن، فأنت مستقل مثلي؟

ـ لا، أنا مُنْتَمٍ.

ـ لاشكّ أن هَوَاكَ اليوم مع اليسار.

ـ الحزب الذي أنتمي إليه الآن ليس يسارياً، بالمعنى المتعارف عليه، لكن كثيراً من مؤسسيه يساريون.

ـ من تقصد؟

ـ «حزب الأمس واليوم».

فوجئ بالخبر، لكنه تَمَالكَ نفسه قائلاً:

ـ لكن برنامجه، في ما أعلم، ليس يسارياً.

ـ قلتُ لك إنه حزباً يسارياً بالمعنى المتعارف عليه. ثم دعني أسألك: ماذا قدّمتْ أحزاب اليسار للبلد حينما استلمتِ الحكومة منذ ثلاثة عشر عاماً؟

ـ أية أحزاب؟

ـ أحزاب الجبهة.

ـ ليس فيها من حزب يساريّ إلاّ «الحزب التقدمي». أمّا «حزب التحرير» فليس يسارياً، وهو لا يدعي ذلك، بل حزبٌ وطني معتدل. ولقد غادر «حزب الفصول الأربعة» موقعه اليساري منذ ردح طويل من الزمن. واليوم، لك أن تجادل حتى في يسارية «الحزب التقدمي».

ـ ها أنت توافقني على أن العناوين الإيديولوجية لم تعد تعني شيئاً، في عالم اليوم، وأن الحزب الجدير بالوجود هو الذي يملك الطاقات

والقدرة على الإنجاز. لقد مللنا من التوزيع الإيديولوجي للقوى: يمين ويسار، ونسينا أن السياسة سياسة، لا عقيدة لها سوى المصلحة العامّة.

ـ وهل يؤمن الحزب الذي تنتمي إليه بهذه العقيدة؟

ـ طبعاً، إنها المبدأ الذي أسَّسه وبرّر وجوده.

ـ ولكن، لماذا احتاج إلى وجوه يسارية حتى يوجد؟ هل...

أوشك أن يقول متسائلاً «هل من أجل أن يَنْعَم ببرَكةِ اليسار؟»، لكنه أحجم، في اللحظة الأخيرة، متفادياً المواجهة.

ـ لا غرابة في الأمر إن كان مناضلون يساريون يحملون هذا الوعي الجديد، بل دعني أقول إنهم هُمْ مَن حَمَلَه، ودَفَع باتجاه تأسيس الحزب.

ـ لكن ما أعرفه هو أن دور هؤلاء هامشيّ ودِعَائيّ لا أكثر، وأن أهل السلطة والمال هم أهل الحلّ والعقد فيه.

ـ أنت لا تعرف شيئاً عن الحزب، والأرجح أن معلوماتك عنه مستقاة من الخصوم، أو من صحافة الرصيف المسمّاة مستقلة.

ـ أنا أحترم اقتناعاتك، لكني لا أملك أن أتجاهل الحقائق الفاقعة.

ـ أية حقائق؟

ـ أن الحزبَ حزبُ السلطة.

ـ من قال هذا؟

ـ الرأي العام.

ـ أيّ رأي عامّ؟ هذا كلام غير مسؤول لحاقدين كثر، على رأسهم الإسلاميون، وجماعات الحركة المخدوعين الأغرار.

فار الدّم في أعصابه ورأسه، لكنه تمالك نفسه قائلاً:

ـ أعتقد أنك متحسّس من شعارات الحركة المناهضة لرموز حزبك.

ـ لماذا أتحسس من تفاهات مراهقين؟

- لكن هؤلاء «المراهقين» يحظون باحترام الشعب ويتحدث عنهم العالم أجمع.

- أرجو أن لا تكون منهم.

- ليتني كنت منهم، فهذا شرفٌ لا أدعيه.

- من الأفضل أن نتوقف هنا.

- من الأفضل، فلقد أطلنا المكوث خارج السرادق.

✤

كان يمكن أن يشعر بالإحباط من رؤيةِ صديقٍ قديم ينحدر، لولا أن الظروف باعدت بينهما حتى كاد أن ينساه. عامٌ وبعضُ العام مرَّ على آخر لقاءٍ بينهما، مع آخرين، في اجتماع الشبيبة. من حينها اختفى شهبون. وحين سأل عن سبب انقطاعه عن الاجتماعات، قيل له إنه يبحث لنفسه عن موقع أفضل للوصول. لم يسأل عن التفاصيل كثيراً، لكنه لم يصدّق أن يكون مثلما وصفه له الإخوان؛ فشهبون، الذي سبقه إلى الانضمام إلى الشبيبة بأشهر، من خلال ابن عمّه الحزبيّ العريق، هو نفسه من أقنعه بالانضمام إليها، وهو من قدّمه إلى مناضليها. ويذكر أنه أوّل مَن حدّثه في السياسة، وأعطاه كتباً سياسية للاطلاع. الآن فقط يدرك أنه أحسن الظن به كثيراً حين استهجن تعليقات أصدقائه قبل عام، وأبى تصديق ظنونهم. هل يمكن للإنسان أن يتغير بهذه السرعة؟ ولم لا، إذا كان هناك من يقدّم له المثال من السابقين.

✤

لاحظ شهبون، أثناء عودتهما إلى سُرادق العزاء، وقد جلسا متباعدَيْن هذه المرة، كيف يحظى توفيق باهتمام أهل الحي، وكيف تتقاطر عليه التحايا والمصافحات. في لحظةٍ، انتبه إلى أن اثنين من المستشارين الذي

حضروا المأتم، نَهَضَا من المكان الذي اقتعداه واتجها صوبه مصافحيْن، فأوسع لهما الجالسون مكاناً بقربه، ثم ما لبث أن انخرطا معه في الحديث. بَدَا له توفيق وكأنه ابن الفقيد الذي يتلقى العزاء من فرط ما صوفح من دون الناس جميعاً. أيّ مكانة هذه التي أصبحت لابن الإسكافي الذي لم يكن أحد ينتبه إلى وجوده، والذي كان يحمل أحذية أكثر هؤلاء الجالسين في السرادق ليأخذها إلى والده، القابع في ركن يقع في شَقٍّ بين بنايتين، كي يصلحها ثم يعيدها لهم؟! ما الذي تَغَيَّر في الحيّ حتى يصبح ابن الإسكافي أحظى بالاهتمام والتَّجِلّة من ابن أستاذ الثانوي؟ هل عَلاَ شأنُه لأنه وصل إلى الجامعة؟ لكنه، هو أيضاً، في الجامعة. وقد يصبح غداً قائداً ممتازاً في منطقة إدارية ما، أو عاملاً، أو والياً، بمساعدة وجهاء القوم الذين تزدحم بهم جنبات الحزب. لقد اختار المدرسة المناسبة للوظيفة المناسبة، وحَجَزَ مكانه، منذ الآن، في السلطة في انتظار تيسير الأسباب وتحسين الشروط. أمّا توفيق، فليس له من أفق سوى التعليم الثانوي. وحتى على فرض أنه قد يكمل دراساته العليا، وهو أمْر مظنون لأن عليه مساعدة أسرته الفقيرة، بل المعدمة، فإن أستاذ الجامعة، الذي قد يصبحه، بعد سنوات طوال لا يساوي مكانة عامل إقليم، أو حتى قائد ممتاز. وبعد فترة ـ قد لا تطول كثيراً ـ ربّما تَرَشّح للانتخابات، هنا في الحي، وضَمَّ توفيق إلى فريق حملته، وأصبح مستشاراً، أو رئيسَ جماعةٍ محلية، أو نائباً في البرلمان. حينها سيتسابق هؤلاء المنافقون الجالسون هنا إلى تهنئته وشراء ودّه. لا، لن يترشح في هذا المكان المليء بالجاحدين، سيختار دائرة يليق سكانُها بمقامه.

كان ما يزال سادراً في شريط تداعياته حين وقف أمامه عبد السلام مهلِّلا. صديق الطفولة والصبا، وزميل المدرسة الابتدائية والإعدادية، وحده الذي انتبه إلى وجوده، وسط ذلك الحشد من المعزّين، فأتى يسلّم عليه. لم يريَا بعضهما منذ غادر الحيّ قبل عامٍ ونصف، وقبل ذلك، لم يكن

بينهما تواصل كبير، بعد انقطاع عبد السلام عن الدراسة، في بداية المرحلة الثانوية، وتفرغه للتجارة في متجر للأدوات الكهربائية يملكه عمه في شارع الحسن الثاني، قريباً من مبنى القنصلية الفرنسية. استعادا بعض الذكريات المشتركة وتَبَادَلاَ السؤال عن الأحوال، ثم انتحيَا جانباً، خارج السرادق، بعد أن علت أصوات المقرئين ولم يعد ممكناً سماع شيء.

سأله عبد السلام إن كان رأى أحداً من أصدقاء الحيّ، فردّ بأنه لم يَرَ غير اثنين أو ثلاثة منهم توفيق، مستدركاً بالقول إنه رأى آخرين من بعيد. لم يشأ أن يقول إنه كان ينتظر أن يأتوا لمصافحته، لا أن يبادر هو بذلك، لئلا يفهم الأخير أنه ما كان ليجالسه لولا أنه بادر بالسلام عليه. اغتنم فرصة الحديث عن أصدقاء الحيّ ليسأل عن مآل كل واحد منهم. حدثه عبد السلام باستفاضة. ثم سأله بخبث أخفاه في الاستفهام:

- وتوفيق؟

- ألم تقل إنك رأيته؟

- رأيته وتحدثنا باقتضاب، ولم أسأله عن التفاصيل، ولا أعلم عن أمره سوى أنه التحق بالجامعة.

- لا هذا قليل، لقد أصبح زعيماً سياسياً.

- زعيم سياسي؟ كيف؟

- إنه من النشطاء الكبار للحركة.

- منذ متى؟

- منذ تأسست قبل ثلاثة أشهر؟

- ماذا تقول؟

- أقول ما أعرفه، وما يعرفه أهل الحي جميعاً. ألم تره في مسيرات الحركة في الصفوف الأمامية في باب الحدّ وشارع محمد الخامس.

ـ ليس لديّ وقت للفرجة.

ـ ظننتُ أنك ستكون معهم، مع توفيق وحسن. هل تذكر حسن الذي كان يشاركنا في مباريات كرة القدم مع ابن خالته حين يزور سلا؟

ـ أذكره، كان يقطن في حسّان.

ـ أصبح هو الآخر من زعماء الحركة.

ـ أراك توزّع عبارة الزعامة على كلّ من هبّ ودبّ.

ـ لاشك في أنك لا تعرف، يا السّي شهبون، مكانة توفيق اليوم في نفوس أهل الحي. لو ترشح للانتخابات مع أوباما في دائرتنا لَسَحَقَه.

لن أترشح في هذا الحيّ البائس الذي يرفع قيمة الوضيع ويبتخس قدر الرفيع. لِيَهْنَأوا بتوفيق وأمثاله ممّن خُلقوا على مقاسهم، ولأبحث لنفسي عن الفضاء المناسب لي.

ـ وهل مازال أبوه يشتغل إسكافيا؟

ـ مازال مثلما عرفته.

ـ وكيف يسمح لنفسه بأن يستمر والده في هذه المهنة الوضيعة؟

ـ ضحك عبد السلام بتضايق واستدرك:

ـ ليست وضيعة، على كل حال، وقد فاتح أحد وجهاء الحيّ، وأحد المستشارين، توفيق في الموضوع، واقترحا عليه مساعدة الوالد في استئجار دكان صغير يبيع فيه البضائع التي يشاء، لكنه رفض العرض بشدّة.

ـ غبيّ...

ـ هل تعرف ماذا كان ردّه.

ـ ؟

ـ قال إنه تعلّم بتلك الدريهمات القليلة التي كان يكسبها أبوه من حرفته، وأمه من بيع أقراص الخبز، وهو يفتخر بذلك، ولا يستطيع أن يقنع والده بتغيير مهنته. وهو يوم يستطيع أن يَعُولَهُ، سيطلب منه حينها أن يتوقف عن العمل.

بدا الامتعاض شديداً على وجه شهبون. رغب عن المزيد من الحديث في الموضوع، وشعر بالحاجة إلى الاختلاء بنفسه. ودّع عبد السلام، وطلب منه أن يبلّغ عمر اعتذاره عن عدم البقاء طويلاً، لأنه مضطر للعودة إلى البيت لتحضير نفسه لامتحانات الغد الجزئية.

- ١٩ -

يتذكر ياسر كم كان يبدو له خالُه رجلاً جديراً بالإعجاب. كان ذلك قبل سبْع سنوات أو ثمان، وهو في الإعدادي يباهي زملاءه من التلامذة به، كلّما نشب بينهم تفاخُرٌ بالأهل. كلّ شيء في خاله كان يعجبه: وَسامتُه، أناقته الباذخة، شعَيْرات الشيب الزاحفة على سواد شعره، طلاقته في الحديث بالعربية والفرنسية، سيارة المرسيدس الفارهة التي يملك، ثم الفيلا الفخمة التي يقطنها في حيّ السويسي. هو الرجل المثالي بالنسبة إليه، الذي قد لا تجد مَن يناظره إلاّ في المسلسلات المكسيكية والتركية. ومع أنه لم يَرهُ كثيراً إلاّ في مناسبات قليلة، تُتَبادَل فيها الزيارات كالأعياد الدينية، أوحينما تأتي جدَّتُه لأمّه - المقيمة مع خالته في فاس - إلى الرباط، فتتقاسم الإقامة بين بيت ابنتها - أمّه - وابنها، فيحصل حينها أن يرافق والدته إلى بيت أخيها في السويسي لزيارة الجدة، إلاّ أن المناسبات القليلة التي رآهُ فيها، وخاصةً في بيته، أقنعته بأنه أمام رجُلٍ مميَّز، لا يمكن للعائلة إلاّ أن تفتخر به.

لم يكن يفهم لماذا يكره والدُهُ خالَهُ، أو على الأقل، لا يطيقه أو يستطيبه. اعتقدَ مرّةً أنه يحسده لأنه ناجحٌ وثريّ وحين سأل أمَّه عن سبب

الجفاء بينهما، وعن امتناع الوالد عن مرافقتهما إلى بيت خاله، أجابت أن بينهما خلاف سياسيّ، لكنه لم يفهم شيئاً مما قالت. وحين سألها، ببراءة طفولية، من تحبّ أكثر من الآخر: زوجها أم أخاها، ضحكت وقالت: أحبُّك أنت أكثر منهما، فأعجبه جوابها، وقنع به ولم يطلب المزيد.

عرف، في ما بعد، خلال انتخابات البرلمان، قبل أربع سنوات، وكان في السنة الثانوية ما قبل الأخيرة، لماذا لم يكن والدُهُ يطيق خاله؛ فلقد ترشح الأول على قائمة «حزب الخواصّ» الذي شكّلته السلطة منذ ثلاثين عاماً، غداة عودة الحياة السياسية إلى مجراها. تفاجأ بالخبر، ولم يكن قد سأل والده أو أمه من قبل عن الانتماء السياسي لخاله. وحين استفسر عن أسباب تورطه في الترشح على قائمة حزب يميني، أجابته والدته بأنه انضم إليه منذ عشرين عاماً، وأنه لم يكن كذلك في بدء شبابه في سنوات السبعينيات، حيث انتمى إلى «حزب الفصول الأربعة». قرّر ياسر، منذ ذلك الحين، أن لا يراه إن زار البيت، ولا أن يرافق والدته إلى فيلاّه بالسويسي حين تكون جدّته هناك، وأن يلوذ بموقف والده تجاهه. وحين سألتْهُ أمّه مرّةً أن يرافقها إلى بيت خاله ليرى جدته ـ وكان يتهيأ لامتحانات الباكالوريا ـ ردّ بأنه مشغول بالتحضير للامتحانات، وأنه ينتظر أن تأتي الجدة سريعاً إلى البيت كي يراها. فضّل أن يلجأ إلى عذر الامتحانات حتى لا يجرح مشاعر أمّه حين يقول لها ـ مثلما فكّر في ذلك في البداية ثم تراجع عنه آخر لحظة ـ إنه قَتَل خاله في داخله.

كاد أن ينسي سيرته حين فاجأتْه والدتُهُ، مساء أمس، بإبلاغه رغبة خاله في رؤيته. وطلبت منه أن يلبّيَ دعوته إليه، طالبةً منه أن يكون ودوداً معه، وأن يقيم له الاحترام الواجب. سألها عن سبب الدعوة ومناسبتها، فأجابته، بودّ وديبلوماسية، أن الأهل لا يبحثون عن سبب للّقاء بينهم. قال لها، بمكر، إنه سيفاتح أباه في الموضوع ويأخذ رأيه فيه. نظرت إليه بعتابٍ صامت، لم تُخْفِه عيناها، وتساءلت:

ـ متى كنت تستشير أباك في ما تفعله؟

أجاب بخبث:

ـ في أموري الخاصة لا أفعل، لكن أمراً عائليّاً مثل هذا لا ينبغي أن أتجاهل رأي أبي فيه.

ـ هل سيمنعك أبوك من رؤية خالك؟

ـ قطعاً لا.

ـ ما الداعي، إذن، لأخذ إذنه؟

ـ لم أقل لك إني سأستأذنه، ولكن سأخبِرهُ وآخذ رأيه.

ـ ألا يكفيك رأيي؟

ـ حاشا، ولكنك تعرفين موقف أبي من أخيك.

ـ من أخيك؟

ـ عفواً، من خالي.

ـ وأنت ملزمٌ برأي والدك؟

ـ ليس تماماً، لكنني لا أعدم فيه الوجاهة.

قالت في عبارات فَهِمَ منها أنها تريد أن تحسم الموضوع.

ـ في كل حال، هو خالك. ومن الأدب ألاّ تردّ دعوته، وأنت حرّ، وعقلك في رأسك.

توقّع أن تلح كثيراً، وأن ترجوه عدم مفاتحة أبيه، لعلمها بأنه سينصحه بعدم رؤيته، لأن أباه ـ مثلما تقول عنه دائماً ـ متطرّف في أحكامه مثل ابنه. هكذا كانت تقول له كلما جادلتْهُ في حكم من الأحكام القاسية، التي يطلقها على الناس، على الجيران، والسياسيين، والأساتذة. وكان يطيب له أن يضحك من تفسيرها لتطرفه ويعلّق: «مَن شَابَه أباهُ فما ظلم»، فلا تلبث

أن تؤيده في التسليم بالشبه بينهما، وبفضيلة الاعتراف عنده. أخبرتْهُ مرةً أنّ حظّها سيء معه، ومع انتظاراتها منه، منذ ولد؛ سمَّتْهُ ياسر تيمناً باسم عرفات. وبعد سنوات قليلة من ولادته، أتى أبوهُ يؤاخذها على التسمية بدعوى أن عرفات «فرَّط» بالقضية ووقّع «اتفاق أوسلو». وأخبرتْه أن أباه كان يفضل أن يسميه كارلوس، لولا أنّ ذلك تعذّر عليه إداريّاً، وأضافت ـ بهِزء ـ أن كارلوس، القابع في سجنه الفرنسي، منذ سلّمه عمر حسن البشير السوداني للفرنسيين، أكثر واقعيةً واعتدالاً منه ومن أبيه. وأملت في أن يحصل على العلامات الكافية للتسجُّل في القسم العلمي في الثانوي، لكنه تراخى في الرياضيات والفيزياء فرُمي به إلى القسم الأدبي. وراهنت على أن يلتحق بكلية الحقوق، فالتحق بالآداب، واختار التاريخ والجغرافيا. هكذا كانت تجادله دوماً في مزاجه وخياراته فتُخَطِّئُها وتَنْسُب أسبابَها إلى والده. اليوم تبدو غير مستعدّة للمجادلة. أبلغَتْه وتركتْهُ يختار بنفسه. تذكّر شيئاً، فَاتَه سؤالُهَا عنه، قبل أن يغادر البيت، فعاد يسألها:

ـ لماذا يريد أن يراني؟

ـ أجابته وهي تصطنع اللامبالاة:

ـ لا أدري، اسأله.

ـ إذن، عليكِ أن تستفسريه أولاً في موضوع اللقاء قبل أن أقرر إن كنت سأراه أم لا.

فغرت فاها وهي تستمع إلى «شروط الخُزَيْرات» التي يلقيها عليها، ثم قالت:

ـ مَن تَحْسب نفسك أيها البزقول؟

أجابها ضاحكاً:

ـ بزقول وشريف، وليس في كرشي عجين كبعضهم.

ـ قذفتْه بشبشبها فغادر مقهقهاً.

حين جاءها، في اليوم التالي، يخبرها أنه موافق على لقاء خاله ـ بعد أن استشار والده وأشار عليه برؤيته ـ وأنها تستطيع إخباره بأنه مستعدّ لاستقباله في البيت، أو لقائه في المقهى، في الوقت الذي يشاء، انزعجت انزعاجاً حادّاً من تطاوله وفظاظته، وأمطرتْهُ بوابلٍ من عبارات التأنيب على مسلكه غير الأخلاقي. قال لها بغير قليل من التعالي:

ـ هذا أقصى ما أستطيع أن أقدّمه من تنازل. لا تطلبي مني أكثر.

ـ تنازل؟ تسمي رؤية خالك تنازلاً؟

ـ أنا لم أختر أن يكون خالي، فرضته عليَّ روابط الدَّم. ولست أنا المسؤول عن وجوده في حزبٍ من أحزاب السلطة.

ـ وما شأنك أنتَ به إن كان هنا أو هناك؟

ـ لا شأن لي، نعم، حسابُه مع الشعب. ولكن أيّ شأن له بي؟

ـ إنه خالك، أخ أمّك، يا معتوه.

ـ لكنه يحرجني سياسيّاً، وأفضّل ألاّ أراه، وأن أنسى ذكراه. ولولا طلبك لي للقائه، لَمَا ورد اسمُهُ على لساني.

ـ هكذا، إذن، تتآمران عليّ أنت ووالدك.

ـ لا شأن لأبي بالموضوع. هو لم يمانع في أن ألتقيه، وأنا الذي اختار أن يكون اللقاء في البيت هنا.

ـ من تحسب نفسَك؟

ـ أنا ابن أسرةٍ مناضلة من أبٍ وأمٍّ رَبِيَا في المعارضة، ولم يبيعَا نفسيْهما لأحد، وتعلّمتُ منهما كيف أحفظ كرامتي. هل نسيت؟

ـ وهل ينال اللقاء بخالك من كرامتك؟

ـ لا ينال إن تكرَّم على بيت أخته بالزيارة، فيلتقي ابنها. نسيت أنه لم يزرك منذ أكثر من ثلاثة أعوام... حتى حينما تكون جدتي هنا؟

هزّها السؤال. حرَّك في نفسها بعضَ الساكن المخبوء. ليست هذه المرة الأولى التي يستوقفها السؤال. طرحتْه على نفسها في السابق، لكنها بدَّدتْه بالقول إن العلاقة باردة بين أخيها وزوجها، ولا تشجعه على الزيارة. لكنها تدرك في أعماقها أنها تكابر بهذا الجواب، فهي، أيضاً، لا تطيق زوجة أخيها المتعجرفة، التي بالكاد تستقبلها عند الباب الداخلي للفيلا، فتقودها إلى الصالون أو إلى غرفة والدتها حين تكون هناك. وهي لا تذكر أن حديثاً مستفيضاً جرى بينهما يوماً خارج تبادل عبارات المجاملات. تتعامل معها بكِبْرٍ طبقيّ ملحوظ لم تكن لتُخْفيه حتى وهي تحاول التظاهر بالتلقائية. مع ذلك، اعتادت التهوين من المسألة في سبيل أخيها وأمها. انتبهت ـ فجأة ـ إلى أن أخاها ليس عادلاً في العلاقة بها. وإذا انقطعت زياراتُه لها، لأنه يتفادى اللقاء بزوجها، فهو يعلم أن حبل الودّ مقطوع بينها وبين زوجته، وأنه هو نفسه لم يصطحبها معه يوماً إلى بيت أخته. أغضت في الماضي عن أخطائه الكثيرة في حقّها، معارضته زواجها من معتقل سابق انتمى إلى تنظيم يساري «متطرف»، ومقاطعته حفل الزفاف وزيارة بيتها إلى أن أنجبت ياسر، الامتناع عن زيارة والدتهما حين تكون عندها في البيت، وإصراره على إقامتها عنده، الانتماء إلى حزبٍ يُحْرجها أمام زوجها وأمام نفسها وما به تؤمن. وقابلتْه بالصفح والغفران، فلم تفتح معه سيرة أفعاله، كما فعلت أختهما الكبرى في فاس، وزوجها. مع ذلك، يعاملها بغير ما تقتضيه أعراف الأخوة حين يحجم عن زيارتها... حتى في الأعياد، ولو من باب تبادل الزيارات!

انتبهت إلى أن سؤال ياسر يرشدها إلى حلٍّ للمشكلة التي أوقعها فيها أخوها حين طلب منها إبلاغ ياسر رغبته في لقائه، وأغرقها فيها ابنُها حين اشترط شروطاً لا تستطيع نقلها إلى خاله. لمعت الفكرة في ذهنها: لا بأس

من أن تُوجِّه دعوة غذاء أو عشاء لأخيها وزوجته، وحينها يمكن أن يرى ياسر ويتحدث إليه. وهكذا تنتشل الشعرة من العجين من دون ضجيج أو إثارة انتباه. لن يردَّ أخوها دعوتَها مخافةَ أن تعامله بالمثل، قد لا يصطحب معه زوجته، والأرجح أن ذلك ما سيحصل إن لبّى الدعوة، لكنه سيجد في نفسه حرجاً في أن يعتذر منها عن إجابتها. قد يؤجّلها، وهي تقبل أن يُرْجأ موعدُها إلى وقت لاحق، لكنه حتماً سيتجاوب. وإن حَصَل وسألها عن ياسر قبل تلبيته الدعوة، ستكون في وضع مريح لتقول له إنها أخبرتْ ابنَها أن خاله سيزورهم في البيت، وسيتحدث إليه في أمرٍ يرغب في الحديث فيه إليه. سترفع عبء المسؤولية عن ابنها وتضعها عليها. وهي ترتضي ذلك لأنه أفضل لها، ألف مرّة، من أن تصارح أخاها بأن ياسر يشترط عليه المجيء للبيت للقاء به.

حين سألتْ زوجَها رأيَه في الفكرة، جادلها في وجاهتها، وأشار عليها بالإشاحة عنها. ولكي لا تفهم من اعتراضه أنه لا يرغب في استقبال أخيها في البيت، اقترح عليها أن توجّه الدعوة إليه بعد أن يلتقي ياسر ويتحدثا بحرّية، لأنّ خال ابنه قد لا يجد اللقاء العائلي مناسبةً للحديث الذي ربّما أراده ثنائياً. وجدت في كلام زوجها قدراً من الوجاهة لا يمكن ردّه؛ ذلك أنها تعرف، على وجه التقريب، أي موضوع يريد أخوها أن يفاتح ابنَ أخته فيه، فلقد سألها عن نشاطه في الحركة، وعمّا إذا كان ذلك يسبّب مشكلات للأسرة. وحين أجابته بأنها لا تتدخل في آراء ابنها وخياراته، وإنْ كانت تخشى عليه من حِدّة حماسته، فقد اقترح عليها أن يلتقيه ويناقشه. ومع أنها سلّمت، في داخلها، بأن مثل هذه المناقشة لن يفيد كثيراً مع ياسر، الذي تعرف عناده ودوغمائيته، وقد تنتهي بشجار بينه وخاله، إلاّ أنه لم يكن يسعها أن تطلب من أخيها صرف النظر عن فكرة الحديث إلى ابنها؛ فهو - مهما كان الأمر - خاله، ومن حقّه أن يناقشه. الآن تقول لزوجها إنّ رأيه سديد، لكنها تصارحه بأنها ما لجأت إلى هذا الخيار إلاّ بعد أن أعيتْها

الحيلة لإقناع ياسر بالذهاب إلى خاله في بيته، على ما تقتضيه الأصول كما قالت. وهاهي تُفَاجَأ بأن والدَهُ يطلب منها أن تطمئن وأن تترك أمْرَ إقناع الابن بزيارة خاله في بيته إليه هو.

✤

تصرّف خاله بودّ، وهو يستقبله في البيت، ويسأله رأيه في الشؤون العامّة. لأول مرة يجري بينهما حديث في السياسة، ولأول مرّة يُشْعِرُهُ بأنه يتحدث إلى رجل راشد لا إلى شاب مندفع. تقصّد أَن يقول له إنه طلب من أخته رؤيته حتى يستفيد من رأيه وخبرته السياسية. بَدَا بعضُ الاستغراب والحرج على ياسر وهو يستمع إلى عبارات لم يتوقعها من خاله، لكن الكائن المتشكك فيه صَحَا واستُنْفِر، وألقى عليه نداء الظنّ: «ماذا وراء هذا النفاق السياسي؟ أحيلةٌ هي للاستدراج قصد الوقوع في الحبائل؟». سأله عن توقعاته عمّا ستؤول إليه الأوضاع في ليبيا واليمن والبحرين وسورية، فأجابه، بكل يقين وهدوء، بأنها ستنتهي بنجاح الثورة. ابتسم خاله وسأل:

ـ اسمح لي أن أسألك عن معنى الثورة.

ردّ ياسر بسؤال استغرابي:

ـ هل تحتاج الثورة إلى تعريف؟

ـ حين كنت في سنك، قبل أزيد من خمسة وثلاثين عاماً، وكنتُ حينها ماركسيّاً، أذكر أن السؤال عن معنى الثورة أخذ من مناقشاتنا سنوات الجامعة كلَّها، وحيّزاً زمنيّاً غيرَ يسير من نشاط الحزب وشبيبته. ولا أستطيع الآن أن أجزم بأننا أمسكنا بجواب يقيني عن المسألة.

ـ أشك في أنكم فكّرتم في المسألة بعقل ماركسي، ولذلك استعصى عليكم الجواب.

ضحك خاله عميقاً وتساءل:

ـ كيف تشك في ذلك؟

ـ لأن حزبكم لم يكن ماركسيّاً، بل كان ستالينيّاً.

ـ لا بأس، دونك والحزب اليوم، أبلغْه ملاحظتك.

ـ لا، لست معْنياً به اليوم، فقد تخلَى حتى عن الستالينية وصار حزباً مخزنيّا.

فكّر في أن يسأله عن معنى المخزن، لكنه أحجم واكتفى بالقول:

ـ صحيح أنني غادرتُ الحزب منذ زمن طويل، لكني أحمل له كلّ الاحترام. وأنا مَدين له بأنه علّمني السياسة وعلّمني كيف أكون واقعيّاً. أخلاق الاعتراف بالجميل تُملي عليَّ واجبَ إحسان ذِكْرِه.

قال ياسر متقصّداً إنهاء الحديث، أو تيئيس خاله من فائدة مناقشته:

ـ أمّا أنا فأحتقره، وأحتقر حلفاءَهُ، وطبعاً أحتقر أكثر من هُمْ على يمينه من أحزاب الإدارة.

فوجئ ياسر بمقابلة خاله لكلامه بهدوءٍ رسمتْه ابتسامةٌ على صفحة وجهه. علّق قائلاً:

ـ أنت الآن تثبت لي، بحماستك ومبدئيتك، أنك شاب حيّ وواعد.

لم يدرك قصده من العبارة على وجه التحديد. استطرد خاله موضّحاً:

ـ أفكار الإنسان تبدأ ثورية دائماً، وهكذا ينبغي أن تبدأ، وإلاّ ما كان لها طعم.

ـ لكن الذي لا تبقى أفكارُهُ كذلك، فيبدّل فيها ويغيّر، وينقلب عليها في اللاحق، لا يستحق أن يكون إنساناً.

قهقه وسأله:

ـ ألا يمكن للمرء أن يتطوّر؟

ـ نعم، يمكنه أن يتطور، بل ينبغي عليه ذلك، ولكن أن يتأخر، أن ينحطّ، فهذا أمرٌ آخر.

لا ينفع ترويض هذا الولد المندفع ليكون أهلاً لحوار سياسيّ هادئ. ولكن لن ينفع استفزازُهُ أو تجريب محاولة وضعه عند حده. من الأفضل إشعاره بأن لديه ما يقوله لخاله في الأوضاع السياسية، وأنه ما دُعِيَ إلى هذا اللقاء فقط ليجيب عن الأسئلة. قال وهو يصطنع الاهتمام:

ـ أرجو أن أسمع منك، يا ابني، عن حركتكم وبرنامجها وتوقعاتها في شأن التعديلات الدستورية.

لم يستسغ عبارة «ابني»، لكنه وجد نفسه في وضع مريح ليتحدث في شأنٍ يعرفه جيداً، ويستطيع أن يعطيه درساً فيه. لكنه اختار أن يعاند قليلاً فسأل خاله:

ـ ألا تعرف شيئاً عن الحركة؟

ـ أعرف عنها من خلال الصحف. لكني لا أدّعي أن المعلومات المتوفرة كافية. ولذلك أسألك المزيد.

ـ وماذا تريد أكثر من مواقفها المُعْلَنَة، والمعروفة للجميع؟ أن تعرف أسماء نشطائها ومناقشاتهم الداخلية؟

ـ أنا لستُ ضابطَ أمنٍ لأطلب منك ذلك.

ـ وماذا تطلب إذن؟

ـ لا أطلب شيئاً، أنت حُرّ في أن تتحدث أو لا تتحدث.

توقّف ليردّ على مكالمة هاتفية، فاغتنم ياسر الفرصة لتنظيم أفكاره وتهيىء الخطوة القادمة من الحوار. الحوار؟ يبدو أنه لن يكون هناك حوار،

فجواب خاله الأخير يقطع عليه حبل الحديث. يخيّره بين أن يتحدث أو لا يتحدث. معنى ذلك أنه لم يعد مغنيّاً بالأمر. لا بدّ أنه بالغ في العناد إلى درجةٍ أضجرت خاله، وأذهبتْ عنه الرغبة في الحديث. هل يعيد وصْل ما انقطع، أم يتمادى في العناد؟ ليس هو مَن طلب اللقاء، وإنما خاله. ولولا أنه ابتغى من الأمر إرضاء خاطر والدته لما التقاه، أو سعى في رؤيته. لِيَدَع خيط الوصل مقطوعاً، إذن، كي يتحرَّر من عبء ثقيل فُرِض عليه حمْلُه. لكن خالَه يهينُه حين يخيّره بين الكلام والامتناع، يوحي إليه قوله بأنه سيّان عنده أن يتحدث أو لا يتحدث، بأن ما قد يقوله ليس مهمّاً إلى درجة الحرص على سماعه. وهو لن يسمح له بأن يهينه ويستصغر شأن ما لديه ليقوله. ثم إنه سيتحدث عن الحركة، وهذا وحده خليق بأن يحفزه على الكلام.

كان خاله ما يزال يتحدث على الهاتف حين قرَّر أن يتكلّم منتظراً إنهاء المكالمة. انتهت المكالمة، لكن خاله طلب رقماً جديداً وانخرط في الحديث. سمعه يقول لمحدّثه في نهاية الاتصال الهاتفي: «سأكون عندك في الهرهورة بعد نصف ساعة». فهم من العبارة أنها إيذان بنهاية اللقاء، فنهض لتوّه. لم يستَبْقِه خاله ولا اعتذر منه، وإنما صافحه وطلب منه إبلاغ سلامه لوالديه، ثم رافقه حتى باب البيت.

ذبحه من الوريد إلى الوريد، أهانه كما لم يُهِنْهُ أحد قبله، أشعرهُ بأنه لا يعني شيئاً بالنسبة إليه، ولا يعنيه رأيُه. تبخّرت حفاوة الاستقبال، وعبارات الإطراء والمجاملة، والأرْيحية في الحديث، وكَشَفَ المُضيف عن معدنه الرديء، وسلوكه المتعجرف الذي تتميز به طبقته. لا بأس، سيحين الوقت الذي سيقف خالُه بين يديه كما يقف مستخدموه في البيت بين يديه. لن يطول موعد ذلك اليوم الذي سيقتص فيه المناضلون من مصّاصي دماء الشعب والخونة والانتهازيين. ولن تنفعه وساطة أخته وأمّه لأن الأمر، حينها، ليس أمره وحده. هكذا سيقول إن ترجّته أمّه التماس الغفران لخاله. لن يَعِدَها بشيء، كما لن يعد جدّته أو خالته، ولا حتى والده

إن وَسَّطَتْهُ أمُّه. عليه الآن، وإلى أن يصل ذلك اليوم، أن يفكر في ما الذي عليه أن يقول لوالدته، إن عاد إلى البيت وسألته عمّا دار بينه وبين خاله. قطعاً سيخبر والده بالتفاصيل، أمّا أمّه فلا يدري ما يقول لها.

فوجئ، حين عاد إلى البيت في نهاية المساء، بأن أمّه لم تسأله، على غير ما توقّع، عن لقائه بخاله عصر ذلك اليوم. ارتاب لصمتها قليلاً، ثم اهتدى إلى تفسيره سريعاً: لابدَّ أن أخاها اتصل بها وأخبرها بما جرى بينهما. هل أعفاه من الحديث إليها؟ ربما. ولكن، ماذا لو كانت روايته مزوَّرة؟ ماذا لو لفَّق وأضاف واختلق؟ اغتنم وجبة العشاء ليقول لوالده، متقصّداً إسماع أمّه:

- ليتني لم أذهب إلى بيت خالي هذا اليوم.

- سأله والده من دون أن يرفع عينيه عن طبقه.

- لماذا؟

- رجل متعجرف ولا يفهم شيئاً.

- تحدث عن خالك بأدب؛ قالت أمّه.

لم يجبها على الملاحظة، لكن والده استدرك متسائلاً:

- هل تحدثتما في شيء؟

- بالكاد بدأنا نتحدث حين أنهى الحديث.

- لاشك أنك أزعجته بكلام ما ففترت فيه الرغبة في الحديث.

- أجبتُه عمّا سألني عنه بمنتهى الصراحة. ثم سألني عن الحركة ومواقفها، وحين اعتزمتُ الحديث في الموضوع، أنهى اللقاء من دون لباقة.

- لا أعتقد أنه فعل ذلك من دون سبب موجب، لعلّك قلتَ شيئاً أزعجه.

- إذا كان رأيي يزعجه، فهذا شأنه. هل كان ينتظر مني أن أداهنه وأتملّقه؟

- لم يسألك عن الحركة إلاّ لأنه يعرف أنك تنتسب إليها. وهو، من غير شك، لا يمكن أن يتوقّع منك إلاّ موقفاً يسارياً ومعارضاً.

- لماذا ينزعج، إذن، ويُنهي الحديث بتلك الطريقة؟

- عليكَ أن تسأل نفسك عن السبب الفعلي. ربّما لم تكن لَبِقاً معه في الكلام.

- لست مُجْبَراً على ممارسة المجاملات الزائفة.

- كأني بك تعترف بأنك أضجَرْتَهُ بسلوكك الخشن نحوه. هو، في كل الأحوال، خالك، وهو، بهذا المعنى، في مقام أبيك. وحتى لو لم تكن لك به قرابة عائلية، ونظرت إليه كخصم سياسيّ، فإن أخلاق الخلاف لا ينبغي أن تداس، وإلاّ لا معنًى لأن يقول المرءُ عن نفسه إنه ديمقراطيّ.

لم يَبْدُ على ياسر أنه ارتاح لكلام والده، الذي شمَّ فيه رائحة أمّه؛ فقد برَّأ ساحة خاله ولاَمَهُ هو، مفترضاً أنه السبب في دفع خاله إلى إنهاء المقابلة معه على ذلك النحو الذي رواهُ لهما على مائدة الطعام. كان يريده أن يقف إلى جانبه ظالماً أو مظلوماً! أما والدته فلم تتحدث. لاذت بالصمت وكأن الأمر لا يعنيها. ناب عنها والدُهُ، أحسنَ النيابة، في إفهامه بأن المسؤولية في ما جرى تقع عليه لا على خاله. تصرّف بحكمة عالية تقتضيها الحال مع ابنٍ شديدِ الاعتداد بنفسه، مع أنه لم يَعْلم بما دار بين الولد وخاله إلاّ من خلال رواية الأول المنقوصة. هي تعلم، أخبرها أخوها بالهاتف بما دار بينهما، وبتحرّشات ياسر به أثناء الحديث، مع أنه رغب - مثلما قال لها - أن يصْرف رأيه عن الانغماس في الحركة لأنها ستجلب عليه وعلى العائلة - كما قال - المتاعب التي لا تُحصى، خصوصاً أن الذين يحرّكون الحركة، من وراء ستار، هم - مثلما قال - يساريون متطرفون، وإسلاميون مناهضون لنظام الملكية، يستغلون غفلة الشباب، وحداثة سنّهم، وقلّة درايتهم بالسياسة، لتوريطهم في معركةٍ خاسرة سيدفعون ثمنها وحدهم. حين استمعت إلى

أخيها يُلقي عليها هذا الكلام، الذي كان يعتزم أن يُسْمِعَه لابنها، وضعت يدها على قلبها، وحمدت الله على أن اللقاء انتهى قبل أن يسمع ياسر من خاله ما سمعته هي منه. كانت ستكون كارثة لو وصل الحديث إلى هذا الحدّ. وهي لا تدري ما الذي كان سيفعله ياسر حينها، وأيّ جنون قد يركب رأسه.

- ٢٠ -

مرت فترة لم أزر فيها مضيفيّ في حيّ الفتح؛ ربما من عشرين يوماً أو أكثر. فلقد قضيت المدة في بيت أهلي، إلى جانب جدتي المريضة. ومع أن علاقتي بالوالد لم تشهد ما يعكّرها، حيث بَدَا وكأنه يسلّم بالأمر الواقع، إلاّ أنها لم تعد إلى سابق عهدها من التلقائية. كنت ألمح في نظراته بعض البرود وعدم الرضا. بيد أنه لم يفصح بالكلام عن مشاعره. ولقد فكرتُ في بداية الأسبوع الثاني من عودتي إلى البيت في أن أقفل راجعاً إلى حيّ الفتح لأرفع عنه وعني الحرج، لولا أن الوضع الصحيّ لجدتي بَدَا مربكاً لي، بعد أن تفاقمتْ لديها الحساسية، وبدأت تعاني ضِيقاً في التنفس، فكنت مضطراً للمبيت معها في غرفتها لإسعافها في الليل عند الضرورة، وحيث قد لا تستطيع استعمال المِنْفاس المطاطي اليدويّ الذي اقتنيناهُ لها من الصيدلية، بعد وصفةٍ علاجية من الطبيب. طلبتُ من والدي هذا المساء المبيت معها في غرفتها لأني مضطر للمبيت، خارجاً، عند أصدقاء من الجامعة للتحضير لامتحانات. وافق من دون أن يسألني إن كنت سأعود غداً.

لم أجد أحداً من الأصدقاء في الشقة، وانتبهتُ إلى أنني نسيت المفتاح في غرفة جدتي حين سحبْتُه من محفظةٍ ووضعتُه على منضدة كي

أتذكره عند الخروج من البيت. اضطرني ذلك إلى أن أذهب إلى أقرب مقهًى في انتظار وصول أحدهم. مازال الوقت مبكراً نسبيّاً لعودتهم، والساعة لم تتجاوز الثامنة مساءً إلاّ قليلاً. فوجئت، عند دخولي أول مقهى، بكمال جالساً في زاويةٍ يقرأ في كتاب. لمحني ونهض يصافحني. لم أشأ أن أقطع عليه حبل القراءة والاستغراق، وحين طلب مني الجلوس، ألْححت بأنني أحترم لحظة القراءة ولا أسمح لنفسي بالاعتداء عليها، طالباً منه مفتاح الشقة، لأني نسيت مفتاحي في بيت أهلي، واعداً إياه بجلسة مناقشة طويلة إذا كانت تسمح بها ظروفه. أصرّ على أن أجالسه في المقهى، وأغلقَ الكتاب قائلاً إن قراءته لن تكون أغنى من مجالستي والحديث معي. شكرت له حسن الظن، ثم لم يلبث أن أردف قائلاً:

ـ سيكون في وسعنا أن نتحدث، هنا، بحرية أكبر بعيداً من مشاغبات عزّ العرب وقذائف الغازات الكريهة التي يطلقها بطنُه.

ضحكت وسألت:

ـ أما زلتُما تتناوشان كعادتكما؟

ـ يتحرش بي، في كل لحظة، ولا يهدأ له بال إلاّ حين أدعو عليه الدعوات السيّئات.

ـ تفعل ذلك من قلبك؟

ـ لا، أبداً. أنت تعرف ما أكنّ له من ودّ. وهو، والله يشهد، يبادلني إياه، ويقدّم لي خدمات لا يمكن أن أنساها له.

ـ أنا آسف، يا كمال، لأني لم أزركم منذ فترة...

ـ لماذا تأسف يا رجل؟ أنا سعيد بعودة مياه العلاقة بوالدك إلى مجاريها، حتى لو كان ثمن ذلك حرماننا من رؤيتك ومجالستك.

ـ لم يمنعني من ذلك سوى مرض جدتي، واضطراري للبقاء إلى جانبها.

ـ شفاها الله تعالى وأبقاك لها عيناً ساهرة.

سألني عن أوضاع الحركة وما جدَّ عليها من أمور. حدَّثْتُه في بعض التفاصيل قبل أن يفاجئني بتعليق أثار استغرابي:

ـ تمنّينا، صادقين، أن تأخذ الحركة منحًى آخر أفضل. لكنها، من أسفٍ، أخطأت طريقها، وأخطأت اختيار حلفائها وخلطائها.

سألتُه مستغرباً:

ـ ألم تكن، قبل شهر، متحمساً للانضمام إليها؟ ما الذي تَغَيَّر حتى بِتَّ تتأسّف وتتحسّر؟

ـ تغيَّر الكثير يا حسن، وأنتم المسؤولون.

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد أمعنتم في العلاقة مع «الإقساط والبرّ» إلى حدودٍ سلّمتُم فيها مقاليد الحركة ومصيرها لها. وقطعتم على مثلي طريق الالتحاق بكم.

تملكتني دهشةٌ واستغرابٌ، مشوبان ببعض الشك أو عدم التصديق، وتساءلت:

ـ هل أنت جادّ في ما تقول؟

ـ كل الجِدّ.

ـ من قال لك إنّ الحركة أضحت رهينة «الإقساط والبرّ».

ـ الوقائع تقول ذلك.

ـ أية وقائع؟

ـ قل لي: هل تستطيع الحركة اليوم أن تحشد آلاف الناس في مسيراتها من دون أن تعتمد في ذلك على القدرة التعبوية لهذه الجماعة؟ كم يمثّل جمهوركم عدداً أمام جمهورها؟

ـ لكنهم حلفاؤنا الُذين تجمعهم بنا قضية مشتركة. من ذا الذي يملك أن يمنعهم من العمل في صفوفنا إذا كانت رؤيتُهم للأوضاع رؤيتنا؟

ـ تعتقدون، مخطئين، أنهم حلفاؤكم، وليس الأمر كذلك، إنهم يركبون موجتكم لأغراض خاصةٍ بهم، وسينقلبون عليكم ما إن يتمكنوا ويستنفذُوكُم دوركم.

ـ أنت، من غير شك، لا تعرف كثيراً عن أوضاع الحركة، ولا عن نوعية علاقاتها بالقوى السياسية والاجتماعية. تأكد من أن أحداً من غير مؤسّسيها ونشطائها، لا يتدخل في رسم خياراتها وتوجهاتها، أو يفرض عليها وصايةً أو رأياً.

ردّ كمال بلغةٍ جازمة:

ـ اسمح لي بأن أقول إن ما تدّعيه الآن ليس صحيحاً، وإن كثيرين يصنعون رأي الحركة ومواقفها، وأوّلهم المجلس العامّ لمساندة الحركة، لا أدري، بالضبط، إن كان هذا اسمه، وإن نشطاء «الإقساط والبرّ» شريك أصيل في القرار. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك ـ وهو لا شك كذلك ـ فإن مَن يمنح تظاهراتكم قوَّتَها الاجتماعية وجمهورها لا يمكن أن يكون مجرَّد مستأجرِ قاعدةٍ بشرية معروضة للاستخدام. ثم اسمح لي أن أقول إنك ـ وربما رفاقك معك ـ لا تعرفون ما الذي تروّجه الجماعة في صفوفها عن عملها في الحركة، وعن علاقتها بكم.

ـ ما الذي تروّجه؟

ـ أنّ العمل معكم، أنتم الذين تجاهرون بعلمانيتكم، هو مما تفرضه أحكام الضرورة. وهذا، إذا كان لديكم بعض درايةٍ بالفقه، ممّا لا تتولّد منه شراكةٌ في المبدأ لامتناع الجامع.

ابتسمتُ معلقاً:

ـ أفترض أنك تدرك أن العلاقة بيننا إنما هي في السياسة، وأن الفواصل بيننا في الأفكار لا حصْر لها، فكيف تُقْحِم هذا في ذلك؟

ـ أنا لا أُقحم، وأنتَ قطعاً لا تُقْحم، لكنهم هم يقحمون.

ـ ماذا تقصد؟

ـ السياسة عندهم لا تنفصل عن العقيدة.

ـ وما شأن السياسة بالدين؟

ـ اطرح هذا السؤال على فرنسي أو على مغربي يشبهك. ولا تُعَمّمه على جميع المغاربة وإلاّ أخطأتَ التقدير وفتحت عليك باب الإفلاس السياسي.

أثار كلامُه استغرابي كثيراً. كنتُ أحسَب أن وجود تيارٍ مثل «الإقساط والبرّ» في الحركة يريحه، ويرضيه، هو الذي تقترن عنده السياسةُ بالدّين. ومع علمي بأن والده ينتسب إلى اتجاه سياسيّ آخر، إلا أني ما تصوَّرت أنه يمكن أن يتحسَّس كثيراً من جماعةٍ يُفْتَرض أن الجوامع بينه وبينها أوفر. سألتُه، من دون لؤم، ساعياً في الفهم وتبديد الالتباس:

ـ إذا كانت هذه حالك مع جماعة قريبة من مزاجك، فكيف ستكون مع تيارات يسارية قريبة من الحركة؟

ـ لستُ أخشاها لأنها واضحة الأهداف، بحيث لك أن توافقها في غير مسألة وتخالفها في أخرى.

ـ وهل يمتنع ذلك في حالة الجماعة؟

ـ إلى حدّ كبير.

ـ أَوْضح لي، لم أفهم قصدك.

ـ الجماعة لا تؤمن بالديمقراطية، عكس ما تدعيه، وتعتبرها لائيكية. ولديها منزع إلى احتكار التمثيل والحديث باسم الشعب، وتهاجم من يخالفوها وتتهمهم بموالاة المخزن. أما تيارات اليسار، وإن كانت هي أيضا إقصائية، فلا خوف منها، ربما لأنها ضعيفة النفوذ. والأهمّ من هذا

كلّه أن الجماعة لا تريد من الحركة أن تكون أداة ضغط لتحقيق التغيير والإصلاح الديمقراطي، بل تتوسّلها لتغيير نظام الحكم.

ضحكتُ لتعليقه من دون استفزاز وقلت:

ـ لعلّك لا تعرف أن من نشطاء الحركة، الذين تسميهم علمانيين، من يريد تغيير نظام الحكم هو أيضاً.

ـ أعرف ذلك، لكن مشكلته مع الاستبداد والسلطة المطلقة لا مع السلطة الدينية التي تبتغي انتزاعها واحتكارها بدعوى أنها من ينطق باسم الدين القويم.

ـ أنت، يا كمال، تخوض في مسائل ظنّية لا في مسائل مادية، فأنا لم يسبق أن سمعت أحداً منهم يتحدث في غير الشؤون السياسية.

ـ هذا لأنك، وجماعة العلمانيّين معك، مخدوعون، أو ـ على الأقل ـ تكتفون بالمعلن من مواقفها وتصدّقونه.

ـ نحن لا نحاكم النّيات.

ـ ما تَحْسَبُهُ نياتٍ أُعْلِن وصُرِّح به منذ زمن، ولكنكم تأبون إلاّ التجاهُل قصدَ كسب قوةٍ إلى جانبكم لمجرَّد أن لديها جمهوراً تحتاجون إليه.

ـ لم أعُد أفهمك: مَن يحتاج مَن: نحن أم هم؟ مرةً تقول إنهم يريدون صهوة الحركة يعتلونها للوصول إلى المبتغى، وأخرى تقول إننا نريد جمهورهم نستقوي به!

ـ ذلك لأن العلاقة بينكما قائمة على غشٍّ متبادل.

غشٌّ متبادل؟ ما أشبه رأيه برأي أمجد؛ كلاهما يستريب من العلاقة، ولكن بمنطلقات وحسابات مختلفة. هل صدفةٌ هي أن تكون صورة الحركة كذلك لدى منطقيْن نقديَّيْن متباينين؟ هل نحن، وحدنا، على حقّ حين ننظر

إلى معنى التحالف والشراكة من هذه الزاوية الحصرية، فنأبى الاستئناس بآراء غيرِنا؟ غيرُنا؟ هل كان أمجد غيرَنا؟ كان نحن حتى كاد أن يختصرنا فيه جميعاً. كان صوتَنا الجماعيّ، وصوتَ الغائبين الذين لم يَنِ يعتبرهم حزامَ أماننا ومحيطَنا الطبيعي.

أخرجني كمال من التداعي حين سألني عن السبب الذي يدعونا إلى حصر ما سمَّاه المجلس العام لمساندة الحركة في القوى التي توجد فيه اليوم، وعدم تَوْسعته ليشمل أخرى. أجبته بأن المجلس ليس مبادرة منا، وإنما من مناضلين آخرين من ذوي الخبرة والتجربة. ألحّت عليّ الرغبة في أن أعرف إن كان رأيه شخصيّاً أم رأي جماعة حزبية. سألته، من دون أن أشعره بالغاية التي تحملني على سؤالي:

- ألا تعتقد أن ما تذهب إليه من تقديرٍ شخصي للجماعة قد لا يوافقك عليه أحد؟

- هو ليس موقفاً شخصيّاً، وإنما يشاطرني إياه آخرون.

قلت بلؤمٍ حاولتُ إخفاءه:

- لست أشك في أنه رأي أحزاب أخرى وطنية ويسارية مثل «حزب التحرير» و«الحزب التقدمي». من التي لا ترضيها علاقة الحركة بـ «الإقساط والبرّ».

- وهو كذلك رأي غيرها.

- أحزاب اليمين والسلطة لا يعنيها أمر الحركة والجماعة إن تحالفتا. وهي، في الأحوال جميعاً، ليست حريصة على الحركة لكي تخشى عليها، مثلك، من العلاقة بالجماعة.

- ومن قال لك إنه يشرفني أن يتطابق موقفي مع موقف هذه الجماعات الحزبية الموبوءة؟

ـ لم أقل ذلك، إنما أحاول أن أعثر على مَن يُشْبه رأيك.

ـ أنت تعرفهم يا حسن، لكنك تتحايل عليّ كي أسميهم

ـ إذن، فهُم أصدقاء والدك.

- ٢١ -

ما كان السّي أحمد ليتصور أن نكبته مع ابنه، التي هدَّهُ إرهاقُها النفسي طيلة الأربعة أشهر الماضية، ستتحول يوماً إلى سبب لاحترامٍ متزايد سيحظى به من زملائه في العمل، ومن جيرانه في العمارة والحيّ، كما لو أنه هو نفسُه حسن، ابنُه، أو أن الأخير لا يفعل غير ما يشير عليه به والده. سريعاً بدأ يشعر أنه شخص ذو مكانة واعتبار في عيون الناس جميعاً، حتى عند الذين لم يكونوا يُلْقُون إليه بالاً، أو يشعرون بوجوده بينهم. انتبه إلى هذا التغيّر، في أوّل أمره، في سلوك محمد، البقّال المجاور للعمارة، وهو الذي لم تكن علاقتُه به طيبة مذ عرفه قبل نحوٍ من عشرين عاماً. ثم تَوَاتَر السلوك هذا مع آخرين لم يذكر أن من بينهم بين ألقى عليه التحية يوماً، مع أنهم اقتسموا الجيرة في الحيّ عينِه، والزنقةِ نفسها، بل والعمارة ذاتها! وحتى الذين لم يكسروا الحاجز بينهم وبينه، ولم يكلموه أو يحيُّوه، أو يتبرعوا على نظرته بابتسامةٍ، لاحظ عليهم اهتماماً به وانتباهاً إليه، كلما صادفوه في الطريق، فكانون يركزون النظر فيه وكأنهم يرونه لأوّل مرة.

لم يكن محمد شديد الودّ له مُذْ سَكَنَ العمارة قبل زواجه بعاميْن. ارتضى أن يفتح له حساب مشترياتٍ شهري في دفترٍ صغيرٍ خاص، أُسوةً بسائر

الزبائن المتعاملين معه من أهل الحيّ، حين كان ما يزال أعزباً. وكان يُمْهِله في دفْع المستحقات أحياناً، لا رأفةً به وإشفاقاً عليه من عوز، وإنما لأنه مُجْبَر على ذلك مع موظّفٍ محدود الدخل. وما إن تزوّج، حتى تغيرت المعاملة على نحوٍ تعصّى على أحمد فهمُه. وحين استفسره في أمْر الامتناع عن تمتيعه بامتياز الاقتناء منه على الحساب، كما جرتِ العادة بينهما قبْلاً، أجابه محمد بأن زواجه سيضاعف الاستهلاك والفاتورة، وهو ليس يضمن لنفسه أن يكون التسديد كاملاً وليس بالتقسيط، وإن حصل وكان، فهو ليس يضمن أن يقع في مواعيده من دون تسويفٍ وإبطاء. لم يَخُنْه أحمد فيبحث عن دكان آخر غيره، على كثرة الدكاكين في الحيّ، وإنما ظل وفيّا لعادته في التبضع منه وصرْف مبلغ البضاعة فوراً. وما كان ذلك الوفاءُ وفاءً من أحمد، وإنما حمله عليه كَسَلُه وخمولُه، واستكثارُهُ الذهاب إلى أقرب دكان غيره، لأن الدكان هذا يبعد عن الأول قرابة المائة متر! حتى أنه ظل يشتري الخبز منه مع أن أقرب مخبزة منه لم تكن تبعد عن العمارة بأكثر من مسيرة دقيقة مشياً!

ويَذْكُر أحمد أن محمد البقّال لم يكن يُحْسن التصرّف معه في المناسبات التي يحتاج فيها إليه، أو إلى بضاعته؛ فحين شحَّ الحليب في نهاية سنوات الثمانينيات، بُعَيْد زواجه، لم يكن يزوّده به، وخاصة في شهر رمضان، بدعوى قلة ما يحصل عليه من حصّةٍ منه، وبدعوى عدم رغبته في التمييز بين زبائنه. لكنه يعلم أنّ محمداً يمكّن غيره من سكان العمارة بليترٍ أو لترين منه، ويستكثر عليه هو نصف لتر، مع أن مشترياته الشهرية منه، في ذلك الحين، لم تكن تقل عن الألفيْ درهم. وحين يحتاج إلى قنينة غاز، يُغْلظ له الأيمان بأنها مفقودة عنده بينما يعلم من آخرين أنه زوَّد بها فلاناً أو علاناً من أبناء منطقته. وحينما يهاتفه من البيت ويطلب منه أن يبعث إليه بحاجياته من المواد مع أحد الصّبِيّيْن المستخْدَميْن عنده، يتجاهل طلبه، أو يتأخر في إجابته لفترةٍ طويلة، مما يضطره هو نفسه للنزول من الشقة إلى الدكان لِحَمْل الأغراض التي طلب. وهكذا دواليك...

كان مزاجيّاً وغير متجاوب معه. ولقد أشعره أحياناً بأنه تمييزي ضدّه لسبب يجهله، ولم يفكّر في أن يقف يوماً على السبب بسؤاله عنه، أو بتقديره. أما ابنه حسن، فلم يكن يبيعه الشوكولاتة حين كان صغيراً، ثم يسجّلها على دفتر الحساب الشهري، إن لم يكن معه والدُهُ، ولم يطلبها منه بنفسه. وكثيراً ما زجرهُ بالقول إنه لا يستطيع أن يبيعه حلوى لا يضمن أن يسدّد والدُه ـ الذي يدقق في الحسابات ـ ثمنها غداً إن عَلِم بأنها أُخِذت من دون رضاهُ وموافقته. ومع أن حسن ساعد ابنه إبراهيم في دراسته الثانوية، وأعطاه دروساً في الرياضيات بالمجان، ولفترة طويلة، إلا أن محمد البقال لم يكلّف نفسه يوماً أن يهديه قنينة مشروبات غازية واحدة مكافأة لِخِدْمَاته، أو اعترافاً بالجميل!

ما الذي حصل حتى تَغَيَّر سلوكه فجأةً من الجفاء، والغِلظة، واللامبالاة، إلى الحفاوة والودّ المعلَن؟! أصبح ينهَض من كرسيه ما إن يراه فيصافحه بحرارة، أو يرفع له يد التحية من بعيد مقرونةً بالتهليل والترحيب إن مرَّ قريباً من الدكان ولَمَحَه. وحين يقتني منه أغراضاً، يوليه الاهتمام على زبائن سبقوه. أما عندما يطلب منه إرسال طلبيّة إليه إلى البيت مع الصبيّ المستخدم، تتهيّأ وتُبْعَث في زمن قياسي لم يألَفْه... الخ. حَارَ في تفسير أمر هذا الانقلاب الطارئ على سلوك محمد، ولم يَهْتَد إلى فهمه إلاّ ذات مساء دخل إلى الدكان ليقتني شفرة حلاقة ومياهاً غازية. استقبله محمد ببشاشةٍ وترحاب، وسأله عن ابنه حسن الذي لم يعد يظهر في الحيّ كثيراً، وعمّا إذا كان مسافراً. أجابه، من دون رغبةٍ في إطالة الحديث، أنه يقضي معظم الوقت في الحيّ الجامعي مع زملائه قصد المراجعة الجماعية للدروس والمحاضرات. ثم لم يلبث أن فاجأه بالسؤال عمّا إذا كان حسن سيُعَيَّن وزيراً أو سفيراً حقّاً مثلما يروج.

ـ من قال ذلك؟

ـ كثيرون يا السي أحمد، ومن كبراء أهل الحيّ.

ضحك وقال:

ـ هل سبق لشاب في التاسعة عشرة من عمره، وفي بداية تكوينه الجامعي، أن أصبح وزيراً أو سفيراً في المغرب، أو في أيّ بلدٍ من بلدان الدنيا؟

ـ لكن المسألة ليست بمبلغ العُمر، يا السّي أحمد، وإنما بالمكانة والأهمية.

ـ وأيّ مكانة أو أهمية يمكن أن تكون لولدٍ لم يبدأ صيام رمضان إلاّ قبل ستّ سنوات؟ حين يكبر ويحصل على الشهادات العليا، ستتمنى له حينها الوظيف الذي يليق به.

ـ ولكن المناصب العليا اليوم لم يعد يقرر فيها أن أصحابها من ذوي الشهادات، وإنما من ذوي المكانة السياسية.

ـ المكانة السياسية؟ وما دخل حسن في الموضوع؟

دُهِش محمد للسؤال واستطرد قائلاً:

ـ أليست شعبيته عند الناس وأهل الحيّ، كواحد من زعماء الحركة، تكفي لتكوّن له مكانة سياسية يا السّي أحمد؟

أجابه الأخير بفتور قصد به إنهاء الحديث:

ـ عِلمُ ذلك عند الله وعندك.

ثم تركه غارقاً في الاستغراب وغادر الدكان!

✤

لم يشك في أن الذي طرأ على محمد من تغيُّرٍ في السلوك، ومن طيبوبة في التعامل مفاجئة وغير مألوفة، ووراءه مصلحةٌ ما لا يُفْصِح عنها،

وقد يفعل، وها قد فعل. ولكن ما عسى محمد البقال أن يستفيد من توزير حسن أو تسميته سفيراً إن حصل ووقع ذلك فعلاً؟ انتبه إلى أنه يفكر في أسئلة تافهة ترهق دماغه، فأغلق الموضوع تماماً.

✤

كان يمكنه أن ينسى هذه الحادثة، وما سبقها من وقائع التبدّل في سلوك محمد، لأنها تفصح عن مزاج رجُلٍ أُمّيٍ، وربما انتهازيّ، لا يفهم من الدنيا سوى البيع والشراء، وما يمكنه أن يربحه من أية سانحة تسنح...، لولا أن تعظيم مكانة ابنه تكررت مفرداته على ألسنةِ أصدقائه وزملائه في العمل! هؤلاء ليسوا أمّيين ومغفَّلين، كمحمد البقّال، ولا يصدّقون بعقلٍ ساذج ما يقال لهم ويُرْوى عن الناس والأشياء، فهم متعلمون وحاصلون على شهادات جامعية، ويتابعون الأخبار في القنوات العربية والفرنسية، ويقرأون الصحف والمجلاّت، ويعرفون تفاصيل الحياة السياسية، وبعضهم - مثل المعروفي وزغلول ومحمد نجيب - كان لهم انتماء حزبيّ في الماضي حين كانوا شباناً. ولقد كان هذا كلُّه مما زاد من حيرته، ورَفَعَ من مستوى استغرابه. هل يُعْقَل أن يكون ابنُه على هذا القدر من أهمية التي يتحدث عنها زملاؤُه من دون أن يعلم؟ هل يمكن أن يخطئ في تقدير قيمته إلى هذه الدرجة وقد ربَّاهُ بنفسه وأنشأه على مثالٍ في رأسه؟ أم إنهم يحاولون بمديح ابنه رفْعَ معنوياته المنهارة وممارسة شكلٍ آخر من المواساة إيجابي؟ ليس يدري أيّها الحقيقُ بالتصديق، وإن كان داخِلُهُ يُسِرّ له ببعض الشعور أن الأمْرَ في تقديرهم وكلامهم ليس محمولاً على المداهنة، أو على التعاطف، بمقدار ما هو ينمّ عن مشاعر صادقة.

يقول له محمد نجيب، وهو انتمى إلى اليسار أيام الجامعة في سنوات السبعينيات، إنه يغبطه على أن له ابناً مثل حسن، وأنه يتمنى لو كان رُزِقَ بهِ، هو الذي له من الذرية ثلاث بنات. ولم يفطن أحمد إلى أنه

أخطأ فاحِشَ خطإٍ حين ردّ عليه بالقول إنه لو رزِقَ بذَكَرٍ لَمَا قال عن حسن ما قاله من عبارات تقريظ، إلاّ حينما لاحظ ملامح الانكسار على ملامح نجيب وهو يسمع رده، فأدرك على التوّ أنه جرحه، من دون أن يقصد، وما كان منه سوى أنِ استدرك بالقول إنه يقصد أن الذكور يعطون عادة الانطباع بأنهم الأفضل، والحال إن الأمر ليس كذلك. أوضح محمد نجيب أن حسن يذكّره بشبابه في «أيام العزّ» في بداية السبعينيات، وأنه مثال للشاب المسؤول والمهذّب، الذي يعطي من نفسه لغيْره القدوة، وأنه أعاد إليه الثقة في الأجيال الجديدة من الشباب التي كان قد يئس منها هو وغيره منذ زمن طويل، وأنه ليس لوالده أن يخشى عليه من شيء، وإنما عليه أن يفخر به ويعتز؛ فهو أنجب الذي لم ينجب أحدٌ من أقاربه، أو أصدقائه، أو زملائه، أو جيرانه، والمرء لا تعلو قيمتُه بنَسَبِهِ، وسَلَفِهِ، وإنما به هو أو بخَلَفِه. ثم لم يلبث أن أضاف جملةً لقيت في نفس أحمد هوًى وأعادت إليه بعضَ اعتبار: «النبتة الطّيّبة من البذرة الطّيّبة والرعاية الطّيّبة».

يصارحه المعروفي بأنه كان يخشى عليه ممّا قد يغرّمُهُ به ابنُه من مشاكل في العمل والحيّ والحياة، في البداية، في أول الأمر بالحركة وبنشاط حسن فيها. وقد حَمَله حرصُهُ هذا ـ يقول لأحمد ـ على استطلاع رأي قريبه (صهره) المدير في الموضوع، وعمّا إذا كانت أبوّةُ أحمد لِحَسَن ستتضرَّر من الشاب الذي بلغَ انزعاجُ السلطة بأحاديثه مبلغاً. وهو إذا كان أخفى عن أحمد هذا الأمر، فإنما حرصاً عليه من مفاجآت غير سارة كان هو ـ أي المعروفي ـ يتوقعها، بل يتوجّسها. غير أن صهره ـ مديره ومدير أحمد منذ أربعة أشهر ـ تَصَرَّف إزاء «النازلة» بطريقة مختلفة، وقال أشياء تعبر عن ذلك التصرُّف النبيل والمتحضر من مديرٍ ـ هكذا وصفه المعروفي ـ يعنيه كثيراً أن لا يقع الشجار بين مَن يحسبهم أصحاب نصيبٍ من الحقّ من الجانبين، وإن كانا متباعديْن في الغالب. قال للمعروفي إنّ الصلة بين أحمد الأب وحسن الابن لا يمكن إلاّ أن تثير مشكلات لا حصر لها في

إدارةٍ رسميةٍ تابعة للدولة يشتغل فيها الأب. وقد يجد المدير نفسَه، في أية لحظةٍ، مسؤولاً عن موظَّفيه ومُجْبَراً على تبرير أوضاعهم وأفعالهم. وهو، من حيث هو مسؤول، في حرج من أمرهِ شديدٍ في هذا الشأن، وخاصةً حينما يكون ـ مثلما هو كذلك ـ على صلةٍ بأمن الدولة والاستقرار؛ إذ مهما حاول التستر على أحمد، كموظّفٍ محترم في إدارته وملتزم، فإنه لا سبيل عنده إلى تبرئة ذمته من مسؤوليته، المباشرة أو غير المباشرة، عن مواقف ابنٍ يُسِيء إلى الدولة والنظام والاستقرار، ويعيش في كنف أبيه. لكنه، في الوقت نفسه، ليس مسؤولاً عن أفعال شاب راشد، والأهمّ من ذلك ـ ينقل المعروفي عن صهره ـ أن المصلحة تقضي بأن لا يقطع أحدٌ الخيط مع أحمد، لأن احتمال نجاح الحركة التي ينتمي إليها ابنُه، في فرض مطالبها، يفرض عليه أن يُبْقِيَ شعرة معاوية متينةً وقائمة!

انذهل أحمد إلى حدودٍ بعيدة. هو لا يطمئن كثيراً إلى إفادات المعروفي، ولا يستطيع أن يصدّقه دائماً، إن كان يمكنه أن يفعل ذلك أحياناً، فالرجل حريصٌ على تلميع صورة المدير الجديد الذي تربطه به قرابة. ثم إنه، وبمعزل عن صلة التصاهر بينه والمدير، يسعى في أن يواسيه ويرفع من معنوياته، بعد الذي عاينَه من ضروب المحنة النفسية التي عصفت به، منذ عَلِم بارتباط ابنه بالحركة في أوائل الشتاء المنصرم. ويصعب، لهذا السبب، أن يتميَّز الصدق من المجاملة مع رجل يرعى حرمةً للصداقة. غير أنه لا يكاد أن يشك في صدق محمد نجيب وشفافيته، فإلى أن الرجل لم يُعْرَف عنه مداهنَةٌ أو نفاقٌ اجتماعي، لم تَقُم علاقته بأحمد على أساس ودّ ظاهر أو مستتر، ولا سَعَى يوماً في إرضائه واسترضائه، إلى أنه كان شديدَ التمسّك ـ دائماً ـ بما يحسَبُه مبادئ لا تَقْبَل النَّيْل منها، وقليل الاهتمام بأمر أحمد، بل كثير التجاهُل له. وهو إنْ يَنْسَى، لا ينْسَى أن محمد نجيب أهانه يوماً أمام زملائه جميعاً حين اتَّهَمَه بالجُبْن لأنه يخشى السياسة، ويهاب الإضراب، ويرتضي الذِّلّةَ والصّغار كلما دار الحديث بين الموظفين حول

حقوقهم، واختار هو ـ نفسُه ـ أن لا يشايعهم في مطالبهم مخافة أن يدفع الثمن!

حَمَل أشتات حيْرته المُبَعْثَرَة إلى صديق عمره السّي الهاشمي ليسأله الرأي في ما لا يتبيَّن له فيه أفقُ جوابٍ مُقْنِع، أو ـ على الأقل ـ مبدِّدٍ لغموضِ ما يدور أمامه من مشاهد، وما يَطْرق سمْعَهُ من كلام. أخبره بأنه لم يَعد يتحمّل الكمّ الهائل من الكلام الذي أصبح يسمعه عن ابنه من زملائه في العمل، وحَرِص على تسميتهم، واحداً واحداً، ليكون صديقه الهاشمي على بيّنةٍ من أمرهم. وحين نبَّهه الأخير إلى أن حديث الزملاء عن ابنه أمرٌ مبرَّرٌ للمكانة التي باتت لِحَسَن في أوساط الناس والرأي العام، صارحَهُ أحمد بمشاعر الشك التي تنتابه من المديح الزائد الذي يكيله زملاؤُهُ له باسم أبوّته للابن. غير أن السي الهاشمي ردّ على كلامه، بغير قليلٍ من الاستغراب، متسائلاً عمّا إذا كان أحمد يشك في صدق ما يقوله محمد نجيب، والمعروفي، وآخرين عن شابٍّ بات مَضْرِبَ مثلٍ في الرجولة والشهامة عند الجميع، وعمَّا إذا كان هو يملك ـ بمعزلٍ عن ابنه ـ ما يُغْري زملاءَهُ بكيْل المدائح له. ولم يفُت الهاشمي أن ينبّه صديقه أحمد إلى أن محمد نجيب لا يمكن أن ينافق أو يداهن، إنْ كان يسع المعروفي أو عبد اللطيف أو مجيد أو غير هؤلاء من زملاء العمل أن يفعل ذلك... ولو من باب المجاملة.

✤

«ربَّ ضارَّةٍ نافعة». لا يدري متى قرأ العبارة وأيْن، أو كيف انتهت إلى سمعه. لكنه يُسَلّم أنها أنسب ما يمكن أن يقال فيه وهو يعاين كيف تستحيل محنته إلى فرصة نادرة للشعور بالمكانة والاعتبار، بعد زمن لم يكن فيه شيئاً، أو ـ على الأقل ـ لم يكن فيه كذلك عند الأغلب ممن عرفهم من الناس. ما أغرب أن يصبح للمرء شأنٌ فجأةً ولم يكن شيئاً! وما أغرب أن يَعْلُوَ شأنُهُ بابنه، الذي لم يكن يقيم له كبيرَ اعتبار، ولم يكن يرى فيه

أكثر من ولد غرّ، عديم الخبرة والتجربة! كيف لم ينتبه إلى ما يختزنه هذا «الولد» من المَلَكات؟ كيف صَغُر شأنُه طويلاً عند، واستهان به؟ هل كان ذلك بسبب قصورٍ منه، بحيث لم يُفْلح في أن يلاحظ علامات الرجولة المبكّرة والنبوغ فيه، أم أن مَيْل الابن إلى العزلة والصمت هو ما مَنَعَه من أن يلْحظ فيه تلك العلامات؟ ربما، وربما كانت عزلتُه، ولُوَاذُه الدائم بغرفته، واستغراقه في القراءة، وقلّة اختلاطه بالأصدقاء. . . ، وهو ما صَنَع منه شاباً مهمّاً، في نظر الناس أوّلاً، ثم في نظره هو بالتَّبَع. لا يمكن أن يكون الجميع على خطإٍ في حسبان حسن شاباً ذا شأن. لعله وحده المخطئ في التقدير، والمقصِّر في تبيُّن مواهب «الولد».

كان عليه أن يقترب من ابنه أكثر حتى يتعرف إلى أفكاره، ونظرته إلى الحياة، وطريقته في التفكير، وميوله وأهدافه. من المعيب أن يعرفه الآخرون أكثر ممّا يعرفه والده. أن يغيروا نظرته إليه من ولد غرّ إلى رجل ناضج، من ابن يخاف عليه من طيشه وغفلته إلى ابن يفخر به بين الناس. هل كان الخوف عليه سبباً في إساءة معرفة ما لدى حسن من علامات التفوق؟ وهل كان لذلك الخوف من معنًى أصلاً؟ هكذا ألقى التّي الهاشمي بالسؤال في وجهه حين كان يحاول أن يبرّر له أسباب عدم الانتباه إلى أن حسن نضج، وبات رجلاً راشداً. ذكّره الهاشمي بأن شهوراً أربعة مرّت على ميلاد الحركة، كانت مليئة بالأحداث والمظاهرات، ولم يحصل مكروه لحسن أو لأحد من رفاقه. انتبه إلى هذه الحقيقة وقد ذهل عنها طويلاً. ترى؟ هل تغيّر المخزن وبات رحيماً بخلق الله؟ نقل السؤال إلى الهاشمي ـ الذي عادةً ما يستعير رأسَهُ ليفكر عنه في مثل هذه «النوازل» ـ وأجابه بأن كلّ شيءٍ في البلد قد تغيَّر: المخزن، والناس، والشباب. ها هو الآن يوشك أن يقتنع بوجاهة رأي صديقه. لاشك عند أن المخزن تغيَّر عمّا كان عليه أمرُه في زمن العَصَا لمن عَصى، حين لم يكن يسع أحداً أن يرفع الصوت من دون أن يتحسّس رأسه فوق منكبيْه. ولاشك أن الناس تغيّروا كثيراً حين كسروا

عنهم شرانق الخوف، وباتوا ينظرون إلى معارضي النظام والعصاة كأبطال تليق بهم مشاعر الإعجاب، لا كميكروبات فتاكة يُسْتحسن إبلاغ المقدّمين ورجال الأمن عنها. أمّا الشباب، فلا يحتاج إلى دليل على أنهم تغيَّروا إلى حدٍّ بعيد؛ يكفيه ابنه حسن دليلاً.

- ٢٢ -

لم تتعود مريم على أن تنشغل كثيراً بما تكتبه الصحف عن الحركة، مثل سائر رفيقاتها ورفاقها الذين لا يتوقفون عن متابعة ما يُكتب، كانت تقرأ - مثلهم - الأخبار عنها، والتعليقات عليها، والآراء فيها، ممّا تنشره الصحف والمجلات، وتذيعه محطات الراديو، وتبثُّه القنوات التلفزية. لكنها فعلت ذلك بدافع الفضول فحسب، ولم تتوقف عنده كثيراً، ولا أعارتْهُ كبيرَ أهمية. وحين كان رفاقها يفتحون حديثاً حول صورة الحركة في وسائط الإعلام، لم تكن تجد في مثل تلك الأحاديث سوى إضاعة للوقت، وبعضاً غيرَ قليلٍ من النرجسية الجماعية لا يليق بحركةٍ ديمقراطية أن تسقط فيها. بيد أنها ما لبثت أن انصرفت إلى الاهتمام بالأمر، في الأسابيع الأخيرة، بعد أن لاحظت كيف بدأ الإعلام يتجاهل الحركة، وينشغل بمسائل أخرى من نوع مقترحات الأحزاب للتعديلات الدستورية. خُيّل إليها أنّ الأمر مبيَّت ومقصود لمحو اسم الحركة من الاهتمام العام، ونما لديها الشعور سريعاً بالحاجة إلى الردّ على ذلك التجاهل لإسقاط أهدافه. تذكرت أن جمال كان أكثر شباب الحركة انشغالاً بموضوع الإعلام، حتى أنه كان يُعِد ملفات كاملة من قصاصات الصحف، والمقالات، والتغطيات الإعلامية

للمسيرات، والمواد المنشورة في المواقع الإلكترونية، الأمر الذي دفع أمجد إلى أن يسمّيه يوماً مؤرّخ الحركة، خاصة بعد أن اعتنى بتطوير الموقع الإلكتروني للحركة على شبكة الإنترنت.

سألته مريم رأيَهُ في التجاهل الإعلاميّ المتعمّد للحركة، وفي ما ينبغي فعله للرّد عليه، ففوجئت به يجيبها بأن الحركة لا يضيرها في شيء أن لا يتحدث عنها أحد، لأنها في وجدان الشعب كلِّه، والزيارات الكثيفة لموقع الحركة الإلكتروني يشهد بأن الناس مهتمون بها كثيراً عكس ما تعتقد هي. وحين قالت له إن الشعب لا يتردّد على المواقع الإلكترونية لكي يعتقد هو أنه مهتم بالحركة، رد بأن الشعب لا يقرأ الصحف أيضاً. «وكيف يعرفنا إذن؟!» تساءلت مريم. «من المظاهرات والمسيرات ومما يبثه فيه المناضلون من مواقف»؛ قال.

لم يَخْفَ عليها ما في تراجع أخبار الحركة في وسائط الإعلام من مؤشّرٍ غيرِ طيب على اتجاه الأوضاع السياسية في البلاد وجهة أخرى غير تلك التي قدّرتِ الحركة، وعملت طويلاً من أجلها. ومع أنها لم تبرح الشعور الطاغي، الذي سيطر عليها طيلة الأسابيع الأربعة الماضية، بأن في الأمر قراراً رسميّاً بإعلان الحرب على الحركة، من خلال مَحْو اسمها وذكراها، إلاّ أن ملاحظةً عابرةً من أمجد نبَّهَتْها إلى حقيقةٍ كادت أن تذهل عنها؛ هي أن الذين تتَّهِمُهُم -هي- بمحاولات تصفية الحركة، من خلال تبخيس دورها وتبهيت صورتها، هم أنفسُهم الذين يتهمهم خصومُها بتهمة الإفراط في تلميع صورتها وتسويقها في أوساط الناس. ومن هؤلاء الخصوم مَن ذهب إلى حدِّ القول، بلغة القطع والجزم، إنّها لا تعدو أن تكون ظاهرة إعلامية لا يتناسب حجْمُ دَوِيِّها الدّعائي مع حجم جسمها الحركيّ الواقعيّ. انتبهت إلى ملاحظة أمجد، بقلق بالغ، بعد أن تبيَّنَت فيها بعضَ وجْهِ الصحّة، وبعد أن تذكّرت أن أكثر الصحف التي كرَّستْ صفحاتها الأولى، ومانشيتاتها للحركة، قبل شهرين، ثم تجاهلتها اليوم أو

أفردت لها حيّزاً متواضعاً، لم يكن من صحف السلطة أو من المحسوب على السلطة من صحف البلاد.

لا شك أن أمجد لم يجانب الصواب، ولم يَعْدُ الواقع، حين توقّع أن يتراجع نفوذ الحركة بعد الإعلان عن تعديل الدستور. كان ينبغي أن يُحْسِن الرفاقُ الإصغاء إليه، وأن لا يستعجلوا الحكم على مواقفه بالسّلب. هي لم تكن مُوَافِقَة على رأي معظمهم فيه، ما خلا رأي حسن وتوفيق ونبيلة الذين وجت بينهم وبينها مساحات تفاهُم. كان يحسُن بهم أن يناقشوا مواقفه أكثر ممّا فعلوا، وأن لا يسمحوا لمثل وليد وياسر وجمال أن يسمّموا الأجواء، فيدفعوا بأمجد إلى الانسحاب التدريجي من حياة الحركة ويومياتها. لا شك أن الأوضاع ستصبح أسوأ حين يُعلَن رسميّاً عن نصّ الدستور، ويُعْرَض على الاستفتاء العام. من ذا الذي سيهتم بمواقف الحركة حينها؟ وليد على خطأ حين يتصوّر أن «صفقة الدستور الفاسدة» بين النظام والأحزاب ستمدّنا بدفعة حركية جديدة. لا دليل على ذلك ممّا نراه اليوم. لعله يردّد كلام غيره من التنظيمات السياسية، التي تركب صهوة الحركة، ولا يهمّها منها سوى أن تكون الحامل الاجتماعي لمواقفها. أمجد على حقّ حين يصفها بأنها تنظيمات بائدة، شاخت وغَزَتِ التجاعيدُ وجهها، فوجدت في الحركة فجأةً مساحيقَ التجميل التي تحتاجها! لكن أمجد، الذي ضاق ذرعاً بها وبأنوفها المدسوسة في شؤون الحركة، وظلّ طويلاً يحذّر من الاستسلام للعلاقة بها، لا يعرف أن نفوذها تَزَايَد أكثر بعد غيابه عن الحركة، وبلغ المدى الذي كان يخشاه.

لم تنزعج مريم كثيراً من الإشاعات السخيفة التي أطلقها المعادون للحركة، في الأسابيع الأخيرة، زاعمين أنها تدعو إلى حرية التصرف إزاء فريضة الصيام في رمضان، ومنع إكراه الناس على التزامها. رأت فيها حرباً ضعيفَة الحجَّة والوسائل، ولم تُقَاسِم حسن وإيمان شعورهما بأنها طعنة غادرة قد تُفْسِد على الحركة سعْيها في كسب المزيد من الأنصار.

نظرت إلى التجاهل الإعلامي بتحسُّس أكبر، وتوجَّست منه على نحو كاد أن يستغرب له الجميع من رفاقها والرفيقات، خصوصاً بعد أن عُرِف عنها قِلّةَ العناية بأمْر الإعلام. حين سألتْها نبيلة عن سرّ هذا التحوُّل المفاجئ في موقفها من تعامُل الإعلام مع الحركة، من اللامبالاة الكاملة بالمسألة إلى الانصراف الكلّيّ لها، أجابتها بأنها ليست منزعجة من موقف الصحافة من الحركة، وإنما ممّا يعنيه انصرافُها بعيداً عن شؤونها من تراجُع في مكانتها لدى الرأي العام. أردفت قائلة بصدقٍ، لم يَخْلُ من بعضِ خُبْثٍ مهذّب، إنها الآن تُدرك ما كان أمجد يحذّرهم منه قبل فترة، حين أُعْلِن عن الإصلاح الدستوري، مستنتجةً أنه كان على الجميع أن يُصْغي إلى هذا الرجل الذي كان عقلَ الجماعة وضميرها. ولم يفتها أن تلاحظ علامات التأثر العاطفي التي ارتسمت على ملامح صديقتها وهي تصغي إلى كلماتها المنصفة.

رحلة الألف ميل

- ٢٣ -

على عتبة باب البيت، وهما تغادران، التفتت إيمان إلى نبيلة قائلة:

- من الأفضل أن لا يعلم الرفاق أننا التقينا هنا. أعني الآن على الأقل. تفهمين قصدي لا شك.

- أفهم، اطمئني.

لا تدري إيمان كيف تخونها شجاعتُها، اليوم، فتضطر إلى أن تخفيَ عن رفاقها لقاءَها بأمجد في بيته. كان يمكن لواقعةِ اللقاء أن تكون عاديةً، فلا تثير استفهاماً لولا الأوضاع الجديدة التي نشأت في الحركة، عقب الإعلان الرسمي عن نصّ الدستور المعدّل، وما أثارهُ من جدلٍ داخلها: في الرباط والبيضاء وطنجة وسواها من الساحات الرئيس للحركة. كان يمكنها ألاّ تكون موضع تساؤلٍ أو استغراب؛ فأمجد مناضل مؤسِّس، واعتكافُه ليس قرينةً على مغادرته الحركة، واللقاءُ به ليس مَوْطنَ شُبهة. أما استقلالُه برأيه النقديّ لخطّ الحركة ومواقفها السياسية، فهو جزءٌ أصيل من تقاليدها. غير أن ما قالتْهُ قبل أيّام ثلاثة، في اجتماعٍ وطنيّ تنسيقي في الدار البيضاء، واستكملت شرحه والتعبير عنه أول أمس في اجتماعٍ لتنسيقية الرباط، وما

رُدَّ به عليها من كثيرين، عارضوا رأيها بشدّة وحَمَلُوه على غير مَقْصِدِه، أوحى إليها بأن ضِيقَ صَدْر الكثيرين من نشطاء الحركة بالرأي المخالف سيزداد أكثر فيما لو عَلِمَ هؤلاء بأنها الْتَقَتْ أمجد وناقَشَتْه. ومَن يدري إنْ كان هناك من سيتبرَّع بتصويره تنسيقاً موازياً، وفعلاً انشقاقيّاً، وخاصة أن بعضاً من ذوي الرؤوس الساخنة لم يعد يجد من تسليةٍ مفضّلة غير النبش في سيرة أمجد، والنَّيْل منه بالإشاعات والتخرصات!

فكّرت في أن تلتقيه منذ أسبوع، بُعَيْد الإعلان عن النصّ الدستوري المعدَّل، لكنها آثرتِ التريث إلى أن تتبيّن الصورة من مناقشات الحركة. تعرف أن أمجد وحده يمكنه، في مثل هذه الظروف، أن يقول شيئاً مفيداً وعاقلاً. ليست متأكدةً من أنه يقاسمها رأيها المعارض للدستور، لكنها على قدرٍ من اليقين أنهما لن يختلفا كثيراً في تقدير الخطوة القادمة التي عليهم أن يُخْطوها جميعاً؛ فأمجد التزم، طيلة الفترة الماضية التي احتجب فيها، بأن يتحدث في الحوارات التي أجريت معه، في ثلاث مناسبات، باعتباره عضواً منتمياً إلى الحركة من دون أن يقدّم رأيه بوصفه رأي مجموعةٍ أو تيار. وإذا كان رفاق آخرون انزعجوا من أحاديثه، ودعوا إلى الردّ عليها ببيانات حقيقة توضيحية، فقد ظلت ترى فيها ـ وتحاول أن تقنع الآخرين برأيها ـ مثالاً للالتزام بمبادئ الحركة وقيمها. وكان ذلك ما شجعها على الاتصال الهاتفي به مرتين للثناء على مواقفه.

لم تسأل رأيَهُ في الدستور المعدّل، حين التقت به وبنبيلة في بيته، مخافةَ أن يختلفا في المسألة وينقطع حبل الحوار بينهما. ولم تحاول ـ احترازاً ـ أن تعرف رأيه، بشكل غير مباشر، من طريق نبيلة أو حسن. فضلت أن تترك الأمر له كي يفصح عن موقفه إن رغب في ذلك أثناء الحديث بينهما، واهتمت، أكثر، بمعرفة رأيه في ما ينبغي عمله بعد الإعلان عن الدستور. وتشجيعاً له على الحديث في الموضوع، بادرت بإخباره أن الجوّ السائد في الحركة هو التعبئة من أجل مقاطعة الاستفتاء على الدستور، وأن القرار لم

يُتخذ في هذا الشأن، حتى الآن، وإن كان الأرجح أن يكون كذلك. أخبرها أنه علم بالأمر، وأنه غير مرتاح من جوّ النقاشات في الحركة، كما تُنْقَل إليه بعضُ وقائعُها، وأنه يفضّل أن ينسى الرفاقُ معركةَ الدستور في الوقت الراهن لينصرفوا إلى قضايا أخرى لا تقل أهميةً. ولمزيدٍ من الوضوح قال موفّراً عليها الكثير من الانتظار:

- أشعر أن النص المعدَّل للدستور، وإن كان يستجيب لبعض مطالبنا ومطالب القوى الديمقراطية، لا يرضيني تماماً، ولا يُشْبع انتظاراتي شخصياً. لكني أسلّم بأن السجال حوله، اليوم، لم يَعُد ينفع بعد أن بات أمراً واقعاً.

شجعها كلامُه على الاستزادة في الوضوح، فسألتْه تفسير أسباب بعض اطمئنانه إلى الدستور، وبعض اعتراضه عليه. أجابها:

- أشياء كثيرة في الدستور تريحني: تعبيره عن مطالب قسمٍ عريض من القوى السياسية، بعد أن كان يمثّل رأيَ فريقٍ واحد من المجتمع، هو النخبة الحاكمة، مراجعته مبدأ السلطة المطلقة وكثافة مركزية دورها، تمكينه الحكومة ورئيسها من سلطات واسعة، مَأْسَسَتُه دور المعارضة وتعظيم حقوقها، إخضاع السلطة الدينية للنطاق المؤسّسي، إقرار الحقوق الثقافية واللغوية... إلخ. وأنا لا أملك أن أتجاهل كلّ هذه المكتسبات. غير أني، في الوقت عينِه، أشعر بأنه لم يُنْصف مطالبنا كحركة إلاّ إنصافاً لفظياً، كوصفه الملكية في البلاد بأنها برلمانية إلى جانب أوصاف مترادفة أخرى، أو كتحايله على مطلب استقلالية القضاء، أو كتكريسه ازدواجية السلطة التنفيذية...

- هذا يعني أن معارضته مشروعة.

- هي مشروعة، من الناحية المبدئية، لكنها لم تعد مفيدة من الناحية العملية، على الأقل في الوقت الراهن.

- ليس لما هو مبدئي وقت راهن ووقت مؤجّل يا أمجد.

- عند تنزيل المبدأ على السياسة يكون الأمر كذلك، ويصبح التمييز واجباً.

- هذه براغماتية لا تناسِبك.

- ولماذا تفترضين أنها براغماتية وليست واقعية؟

- الواقعية ليست الاعتراف بالأمر الواقع، وإنما العمل على تغيير الأمر الواقع بتسخير الممكنات الواقعية كافة.

- ها أنت تهتدين إلى مفتاح المسألة: الواقع هو الممكن.

- لا، في وسع الإرادة استيلاد ما ليس ممكناً في الواقع.

- تقصدين الواجب. في رأس كلّ إنسان واجب: تشرَّبه من الدين، أو من الأخلاق، أو من المبادئ الاجتماعية. لكن الواجب يظل قابعاً في الرأس، ولا يصير ممكناً إلا متى نشأت ظروفُ إمكانِهِ في الواقع.

- لا أريد أن ينصرف حديثنا إلى جدلٍ فكريّ. أسألكَ موقفَك من الواقع الذي نحن فيه، اليوم، بعد الإعلان عن دستورٍ لا يحظى بموافقتنا، ولا يُنصفنا في مطالبنا مثلما قلتَ أنتَ نفسك.

- دعيني أوضّح أنني لستُ سلبيّاً تماماً تجاهه، وليس اعتراضي عليه موقفاً عدميّاً منه. إنني أفهم أن لا يرضينا النصّ الدستوري، لأننا لسنا وحدنا في الحياة السياسية، بل ثمة آخرون لابدّ من أن يُؤْخذ رأيهم في الحسبان عند وضعه؛ فهُمْ شركاء فيه من خلال مقترحاتهم التي قدّموها للجنة التعديلات. ثم دعيني أقول إن حصَّةَ مساهمتنا فيه كانت ستكون أعلى فيما لو شاركنا في الاستشارات، أُسوةً بغيرنا ممّن شاركوا من القوى السياسية. غير أن الحسابات الصغيرة، والأفقَ الضيّقَ للتفكير، حَالاَ دوننا وتلك المشاركة، وهذا أراح كثيراً ممّن لم يكونوا يرغبون في قيامنا بأي دور سياسيّ إيجابي وفعّال عَدَا الدور الاحتجاجي.

ـ كنتَ تريدنا أن نشارك في صفقة سياسية فاسدة؟

ـ وهل تعتبرين الاستشارات السياسية حول الدستور صفقة؟ ثم لماذا هي فاسدة؟

ـ أليس دستوراً ممنوحاً؟

ـ لا، ليس كذلك. بل هو دستور توافقي.

ـ نعم، هو كذلك، توافقت عليه الأحزاب المخزنية.

ـ لا أظنك صادقةً في ما تقولين! هل القوى التقدمية والديمقراطية مخزنية؟ أترك لأخلاق الموضوعية فيك أن تجيب. يكفيني أن أسجّل أن صيغة الدستور الحالية تقترب كثيراً ممّا اقترحتْه المعارضة قبل خمسة عشر عاماً، قبل أن تتحمل المسؤولية الحكومية، وليس هذا قليلاً في ما أزعم.

انتبهت إيمان إلى أنها تؤدي الدور الذي لا ترضاه لنفسها في تلك اللحظة التي تشعر فيها بوطأة المتغيرات. عدّلت لهجتها ثم سألته:

ـ ما الذي تستفيده الحركة من كل هذا الذي يجري اليوم من أحداث، وما يذاع من مواقف، بعد الإعلان الرسمي عن الدستور؟

ـ على الحركة، ابتداءً، ألاّ تنسى بأن أيّ مكسبٍ حصل عليه الشعب، في هذا الدستور، إنما هو ثمرةُ عملها ونضالاتها؛ فهي التي يعود إليها شرف فتح ملف الإصلاحات بعد أنِ امتنع أمرُهُ على غيرها. وأنا، هنا، لا أريد أن أغمط أحداً حقه وأَرْفَعَ من سهمها؛ فلقد ناضَل غيرُنا قبلنا، وقدَّم جسيمَ التضحيات، على امتداد عقودٍ من الزمن، كي يحصل المجتمع والشعب على دستورٍ عصريّ، ونحن من نضاله تعلّمنا وخرجنا إلى الوجود. غير أن الحركة وحدها مَن نجح في استثمار ظرفية الثوْرات العربية كي يرمي حجراً في بركة السياسة الآسنة، وكي يفرض القدرَ الضروريَّ من الضغط الاجتماعي لتحريك الراكد من مطالب الناس. ولكن عليها ألاّ تنسى، في

الوقت عينِه، أن أيَّ نكسةٍ في المطالب الدستورية إنما حصلت بمساهمةٍ أصيلةٍ منها من قبيل العزوف عن المشاركة في تقديم مقترحات محدَّدة في المجالات والسلطات التي لم يَطْرَقْها أحد، إمّا لأنه ليس مؤمناً بالحاجة إلى تغيير الأوضاع فيها، وهذه حال أحزاب السلطة، أو لأنه لا يَقْوى على انتهاك الحُزْم السياسي المضروب حولها، وهذه حال الأحزاب الديمقراطية المشاركة في المؤسسات. وأنا أميل إلى الظّن أنّ حُجَّتَنا كانت ستكون أقوى فيما لو شاركنا في الاستشارات الدستورية؛ فحين سنعارض الدستور، لن يتهمنا أحدٌ بأننا سلبيون أو عدميون، بل سيسلّمون أننا كنّا إيجابيين وجَهْرنا برأينا أوّلاً، وبأننا نعارض ـ ثانياً ـ لأن أحداً لم يأخذ برأينا الذي أبديناه في إطارِ رسميّ من دون مزايدات.

ـ ربّما لن نختلف كثيراً في تقييم ما جرى إلاّ في بعض الجزئيات والتفاصيل. لكني أسألك رأيَك في ما الذي نستفيده من دستورٍ لم يستجب ـ عموماً ـ لمطالبنا؟

لم يَفُتْهُ أن يلاحظ عبارات جديدة على سمعه من إيمان من قبيل «لن نختلف». إنه لأمْرٌ يدعوه إلى الارتياح، هو الذي عرف عنها تَشدُّدَها في الرأي، وميْلَهَا إلى الحَدّية في المواقف، ثم ما يشبه اختلافها الدائم معه. لم يكن في حاجة إلى كبيرِ جَهْدٍ ليُدرك أن مفرداتها الجديدة ليست بنتَ مصادفة، وأنها تعيش لحظةَ تيقُّظٍ وانتباه تجاه ما يجري، ولا تنساق مع الأحداث والعواطف. قَابَل استدراكها وتساؤلها بالقول:

ـ أنتِ أدرى مني، يا إيمان، بأن قضيتنا أكبر من مجرّد الحصول على دستورٍ ديمقراطي يرضينا، وبأننا لسنا مَنْ طَرَحَ أصلاً هذه القضية في المعركة السياسية. وأنا لا أريد أن أقول إننا خسرناها كقضية، وإنما أزعم أننا لم نكسبها تماماً لأننا لم نُعِدّ لها العُدّة، أو ربّما لأنها فاجأتنا وأحدثت في صفوفنا الارتباك، ولربّما أيضا لأننا لم ننجح في أن نكوّن حولها رأياً

جماعيّاً خاصّاً بنا ومستقلاّ عن قوّى أخرى ارتبطت بنا، وأفْلحْت في جذب أكثرنا نحو مواقفها. لكن الذي يهمّني أكثر هو أن لا نقف عند شجرة الدستور فتحجب عنا غابة المطالب الديمقراطية الأخرى التي تنتظرنا معاركها.

- هل تقصد أن علينا أن نطوي ملفّ هذا الموضوع، وأن الدستور أصبح أمراً واقعاً؟

- أمّا أنه أمرٌ واقع، فذاك ممّا لا يقبل الجدل والإنكار، وغداً سَيُجَاز في الاستفتاء العام بنسبٍ قد تفاجئنا. وأمّا طيُّ ملفّه، فليس بالقرار السليم؛ إذ سيظل من أوجب واجباتنا أن نستمر في النضال من أجل دستور أكثر تَوازناً وتعبيراً عن إرادة البناء الديمقراطي. غير أن من المفيد إرجاء هذا الموضوع الآن، لأن ظرفيته لم تعد متوفرة بعد الذي جرى. وستكون حالنا، إنْ تمسّكنا به اليوم، حال من أخطأ موعد الحج فَوَصَل في محرَّم!

- أليست الدعوة إلى مقاطعة استفتاء الجمعة القادمة موقفاً سديداً، مبدئيّاً على الأقل؟

- ربما، لكنني أميل إلى عدم الإقدام على ذلك.

- لماذا؟

- أُفضِّل إصدار بيان موضوعي يسجّل ما للدستور وما عليه، ويعلن أن الحركة ستظل تناضل من أجل تعديلات جديدة أكثر تجاوباً مع مطالب التغيير، ومع انتظاراتها هي كحركة.

سيكون ذلك مباركةً منا له، حيث لا يستحق، وخذلاناً لجمهورٍ عبّأناه وناضل معنا عن هدف دستوريّ أبعد بكثير.

- ليس كلّ ما يتمنى المرء يدركه، يا إيمان، على قول الشاعر. الذين ناضلوا معنا عن هدفٍ ديمقراطي أبعد، ناضلوا - قبل هذا - عن الاشتراكية، لكنّ هذه لم تأت أو تُبْصِرِ النور. غير أن نضالاتهم لم تذهب سدًى، كما

لم تذهب سدًى نضالاتُنا. ولقد قلتُ لكِ إنه لَوْلانا، لولا الذي قُمْنا به من مبادرات وحَرَاك، ما كان يمكن حتى لمثل هذا النصّ الدستوري أن يكون. وأنا، كما لا شكّ تعلمين، لست عدمياً ولا سوداويَّ الرؤية؛ إنّ الذي حصلنا عليه في الدستور ليس قليلاً، وإن كان لا يرضينا كلُّه. لكني أعود إلى التشديد على ما سبق أن قُلْتُه: ما ينتظرنا غداً أكبر بكثير من هذه المماحكات الصغيرة حول الموقف من الدستور والاستفتاء، وما علينا اتخاذه من موقف إزاءه بالمشاركة والمقاطعة، فهذه هي ما شبهته بالشجرة التي تخفي الغابة.

ـ وما الغابة التي تخفيها شجرة الدستور؟

ـ هي طَيْفٌ واسع من مطالب التغيير الديمقراطي، سيكون علينا الانصراف إلى العمل من أجل تحقيقها، مثل محاربة الفساد ومحاكمة المفسدين والمتصرفين، من دون وجه حقّ، في الثروة والمال العام، ومحاربة المحسوبية والزبونية وتفويت الامتيازات الاقتصادية والمالية للأقرباء والأصدقاء، ومحاربة الرشوة واستغلال النفوذ، ثم مقاومة الفوارق الطبقية الفاحشة بين الأثرياء والمُعْدَمين والمنبوذين، ومواجهة آفة البطالة والتهميش الاجتماعي. إنّ احترام حقوق الإنسان، وحرية الرأي والصحافة، وإقرار نظام للاقتراع الحُرّ والنزيه، وإنهاء ظاهرة السلطة المطلقة واحتكار القرار، وضَخّ التوازن بين السلطات، ومنح الحكومة ورئيسها سلطة تنفيذية معتبرة... من المكتسبات التي لا غنًى عنها لتطوير الحياة السياسية. لكنها لا تكفي، بل لا يكفي أن نصل فجأة إلى مبتغانا فيقوم نظامٌ للملكية البرلمانية في البلاد، إذا كانت المسألة الاجتماعية في حُكم المعلّق والمنسيّ. وهذا، مِن أسفٍ، ما تُشيح عنه الحركة في مطالبها وشعاراتها، حتى وإن هي طالبت بالعدالة الاجتماعية، ورفعت شعارات محاربة الفساد وصُوَرَ من حَسِبَتْهُم ـ عن حقٍّ أو عن تزيُّدٍ ـ في جملة رموز الفساد في البلاد.

ـ وهل يمنع أن تربط الحركة عضوياً بين المسألة السياسية والمسألة الاجتماعية؟

ـ بالعكس، هذا هو المطلوب. ولكن، أين هي المسألة الاجتماعية التي لا تكاد أن تُلْحظ من فرط ما هي رمزية في عمل الحركة؟

ـ ولكن هناك دائماً أولويات في العمل السياسي، ولقد ألحَّت علينا المسألة الدستورية، في الأشهر الأربعة المنصرمة، ولم يكن لنا بدٌّ من التفرغ لها.

ـ أوافقكِ الرأي. ولكن هذه المسألة توشك اليوم أن ينصرم ضغطها، وليس من الحكمة أن نبقيها على جدول أعمالنا وكأنها رهاننا السياسي الوحيد. وغداً سيتناقص الجمهور الذي تَعَبّأ من أجلها حين يصبح الدستور أمراً واقعاً. وعلينا أن نُحْسن الحفاظ عليه وعلى جهوزيته الحركيّة بتقديم مشروع عملٍ يخاطب مصالحه، وليس مثل المطالب الاجتماعية محرِّكٌ فعّال في كل الظروف والأحوال.

ـ نخشى أن نتحول إلى حركة نقابية إن أخذْنا برأيك.

ـ سأفترض أنك تمزحين بهذه الملاحظة.

ـ ولماذا أمزح؟

ـ إذن، لنقل إن الحركة سَتُنَشِّط الحياة النقابية الراكدة بهذه المطالب، مثلما نشّطتِ الحياة السياسية بمطالبها السياسية.

ـ هل أنت جادّ في ما تقول؟

ـ وهل تعتقدين أن في صميم عمل النقابات المطالَبَةَ بمحاربة الفساد والرشوة وبمحاكمةِ المتورطين في هدر المال العام؟ هذه مطالب سياسية، ذات مضمون اجتماعي، وليست من مشمولات عمل النقابات.

✤

تابعت نبيلة، خلال ساعتين، وقائع الحديث المتبادل بتيقُّظٍ بالغ. لكنها لاذت بالصمت والحياد، متقصّدةً، بعد أن أدركت، منذ البداية، أن إيمان تحمل أسئلة هذه المرّة أكثر ممّا تبغي المنافحة عن موقف. تضامنت معها في غير كلامٍ أو شَهْر، وضَعَتْ نفسَها موضعَها، واستسلمت لتيار التساؤل يأخذها إلى جولةٍ بعيدةٍ في رحاب ممكنات كثر. تعرف، بالخبرة ومعاشرة أمجد، أن أفضل طريقة لتكوين رأيٍ هو النظر إلى المسألةِ عينها من زوايا مختلفة، تدوير السؤال حولها في رؤوس مختلفة. وهي، فوق ذلك، تعلم أن الحوار الجاري أمامها يخوض فيه أكثر مَن يَعْرف منهم جميعاً من أين تُؤكل الكتف. لماذا، إذن، لا تجد متعةً في الاستسلام لمنطقين متماسكين يتجادلان. في قرارة نفسِها شعور بأن إيمان محبَطة، مثلها، ممّا يجري، وإلاّ ما كانت مجرَّد متسائلة في حديثٍ مع شخصٍ كان يطيب لها، دائماً، أن تعارضه في رأيه وتردّ حجَّته. تعاطفت معها، لذلك السبب، لأنها عانت ما تعانيه اليوم. ولعل أمجد عانى الأمر نفسَه قبلهما، وسيعاني حسن وتوفيق ومريم وعشرات آخرون في الرباط والبلد الشيءَ عينَه ما بقيتْ أوضاعُ الحركة على حالها.

لم تكن إيمان من النوع الذي يخفي سريرتَهُ أو يكابر، حين حاولت نبيلة أن تعفي نفسها من الشعور بالحرج، وهي ترى أمامها رفيقةً قائدةً في حالٍ من الحيرة والاستفهام، وهي التي كان لها سلطان الفَصْل، فتدَّعي أنها مضطرّة لمغادرة البيت لقضاء حاجة ضرورية، كي تترك لإيمان حرية الحديث الطليق، رفضت الأخيرة بشدة، وأصرَّت على بقائها في البيت، ثم هددتها - حين مَانَعتْ - بمغادرة البيت معها. قالت لها، جادّة، إن هذا الحديث ليس خاصّاً، وهو يتعلق بشأن جماعيّ مشترك. وقالت لها، مازحة، كيف تجرؤ على أن تترك أمجد في البيت مع امرأةٍ أخرى من دون أن يهجس في نفسها السؤال عمّا يمكن أن يقع بينهما في غيابها. وأمامها قالت كلّ شيء ينمّ عن حيرتها تلك.

حين رافقتها نبيلة إلى محطة سيارات الأجرة، سمعت منها أشياء كثيرة لم تتوقعها منها. قالت إيمان إن صوت أمجد هو صوت العقل والحكمة في الحركة، وأن رزانته، وكياسته، ورجاحة رأيه، لم تَلْقَ البيئة المناسبة كي تزرع ثقافةً وسلوكاً سياسيَّيْن. وقالت إنها فقدت، بغيابه عن لقاءات التنسيقية، البُوصَلة التي بها تهتدي. اعترفت لها، لأول مرة، أنها لم تكن تعثر على السبيل الصحيح إلاّ حين تصغي إلى رأيه، وأنها اندفعت غير مرّةٍ نحو مواقف عارضته فيها علناً، لكنها شاطرتْهُ إياها في الصميم، وآثرتْ ألاّ تُفْصح عن ذلك مخافة أن يدبّ الخلاف، مستغلّة أنّ رأيه فيها كان رأي أقلية عددية. ولم تُخْف أنّ غيابه أتى بنتائج وخيمة على الحركة، لأنه فتح الطريق أمام التعنّت أكثر، ورَفَعَ عن الآخرين سيف السؤال والواقعية. وهي أيضاً وجدت نفسها في موقف صعب، فلا هي تستطيع أن تتقمّص دور أمجد، الذي لا تتقنه ولا تقوى عليه، مثلما تخشاه وتخشى نتائجه عليها في جوٍّ عام لا يقبله، ولا هي تستطيع أن تجاري الموجة العامة في الحركة، حيث الكلمة للأقصى والأبعد، وحيث الطوبى أيسر في العقل واللسان من الواقع. عندما سألتها نبيلة عما إذا كانت تَحْمِل كل هذا التقدير لأمجد فيما هي تصر على معاكسته في الحديث، أجابتها بأن هذه طريقتها في استدراجه إلى الإفصاح أكثر.

قبل أن تودعها وتستقل سيارة الأجرة، التفتت إلى نبيلة قائلة: «عليك أن تبذلي كل الوسع كي تحافظي على أمجد».

ـ ٢٤ ـ

ـ «الاستفتاء على الدستور كالدستور: مهزلة سياسية جديدة تضيفها السلطة إلى سجّلها في العبث بإرادة الشعب، وإجهاض مطالبه في الديمقراطية والتغيير. والحركة لا ينبغي أن تسكت وهي ترى أمامها هذا السّيل من المهازل الذي يتدفق من أفعال السلطة وتفتح له أحزابُها الطريق. لابدّ من ردّ حاسم على ما يجري. وردّنا سيكون في الشارع مزيداً من التعبئة والحشد. حلفاؤنا وشركاؤنا متحدون في الرؤية والموقف، وفي النظر إلى ما على الحركة أن تنهض به في المرحلة القادمة». هكذا تحدث عبد الحقّ، اليساري البارز في «الطريق القويم»، خلال اجتماع «الهيئة العامة لمساندة الحركة». تعاقب آخرون على الكلام من تنظيمات أخرى مثل «حزب المقدمة» و «حزب التحالف»، وقالوا الشيء نفسه بمفردات أخرى. الجميع منزعج مما جرى، ورافض لنتيجة الاستفتاء. لكن الجميع يملك جواباً واحداً: عدم التراجع عن خيار الضغط الشعبي والنزول إلى الشارع. يتعاقبون على قوله كأنهم في مهرجان خطابي، أو كأنهم يردّدون وِرْداً وينجذبون. لا مكان يُبْقيه طقس الإجماع اليقيني على الحقيقة أمام النقاش، أمام تفاعُل أفكار مختلفة، بل متعدّدة. ليس الوقت أوان مجادلة،

لأنه ليس وقت تفكيرٍ وتدبُّر. الوضوحُ بالغٌ حَدَّه، فلِمَ يفتحون على أنفسهم باب جدلٍ لا يُسَدُّ؟!

لم يتوقف الكثيرون أمام رأي عزّ الدين بأن نسبة غير المصوّتين لم تكن قليلة، وأن هؤلاء قاطعوا استجابةً لنداء الحركة بالمقاطعة. سُئِل فقط إن كان رأيه شخصياً أم رأي التيار السياسي الذي ينتمي إليه، فرّد بأنه يتحدث باسمه، ويقدم تقديراً شخصياً للحدث. والذين لم يتوقفوا عند ملاحظته لم يفعلوا ذلك لأنها غير وجيهة، ولكن لأن نسبة غير المصوتين لا ترضيهم، ومن الأفضل أن ينصرفوا إلى اعتبارها مزوّرة، مثل نسبة المصوّتين، لأن في إغمادها في هذا الحكم خروجاً من ورطة قراءة الأرقام وما تعنيه. لذلك علّق المأمون بأنَّ دَفْعَنا إلى لعبة النسب والأرقام هو ما يريدنا المخزن أن نتلهّى به اليوم، ليصرف الأنظار عن هذه الطبخة الفاسدة. وهو قال هذا الذي قاله حتى يقطع دابر الحديث في موضوعٍ سَيَجُرّ على الاجتماع الكلام في أسئلة غير مرغوب فيها.

المأمون سيّد الناس جميعاً في مثل هذه المواقف، لأنه يحمل يقيناً راسخاً لا يضارعه فيه إلاّ غلاةُ المتدينين. هو لا يفكّر كثيراً، بل ولا قليلاً، لكنه على قدرٍ من الوثوق بأنه يقبض على الحقيقة و «هي طائرة». ولماذا يفكر الآن، والوقتُ وقت عمل لا وقت «ترّهات نظرية»؟! لقد فكّر، قبل أربعين عاماً، حين كان شاباً، وهداهُ تفكيرهُ إلى يقينيات اقتنع بها وقنع، ولم يغيّرها يوماً «ولو كره الكافرون». من يغيّر ويبدّل انتهازيّ، مارق عن صراط الحقيقة المستقيم. وإنْ تغيَّر الواقع، أو هكذا حسبه الناس، فهو قطعاً لم يتغيّر، ولكن شُبِّهَ لهم. والذين يقاسمونه بعضَ الرأي، ويخالفونه بعضه الآخر، يتحاشون أن يعالنوهُ الاعتراض لئلاّ يقول عنهم إنهم تحريفيون، هذا إذا عفّ لسانهُ عن أوصاف أخرى أشدّ مضاضة، وإلاّ قال فيهم ما لم يَقُله مالكٌ في الخمر!

حين يتحدث المأمون، يسكت الآخرون. أسبابهم في ذلك متنوعة، بعضهم يصغي إليه بانتباه شديد، لأن الكلمة الفصل في «النازلة» عنده، ولأنه - في عرفهم - ميزان الصواب والخطأ، أليس وراءه نيّفاً وأربعين عاماً من «الأقدمية النضالية» التي تعمّدت بالسجن؟! أليس الوحيد الذي تنتحرُ مفردات الشك واليأس بين شفتيه؟ أليس وحده الموجود أبداً كلما فارت أعصاب الناس ضدّ المخزن: في مظاهرة أو اعتصام أو تجمُّع، حيث الناس يتبدّلون إلاّ هو: الثابت الذي لا يتغير؟ وبعضُهم يحمد له مبدئيته ولا يجاريه في الرأي، لكنه يعزف عن الردّ عليه أو ماقشته، وإنِ اشْطَطّ، لِعِلْمِهِ أن نفاسة معدنه النضالي تشفع له، وتَوَفَّرَ لموقفه المغلوط قرائنُ البراءة. وبعضٌ ثالث يُعْرِض عنه إعراضاً، ولا يقيم له اعتباراً، بل لا يخفي مشاعر الرثاء تجاهه كرجلٍ منحدرٍ من كوكب آخر، لكنه - إمعاناً في التجاهل - يحاول أن يصمّ السمع عمّا يقوله، أو ينساه سريعاً إنْ تناهى إليه. وأكثر هؤلاء ممّن عاشروه وعرفوه منذ عقود: في ساحات النضال أو في السجن. غير أن المأمون تمتّع دائماً بالتسامح معه في قول ما يشاء، من دون أن يعرف - على الحقيقة - أسباب ذلك التسامح. بل كان يطيب له أن يفسّره، على طريقته، بالاعتقاد الذاتي أنه يصيب الحقّ والحقيقة في ما يقول. ولم يكن ذلك ليساعده في إدراك حقيقة أمْرِهِ وحجمه، وفي أنه ليس الشخص الذي يتصوره ويحمل صورةً غير واقعية عنه في رأسه.

لا يشبه المأمون، من أعضاء المجلس، سوى عبد الواحد. وهو قرينهُ في المبدئية، وإنْ لم يقرأ الماركسية ولا مرَّ من تنظيماتها. وهو على نهج اليقين يسير، لا يطمئن إلى فكرةٍ إلاّ قرَّت في نفسه واستقرت عميقاً، فلا يكاد أن يزحزحها رأيٌ من الناس، أو عَصْفٌ من الواقع. منذ خمسين عاماً وهو على هذا النحو، تغيّرت الأشياء، والحقائق، واليقينيات، ولم يتغير في داخله شيء. ودودٌ هُوَ، وإن كان يبدو باردَ العواطف ومنغلقاً. سيرتُه في العمل العام، ومناصرة السجناء، تشفع له وتفرض له الاحترام. وهو نفسُه

يحيط شخصه بأسباب التوقير، لترفُّعه ومسلكه الأرستوقراطي، الذي لا يشبه في شيء مسلك المأمون النزّاع إلى الشعبوية. وحده عبد الحقّ يتقاسم معه الهدوء وبرودة الأعصاب. غير أن وراء النظرة الرزينة التي يلقيها أيّ من الاثنين، بركانُ غضبٍ لا ينطق به اللسان، وإنما يقوله الملفوظ منه.

الثلاثة تحدثوا في الاجتماع بلسان واحد. نطقوا بما يرضيهم ويرضي أكثر الشباب، وكان الارتياح بادياً على الأغلب منهم. حين انفضّ الجمع، سأل جمال توفيقَ ببعض اللؤم عمّا إذا كان مرتاحاً لموقف الهيئة، فأجابه بأن الأهمّ ليس موقف هؤلاء، وإنما موقف شباب الحركة. وحين علّق جمال بأن الموقفيْن واحدٌ، ردّ الآخر بأنه لا يعلم عمّا إذا كانت الحركة قد تبنت موقفاً نهائياً في جدلٍ مازال مستمراً داخلها في المسألة، كما لا يظن بأن اجتماعات أعضاء الهيئة مجرّد بروفة لإخراج الموقف. ضحك جمال وعلَّق: «كأنك بتَّ ذكيّاً أكثر من اللازم».

✤

يُبدي حسن تضايُقَه من الوصاية التي يحاول أن يفرضها بعض الشركاء السياسيين للحركة عليها، وخاصة من الحرس اليساري القديم. يبوح بضيقه لمريم وتوفيق. الأخير يوافقه الرأي. أما مريم، التي لا تخالفه كثيراً تقديره، فلا تذهب مثله إلى أن الهيئة، وصيغة المناصرة، سيقت من باب الحيلة لركوب موجة الحركة، والسيطرة على قرارها، وإنما المشكلة في أن هذا الجيل من المناضلين لم يتعود أن يكون في الخَلْفية، بل ولا في الصفّ الثاني، ولذلك يتقدم ليكون في الصدارة.

ـ المناضلون الحقيقيون لا يتنطعون ويتصدرون مشهداً لم يصنعوه؛ ردّ حسن.

ـ صحيح ما تقوله ـ تعلّق مريم ـ ولكنّ هذا «خرّوب بلادي».

ـ «خرّوب بلادي» حقّاً أم تراكِ تدافعين عن عضوية عمّك في الهيئة؟ تساءل توفيق ممازحاً.

ـ ذكَّرتني، تقول مريم، فلقد نسيتُ أصلاً أنه عضو. ولكن، هل رأيته يوماً يتنطع؟

ـ لم أرهُ يفعل ذلك، قال توفيق، لكني آخذ بحكمة المَثَل المغربي الدارج «مع مَن شفتك مع من شبَّهتك».

ـ بئس المَثَل الذي سينطبق عليَّ، لا محالة، إن شوهِدْتُ يوماً معك.

ـ ضحك توفيق وعقّب:

ـ لو يَعْلم عمّك أنّ له في الحركة من يدافع عنه، إلى هذا الحد، لَمَا كان في حاجة إلى أن ينسب نفسَه إليها.

ـ مَن قال لك إنه يبحث فيها، ومن خلالها، عن مجد شخصي؟

ـ أنتِ من يقول ذلك يا مريم بسؤالك الذي تسألينَه.

ـ لم أكن أتخيّل أنك لئيم إلى هذه الدرجة.

ـ هذا بفضل ذكائك الحادّ الذي يُخرج الخبيثَ من الطيب.

في فجوة بين عبارات المزاح المتبادل، قال حسن بجدّية ملحوظة، مستأنفاً حديثه الأول:

ـ يحيّرني أمر هؤلاء المناضلين الذين يحيطوننا ـ مشكورين ـ بالنصرة والحماية من خلال الهيئة. وراء أكبرهم سنّاً نصف قرن من العمل السياسي، ووراء أصغرهم ربع قرن. ماذا فعلوا، طيلة كل تلك السنوات، كي يحققوا النزر اليسير ممّا انتفضنا ـ نحن ـ من أجله؟ لو أنهم نجحوا في أن يكسبوا القليل ممّا نبغيه، اليوم، لما خرجنا إلى الشوارع وتركنا مدارسنا وجامعاتنا!

ردّت مريم بوثوقٍ ويقين:

- لو لم يناضلوا هم - طيلة كل تلك السنوات - لَمَا كنّا نحن، ولا كان لنا ذِكْر.

- أنتِ على حقّ، قال توفيق، لأن أفكارهم الثورية هي التي زوّدتنا بالمعين الضروري لتكوين منظومةِ مواقفَ راديكالية من الأوضاع السائدة في البلد، وللتميُّز عن غيرنا من القوى العاملة في الساحة السياسية.

- تعلّمنا منهم ومن غيرهم؛ قال حسن.

- أصبحتَ تتحدث مثل أمجد؛ قالت مريم.

- وهل أمجد مدعاة إلى التندر؟

- لم أقل هذا، ولكني أخشى عليك من أن تيأس مثله وتعتكف في بيتك.

ردّ بحزمٍ لم تتوقعه منه.

- هو، صحيح، معتكف في بيته، لكن أفكاره تنتشر في أوساط جميع اليقظين من نشطاء الحركة. وأنا واحدٌ من كثيرين يطمئنون إلى حصافة رأيه، ورجاحة موقفه، ويشرّفني كثيراً أن أُشَبَّه به، ولو من باب الغمز مثلما تفعلين.

- أرجو ألا تفهمني خطأً يا حسن، فأنت تعرف أني أحمل تجاهه نفسَ التقدير الذي تحمله. لكنك، لسوء حظي، تأخذ الأمور دائماً بجدّ، فلا تترك للمزاح مكاناً.

- أعتذر إنْ أسأتُ فهم قصْدك. لكن دعيني أقول إن الذين علّمنا منهم ليس اليسار والقوى الديمقراطية فحسب، وإنما الحركات الشبابية والمدنية العربية، ولولا أن هذه أطلقت ثورتها في تونس ومصر، لما كان لنا وجود، على الأقل في المدى المنظور.

- في هذا أنت على حق؛ قال توفيق. أنا شخصياً لم يؤثّر فيَّ كثيراً خطاب اليسار والأحزاب، ولو أنني قضيت في شبيبة واحد منها بضعة أشهر. الثورةُ وحدها، في تونس ومصر، رمت بي في المعترك.

- لو لم تكن هناك قابلية لديك ولدى غيرك باستقبال فكرة الثورة، لما كنتَ انخرطتَ في الحركة؛ قالت مريم. وعليك أن تسلّم بأن هذه القابلية لم تتولّد لديك من الإنترنت أو من قناة الجزيرة، وإنما من ثقافة سياسية زرعها اليسار في شباب البلد المتعلم: في الجامعة، وفي الحياة الثقافية، وفي البيئة الأسرية للمناضلين من الآباء.

علّق حسن بالقول:

- إذا كانت مساهمة هؤلاء المناضلين من اليسار في أنهم نشروا أفكاراً في المجتمع - وأنا أشك في ذلك - فإن مثل هذه الأفكار، وأحسن منها بكثير، يوجد في كتب المفكرين والثوريين الكبار. أتصوّر أن دورهم أكثر من مجرّد جمعية ثقافية. هُمْ أصحاب مشروع سياسيّ، ومشروعهم السياسيّ فشل منذ ثلاثين عاماً أو يزيد، قبل أن نخرج نحن إلى الدنيا. فلماذا يصرّون على تمديد دورهم بعد أن حكم عليه التاريخ بـ...؟ ولماذا يصرّون على فرض الوصاية على غيرهم ممن ليسوا من سلالتهم.

- نحن أبناؤهم يا حسن، لا تخطئ؛ ردّت مريم.

- رمزيّاً، نعم. أما مادياً فنحن أبناء عصرنا حيث لم يكن لنا والدٌ حزبيّ. وإذا كانوا يريدوننا أبناء بالتبنيّ، فعليهم أن يحترموا عقولنا واستقلاليتنا، وألاّ يحشروا أنوفهم في تفاصيل تجربتنا، فهم لا يملكون ما يقدّمونه لنا نموذجاً يُحْتَذى.

لم تستغرب مريم، وحدها، حَدّية مواقف حسن التي بدت لها، دائماً، معتدلة ومتوازنة حينما تتضارب الآراء ويشْتَدُّ التقاطُب بينها؛ حسن نفسُه يستغرب - في داخله - هذا التحوّل السريع الذي طرأ على حساسيته

السياسية، وطريقةِ تفكيره، وأسلوب حكمه على الأشخاص والأشياء. قبل أربعة أشهر، فقط، كان شديد الانبهار بعبد الحقّ والمأمون. كان موزّعاً بين آرائهما، التي شغف بكمية المبدئية والشجاعة فيها، وآراء أمجد التي تحسَّس فيها مقداراً من الواقعية خاطب وعيَه الرياضي العلمي. لكنه آثر أن يقول في داخله إن خبرة «الشيخين» في العمل النضالي أعلى كعباً من خبرة صديقه، والمرحلة مرحلة مطالب قصوى، فلا أقلّ - إذن - من أن يصيخ السمع إلى ندائهما، من دون أن يتجاهل صوتَ صاحبه الذي يَدين له بالكثير. ها هو اليوم يضيق بآرائهما إلى حدّ الانزعاج، ويستغرب في نفسه كيف حصل أن أخذته مشاعر الإعجاب بهما إلى بعيد. ليس فيهما - يقول الآن - ما يغري بمثل ذلك الإعجاب، فهما أشبه ما يكونان بالمومياءات، منحدريْن من أزمنة سحيقة، ومقيميْن في زمنٍ ليسا منه. أمجد، على حداثة سنّه وعهده بالسياسة، أرجح تفكيراً وأرصن منهما. لو أدركتِ الحركةُ ذلك في الوقت المناسب، لكان وضعها في أفضل حال. لكنها سادرة في وهْم اقتراب بِشَارة الميلاد لجنينٍ لم يتكوّن بعد في الرحم!

- ٢٥ -

لا يزيد صدر نبيلة إلا ضِيقاً بأجواء المناقشات التي تدور بين أعضاء التنسيقية. تلاحظ أنها باتت تتحول، شيئا فشيئا، إلى مناقشات عصبية، الكلمة فيها للأعصاب، وللعنف اللفظي، ولمشاعر التوتر. التسامح فيها قَلّ، وحصّة الاختلاف في الرأي فيها ضَؤُلت. كأنّ بيئةً جديدة نشأت، فأفقرت قيم الحركة، وطوّحت بها. وهل قليل عندها أن تعاين كيف يتحول الحوار إلى مهاترة، وملاسنة، لمجرّد أن من يخوضون فيه ليسوا على الرأي عينِه. تعترف في داخلها أن «مجموعة الصقور» يختطفون الحركة، ويأخذونها إلى المجهول. لم يتزيّد أمجد، كما أصبحت تقول في نفسها، حينما وصفهم بالصقور والمغامرين؛ لقد قطعوا المسافة نحو التشدّد المطلق في التفكير، والسلوك، والعلاقة بالآخرين. كأن شيئاً جديداً لم يحدث منذ شهرين، كما تُردّد إيمان بحقّ، كأن الحركة وحدها في الميدان. كأن المئات من النشطاء لم يغادروها يائسين. كأن مصيرها لم يسقط في قبضة حفنة من الحلفاء. كأن استقلاليتها لم تُمَسّ بانضمام كثيرين من نشطائها إلى تنظيمات سياسية. كأن الأعلى صوتاً فيها هم أنفسُهم الأعلى حجَّةً في الرأي!

بالأمس فقط، دارت رحى معركةٍ في النقاش بين وليد وياسر وجمال من جهة، وحسن من جهة أخرى، انتهت بإهانة نبيلة لمجرّد اجترائها على نصرة رأي حسن المُحَاصر بالاتهامات. كانت البداية جدل حول إعلان موعد الانتخابات في نهاية نوفمبر، كما حصل ذلك في خطاب رسمي قبل أربعة أيام. أسهبَ وليد، كعادته، في تفسير القرار بما يفيد أنه اتُّخِذ نكاية في الحركة، وأن الهدف منه إنما هو إجهاض مشروع التغيير، ورسْم سقفٍ سياسيّ للإصلاحات القمينة بتلميع صورة المخزن. وافقه جمال تمام الموافقة، فيما أصرّ ياسر على أن بيت القصيد في موضوع الانتخابات كلّه هو محاولة تصدير الأزمة من السلطة إلى المجتمع والنخب، والتمظهر بمظهر الفريق المنادي بالإصلاح، وتحميل الآخرين مسؤولية عدم الاتفاق على جدول أعمال للإصلاحات السياسية. والدليل على ذلك، كما قال، أن «معلوماته» الوثيقة تقول إن الأحزاب السياسية ليست جاهزة لخوض الانتخابات في هذا التاريخ. وهي إذْ لا تستطيع أن تعترض على جدولةٍ زمنية تَرِدُ في خطابٍ رسميّ، ستخوض في مشروعٍ لا هدف من ورائه سوى احتواء مطالب التغيير، ومطالب الحركة ابتداءً، وهكذا تصبح هذه الأحزاب، هي الأخرى، شريكة للمخزن في مناصبةِ مطالب الشعبِ العداء، وفي الكَيْد الصريح للحركة، وجمهورها، والشعب.

علّق حسن على الثلاثة بأنهم يُفْرِطون في تقدير ما للحركة من مكانةٍ لدى السلطة والأحزاب والشعب، وفي تَخَيُّل حيِّزٍ غير معقول من الاهتمام بها عند هذه الأطراف الثلاثة. وأردف بالقول إن قرار إجراء الانتخابات أمرٌ متوقّع، وليس ثمة ما يُسْتَغْرَب له فيه، بعد إقرار دستورٍ جديد، وإن كان توقيتُه ممّا يقبل المناقشة. وقال متحدّياً، من غير استفزاز، إنه كان ينبغي أن يدرك الجميع أن الاستفتاء على الدستور أنهى مرحلةً من الجدل حول الإصلاحات، وفرض جدول أعمالٍ يحظى بإجماع الأحزاب والرأي العام، وأوّل فِقَرِهِ إجراءُ انتخابات، حسب ما تقضي به أحكامُ الدستور الجديد.

ثم استنتج بأن مَن يخسر معركة الدستور لا يستطيع أن يكسب معركة الانتخابات، لأن هذه من تلك، فرعٌ من أصل.

جُنَّ جنون الثلاثة وأمطروه بوابل من الانتقادات اللاذعة، قال جمال إنه لا يفهم كيف يلتمس حسن الأعذارَ للمخزن ولأحزابه «المتواطئة» والتابعة! وقال ياسر إنه يستغرب كيف يحمل حسن في رأسه مثل هذه الأفكار، ويستمر ـ في الآن عينيه ـ عضواً في حركة يعرف أنها تفكّر وتناضل بطريقة أخرى. أمّا وليد، فأطلق لسانه فيه، وشدّد على أن الحركة لا تستطيع أن تطمئن إلى مستقبلها مع استمرار وجود مثل هذه الأصوات فيها، وهدَّد بطرح «قضيته» أمام الرفاق في اجتماع قادم! تمالك حسن نفسه، وأمسك أعصابه، ولم يَنْجَرّ إلى ردود أفعال دفاعية، كالتي يدعو إليها مثل هذه الحال. لم يَزِد عن أن قال إنّ هذه المواقف الحَدّيَة لا تمثّل الحركة كافة، وإنّ من نشطائها مَنْ يعتنق آراء أخرى مخالفة مثل رأيه. ثم التفت إلى وليد، وآخذه ـ بأدب ـ على تفوُّهه بعبارات لا يجوز استخدامُها بين رفاق الدرب الواحد، منبهاً إيّاه إلى أن الحركة ليست محكمة تفتيش كَنَسية حتى تبتّ برأيٍ في مواقفه، وإنما هي حركة نضالية تَسَعُ الجميع: الراديكاليّ والمعتدل، الواقعيّ والرومانسيّ...، ويَسَعُ الجميع أن يقول رأيه فيها بحرّية. وأنها إنْ تخلّت عن هذه الروحية، فقدت مبرّر وجودها، وتحوَّلت إلى حزبٍ عقائدي مغلق، يشبه بعض حلفائها من الأحزاب والجماعات، بل إلى رديفٍ للمخزن الذي تُعَرِّض به في كلامها السياسي.

تشعّب الحديث، وانتقل من موضوع إلى موضوع، إلى أنِ استقرَّ على التطورات الجديدة في ليبيا، بعد فقدان النظام السيطرة على طرابلس، ودخول المسلحين إليها قبل أسبوعين. قال وليد إن الثورة الليبية هي وحدها الثورة الصحيحة، في العالم العربي، لأنها أسقطت النظام بالعنف المسلّح. لم يوافقه ياسر الذي ذهب إلى القول إن ثورتيْ تونس ومصر نموذجيتان في حشد الشعب كله وراء شعار التغيير، وفي عدم إنابة نخبة مسلحة للقيام به

باسم الشعب. ولم يكن رأي جمال جديداً حين الْتَمَس العذر للمسلحين بدعوى أنهم أُجْبروا على حمل السلاح. لكنّ حسن استغرب كيف يتحدث رفاقه الثلاثة عن ثورةٍ ليبية، وكفاحٍ مسلّح، وحشْدٍ للشعب... وهم يعلمون ـ على اليقين ـ أنّ حلف الناتو هو مَن أسقط نظام القذافي لا شعب ليبيا، وأن المقاتلين الليبيين لم يكن لهم من دورٍ سوى استثمار نتائج ضربات طائرات الناتو، على نحو ما كان عليه دور «المجاهدين الأفغان»، الذين استثمروا نتائج عمل الطائرات الأمريكية للسيطرة على مواقع حركة «طالبان». وأضاف إنه لا يملك أن يستوعب كيف يستبشر مناضلون بالتدخل العسكري الأجنبي، ويرون فيه خلاصاً من ديكتاتورية قائمة، مع علمهم أن مَن يقود ذلك التدخل ـ وهو أمريكا ـ يجسّد أعلى درجات الديكتاتورية في السياسة الدولية! وأنها ما فعلت ذلك، مع حليفاتها في أوروبا ـ من أجل سواد عيون الليبيين، بل من أجل النفط والمصالح الإمبريالية.

عَلّق وليد على حديث حسن بغير قليل من التهكّم. قال يَتَهانَف:

ـ أمِنْ أجل الدفاع عن الديكتاتور تتذكر الإمبريالية وقد نسيتها كل هذا الزمن؟

ردّ حسن بعنف:

ـ لا يمكنني أن أدافع عن رجُلٍ يشبهك في العجرفة والاستبداد بالرأي، وفي إلغاء الآخر والاعتقاد اليقيني بأنه مالك الحقيقة. هذا أوّلاً، وثانيا: أنا لم أنْسَ الإمبريالية يوماً كي أتذكرها الآن، وأنا لم أعوِّم صورتها، مثلك، فأسميها بالغرب، أو بمعسكر الحداثة، تلميعاً لها، وإنما لم أبرح تعريفي لها كإمبريالية بغيضة ينبغي مقاومتها.

قال جمال، كمن يدافع عن وليد، بحدّة:

ـ دعْكَ من الكلام الخشبي البائد، من أجل إسقاط الديكتاتورية، يجوز التحالف مع الشيطان.

ـ عبارة أثيرة، اليوم، لدى العملاء والخونة؛ ردّ حسن.

ـ هل تحسبني منهم، إذن، أيها الثوريّ العظيم؟ تساءل جمال بسخرية.

ـ حتى الآن لستَ منهم، قال حسن، لكني أخشى أن يفضي بك منطقُك إليهم، فالطريق إلى جَهَنَّمَ ـ كما يقال ـ مفروش بالنّيات الحسنة.

سأله وليد، في ما يشبه البراءة، عمّا إذا كان يمكن للقصف الجويّ أن يُسْقِط نظاماً سياسيّاً لولا قوات الثورة المسلحة، التي لاحقت فلول الكتائب الأمنية في كل مكان، ونظّفت مدن ليبيا منها. أجاب حسن بأن القصف الناتوي دمّر البيت، وترك للمقاتلين أن يكنسوا المكان من الأنقاض. وذكّره بأن قوات القذافي كانت على وشك أن تقتحم بنغازي، في هجومٍ معاكس، قبل أن تتدخل الطائرات الفرنسية لإنقاذ قوات «المجلس الوطني الانتقالي».

علّق وليد، غير عابئ بكلام حسن، قائلاً إن الأمور بخواتمها، وإنّ نظام الطاغية سقط، وقوات الثورة سيطرت على الأوضاع، وسيصبح في وسع شعب ليبيا أن يبني نظامه الديمقراطي المدني رغماً عن أنف المدافعين عن الديكتاتوريات باسم السيادة الوطنية والاستقلال. ضحك حسن من العبارة، وقال:

ـ سيبنيه بسواعد حلفائك الذين لا يعرفون من معنىً لعبارة «ديمقراطي مدني».

ـ مَن حلفائي؟

ـ حلفاءُ حلفائك في الحركة، ممّن لا يستقيم أمْرُ مسيرة أو تَجَمْهُرٍ إلا بوجودهم العددي.

ـ أنت معادٍ للثورة والتغيير، يا حسن، بل أنت مشبوه.

ـ وأنت مغفَّل سياسيّاً، يا وليد، ومغرَّرٌ به.

ـ لن يجد المخزن أحسن منك ينشر أفكاره المحبِطة في الشباب. وغداً ستصبح واحداً من أعوانه وخُدّامه.

ـ وأنت لن يجد أنصاف الفقهاء أفضل منك يأكلون الثوم بفمه. وغداً ستنبت لك لحية، في دماغك لا في وجهك.

ـ تتحدث مثل أستاذك أمجد.

ـ يشرفني أن يكون أستاذي، ولا يشرّفه أن تكون من تلامذته.

ـ يكفيه من التلامذة أمثالك من المتخاذلين الذين يشبهونه.

خرجت نبيلة عن صمتها، في هذه اللحظة بالذات، بعد أن لاذت بالحياد الظاهري أثناء السجال. قالت شيئاً حاولت، متماسكةً، أن لا يبدوَ وكأنه دفاع عن أمجد، عن شخص ارتبطت به بعلاقة حب يعرف عنها الجميع. أن يبدوَ، في الحدّ الأدنى من الظنّ به، إعادة اعتبار إلى حسن، وإلى حقه في إبداء رأي مخالف. كان من حقها أن تغضب للأذى المعنوي الذي لحق أمجد من بذاءة وليد، وأن تتصور نفسَها مقصودةً بتجريحه بتلك الألفاظ النكراء، لأنها حاضرة وشاهدة. لكنها آثرت أن تتجاهل هذا الجانب من المسألة لئلا يؤذيها وليد بتعليقاته، التي تعرف إلى أيّ حدٍّ لا تقيم اعتباراً لحُرْمةٍ أو كرامة.

قالت محتجّة:

ـ هذه ليست طريقة في الحديث، بل هي ليست من أخلاق المناضلين. كيف تُمْطر حسن بهذه العبارات الجارحة لمجرّد أنه اختلف معك في الرأي؟

ـ ولماذا لا تحتجين على هجومه عليّ؟

ـ أنت مَن بدأ، وهو كان يدافع عن نفسه أمام عنفك اللفظي.

ـ تدافعين عن حسن أم تدافعين عن أمجد؟

ـ وما الفرق إن دافعتُ عن أيّ منهما؟

ـ أريد أن أعرف إن كانت السياسة ما يتكلم فيك أم الحبّ؟

ـ وما شأنك بالسياسة والحبّ معاً وأنت لا تعرفهما.

ـ أعرفهما جيّداً ولا أخلط بينهما، وإن شئتِ أعرف كيف لا أجعل للحبّ سلطاناً على السياسة، ولا أسمح لنفسي بأن أبيع ما أومن به من أجل نزوة عاطفية أو جسدية.

ـ أنت مريض، أنتَ فعلاً مريض يا وليد.

ـ قالت ذلك وأجهشت بكاءً وهي تغادر.

✤

كانت ترتعد من الغضب، الممزوج بالشعور الجارح بالإهانة، وهي تجلس إلى إيمان ومريم، اللتين تواعدت معهما على اللقاء، مساء ذلك اليوم، في المقهى المقابل لصالة الفن السابع. حاولتا تهدئتها، وتهوين وطأة الصدمة عليها، بالقول إن صفاقة وليد لا تستحق الردّ ولا الانفعال، وإن أفضل السلوك حيالها تجاهلها ونسيانها. لم ينفع بلسم الرفيقتين في رأْب الخَرْق النفسي الغائر. تحسّ بجسد ينتفض برعشة الخوف والغضب، وبصدْرٍ لا يقوى على أن يعبّ الهواء، وبركبَتيْن خائرتين لا تستطيعان حَمْل جِسمٍ ثَقُل عليهما. لم تشعر، يوماً، بهذا القدر من الضَّعف والمهانة الذي تشعرُ به، الآن، بعد أن عَدَا عليها وليد، وأضحك جوقته عليها. تتذكر أن حسن دافع عنها حين خاطب وليد قائلاً بحدّة إن ظفْر نبيلة أشرف من دماغ وليد وقلبه، وأن المسّ بها وبكرامتها فعلٌ لا يأتيه إلاّ وضيع. وتَذْكُر أن وليد شتمه بكلام أشدّ بذاءة قبل أن تنسحب شبه منهارة تتذكر ذلك كلّه، لكنها لا تغفر لنفسها سلبيّتها في الردّ عليه. كان عليها أن تفعل معه ما لم تفعله يوماً في حياتها، أن تنشب أظافرها في وجهه أو في عنقه، أن تبصق في وجهه، أن تشتمه وتُمطره بصفات التافه والحقير والنذل، أن تتصرف معه وكأنه مجرّد

حشرة مؤذية تستحق ما يناسب أذاها. من سوء حظها أنها لم تفعل شيئاً من ذلك، في اللحظة المناسبة التي فارت أعصابُها فيها، واستسلمت للنشيج.

هدأت قليلاً وروت لهما ما جرى بتفصيلِ ذاكرةٍ طريّة ومتّقدة. علقت إيمان، محاولةً صرف شعور نبيلة عن فرضية القصدية العدوانية، قائلةً:

ـ وليد متهوّر، ويسيء إلى الجميع بطريقته في الحديث.

ـ ليس متهوّراً، هو مريضٌ، ومعقّد، وبذيء وتَقَصَّد إيذائي عمداً، وحَسَن شاهد على ذلك.

ـ حاولي أن تنسيْ هذا الأمر، وترفّعي عن سلوكه الأرعن. ودعي الموضوع يأخذ شكلاً مسؤولاً، وأنا سأدعو إلى محاسبته على سلوكه في اجتماع خاص للتنسيقية؛ قالت إيمان.

ـ لم يعد لي شأن بالتنسيقية، ولا بالحركة، بعد هذه الإهانة التي أصابت كرامتي. انتهت علاقتي بهذه البيئة التي يلوّثها أمثال هذا الوضيع.

ـ ماذا تقولين؟ لا ينبغي أن يأخذك الانفعال بعيداً.

تدخلت مريم، محاولة مواساة صديقتها، تقول:

ـ لا يمكن لهذا الحقير أن يكون مناضلاً.

حدجتها إيمان بنظرة استنكار واستأنفت:

ـ الحركة ليس وليد، وهي مدرستُك وبيتُك وأهلُك، فكيف تضيقي بها لمجرّد أن مشاجرةً عبثية وتافهة حصلتْ، وجرحت وقائعُها مشاعرك. إن أفضل طريقة للتعامل مع مثل هذه التحرشات الاستفزازية هو تجاهلها، وإشعار صاحبها بأنه غير موجود.

ـ لا أستطيع، بعد الآن، أن أجتمع معه تحت سقف واحد، أو يجمعني به إطارٌ أو عمل مشترك. لِيَهْنَأ، هو وأمثاله، بالحركة وبالرأي

الواحد فيها. أنا لست أفضل من كثيرين غادروها تحت وطأة الشعور بانسداد الآفاق فيها.

- أنتِ هكذا تساعدين وليد على تحقيق ما يبتغيه من تكريس الرأي الواحد.

- أنا لست محترفةَ منازعاتٍ صغيرة وتافهة، لو كان صاحبَ رأيٍ مخالف ومحترم، وصاحبَ سلوكٍ متحضر، وأخلاق نضالية، لَمَا انزعجت، كنتُ سأحترمه مثلما أحترم غيره ممّن أختلف معهم.

- لو تصرَّف الجميع بسلبية مثلك لَخَلَتِ الحركةُ من خيرة أطرها ونشطائها. ألا ترَيْن كيف يتصرف حسن وتوفيق ومريم في مواجهة مثل هذه المواقف.

- ليسَ لديَّ جَلَدُك، يا إيمان، ولا جَلَد حسن وتوفيق ومريم، وخياري الوحيد أن أنهيَ علاقتي بالحركة.

- وقضيتُنا؟

- قضيتُنا أكبر من أي إطارٍ وأعظم، والإرادةُ التي صنعتِ الحركة ستصنع مثيلات لها وأفضل. ثم إن التاريخ لا يتوقف عند الحركة، ولا على الحركة.

حين ودَّعَتَاها أمام مقر النقابة العمالية، تذكرت - وهي تنحدر إلى بيتها في حيّ الليمون - أنها وأمجد يعيشان القَدَر نفسَه، تَنَبَّهَ - قبلها بأشهر - إلى أن الأفقَ ادْلَهَمّ وانسدّ، فآثَر الانسحاب بهدوء، وظل ينْشط بعيداً عن الأضواء. سبقها إلى هذه النهاية الاختيارية بسبب فارق السنّ والتجربة، ولم يشأ أن يؤثّر يوماً في رأيها وموقفها، تركها تقتنع بنفسها أنها تجذّف ضدّ التيار. شعرت في تلك اللحظة، وهي تدير المفتاح في قُفْل باب حديقة البيت الخارجية ، أنها تحبّه أكثر من أي وقت مضى. ستتحدث إليه طويلاً بالهاتف بعد أن تسكن قليلاً إلى نفسها.

- ٢٦ -

خامرني أملٌ، صباح هذا اليوم، في أن لا يفتح معي توفيق سيرة السياسة حين ألتقيه في شاطئ تمارة، مثلما تواعدنا أمس على اللقاء فيه صباح هذا اليوم، بعد أن اتفقتُ مع وائل على قضاء اليوم هناك. لم أَرَ الشاطئ، على غير عادتي، منذ أربعة عشر شهراً. وكنتُ، ومازلتُ، مولعاً بالسباحة، ولا تكاد أن تضيع مني صائفةٌ من دون أن أتردد على الشاطئ مرّة في الأسبوع على الأقل. أضاعت عليَّ السياسة، هذا الصيف، عاداتي الأثيرة مع البحر، ورمَت بي في بحْرٍ آخر. تذكرتُ فجأةً، بعد أن أصابني مَلَلٌ من الانغماس في الشأن الحَرَكيّ، أن الصيف انصرم، وهَلّ شهر أكتوبر، من دون أن ألقي بجسمي في الماء، وأتمرغ في الرمل، وأستسلم للحمّام الضوئي وأبدّل لوني، وأغيّر جلدي كما تفعل الحيَّات. ضَجَّ رأسي، فجأةً، بفكرة الذهاب إلى الشاطئ، وقضاء أطول فترة فيه، وألَحّتْ عليَّ بشدّة، وكأنني أصرّ على الانتقام لجسمي من حرمانٍ فرضْتُهُ عليه. من حسن حظي أن وائل لم يمانع في قضاء اليومِ كلِّه في الشاطئ، كما لم يمانع في أن يُثْلِثَنَا توفيق في الاستجمام، وقضاء فسحة الشمس والماء، على الرغم من أن معرفته به محدودة، ولم تَعْدُ مصافحةً أو اثنتين في الأشهر الماضية.

خاب الأمَل منذ الدقائق الأولى التي التقينا فيها في المقهى، الذي تواعدنا على اللقاء فيه، في العاشرة، قبل النزول إلى البحر. أمطرني بحديثٍ مسهب عن تطورات الأوضاع في سورية، وعن عشرات القتلى الذين سقطوا، أمس الأول، بعد صلاة الجمعة، في مدن حماه، وحمص، وإدْلب، وريف دمشق. تضايقتُ من حديث السياسة، لكني جاريْتُه قليلاً لئلاّ يُصْدَم بردّ فعلي، وسألْتُه عمّا إذا كانت معلوماته عن الوقائع وأرقام الضحايا دقيقة، وموثوقة، فأفادني بأنها مستقاة من بعض المواقع الإلكترونية، وخاصة من موقعٍ للمعارضة حديث النشأة، ومن قناة الجزيرة. سألتُه إن كان يصدّق الجزيرة كثيراً، فأجابني بأنها اليوم أوثقُ مصدرٍ للمعلومات. ضحكتُ في سِرّي لعبارة «أوثق»، وقلت متسائلاً:

ـ نحن لا نسمع منها عمّا يجري في البحرين مثلاً، معلوماتُنا عن هذا البلد من الفضائيات الأجنبية حصراً. كما أنها ليست متحمسة للديمقراطية في الخليج، وفي البلد الذي تبثّ منه، حماسَتَهَا لها في سورية واليمن، مع أن البُلدان التي تسكت عنها ليس فيها دساتير. وإن وجدت، فليس فيها برلمانات. وإن وُجدت، فليس فيها أحزاب. وإنْ وُجِدت، فهي سرّية ولا تتمتع بالشرعية القانونية. أما أوضاع المرأةِ فيها، نصف المجتمع المقموع والمَقْصيّ، فحدِّث ولا حرج. وأوّل البلاد التي يَحِقُّ عليها القول والحكمُ هذا تلك التي تتحدث هذه القناة باسمها، وتُغْدق الإنفاق عليها من مالِ الشعب.

ـ ما تقوله يا حسن صحيح، لكننا في حاجة إليها، من أسفٍ شديد، في هذه الظروف التي نحن فيها.

ـ لسنا في حاجة إلى الكذب والتضليل تحت أيّ ظرف.

ـ لكنها تتبنى مطالب الثورة في كل مكان، هل تجادل في ذلك؟

ـ هي تتبنى، بالأحرى، مطالب تيار سياسيٍ واحدٍ أحد، وتروّج له، وستُبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلاً.

ـ ولكن علينا أن نعترف بأنها تنشر ثقافةً سياسية مناضِلة في ملايين الناس، بعد أن عجزَ عن ذلك أكثرُ أحزابنا العربية وأقدمُها.

ـ بئس «الثقافة السياسية» التي تصنعها قناة تلفزيونية، وتنشرها في الجمهور!

ـ ماذا تقول يا حسن؟

ـ هل تَحْسَب التحريض، والكذب، والانحياز الأعمى إلى رأيٍ واحد، ثقافةً سياسية؟

ـ لم يكن هذا رأيُك فيها قبل أشهر!

ـ كان ذلك حين كنتُ مغفَّلاً مثلك يا عزيزي.

قال ذلك مازحاً وأضاف مستطرداً:

ـ والآن أدعوك إلى نسيان السياسة جزئيّاً، للتمتع بعبقرية الطبيعة، الكائن الوحيد الذي يعطي بسخاءٍ ولا يكذب.

مرَّت ساعات ثلاث، استجاب فيها توفيق لطلبي، فأراحنا وأراح أعصابه من حديث السياسة. استسلمنا للماء سويّاً، خلال هذه الساعات، أصغينا لصوت البحر، وخدر أشعة الشمس تنفث دفئاً في الأجسام. أسلسنا القياد للاّمعقول يأخذنا، عبر النكات، إلى عوالم الانشراح الحرّ. ولم ننس، في الأثناء، أن نُطْلِق بقايا الشغب الطفولي فينا من عِقال «الصرامة الرجولية»؛ فَطَفِقْنَا نركض محرّرين الأجساد من بيروقراطية مزعومة. وما تعفّفنا عن الخوض مع غيرنا من الشباب في تبار كرويّ: ذكّرنا بالهوى المدفون فينا قسْراً باسم القضية! حتى أن توفيق كَسَر مقاومتَه النفسية، فَدَخَل مع وائل في لعبة المفاضلة بين حسناوات الشاطئ. كنتُ أبحث، في تلك اللحظات، عن بَرْدِ غُلّتي المشتعلة في داخلي، كاللّهب الجائع، من وَقُودِ غضبٍ جوّانيّ حارق. كنتُ أجرّب الهربَ من يأسي من غدٍ يَتبدّد، ومن يومٍ

ينصرم يابساً كبرتقالةٍ خانَها أوّلُ الخريف. كنتُ أتخطَّف اللحظةَ، بأصابع القلب والرأس، لئلاّ تسطو عليها ذاكرةٌ مغموسة في حِبْر واقعٍ مملول. كنتُ كَمَن يودّع نفسَه وهو عنها غيرُ راضٍ، أو هو غيرُ مُوقِنٍ بجدوى ما جَزّفَتْ فيه تجزيفاً. تذكّرت أن أمجد سبقني إلى هذا الشعور، وحكى لي عنه كثيراً. أسلّم بأنه أبْكَرُنا جميعاً في الوعي بالأشياء، وتقديرها، والتنبّه إلى عقابيلها حين يَسُوءُ لها الأمر. لم ندرك، على التحقيق، معنى يأسه حين عصف اليأس باطمئنانه، فانتزعه من يومياتنا. خِلْنَاهُ صرخةَ كرامةٍ دَوَّت مدافَعَةً للنفس من تطاوُلِ من تطاوَلَ، بلاغةَ كبرياء تأبّى الهبوط عن معدَّله المألوف. حتى نبيلة، التي مازجَتْهُ وامتزجت به جسداً وروحاً، نبيلة التي ضاعت مني يوماً وسلَّمْتُ بأنها ليست لي، لم تفهمه؛ حَسبت عزوفَه مزاجيّاً وإن لم تَظُنّ به الظنون، كما فَعَل الآخرون. لكنها، اليوم، تفيء إليه، وتستجير برأيه، بعد أن فَطُنَت للأفق المُنْسَدّ الذي ليس إليه وليجة. أنا، اليوم، مثلها تماماً . . . وإنْ سبَقْتُها إلى إنصاف رأيه، والإصغاء إليه. بل أنا أقوى حجَّةً منها، لأن الذي يجذبني إلى موقفه ليس مشاعر حبّ، وإنما اليقين بوجاهة ما إليه ذَهَب.

كان يمكننا أن نقضي ساعات ما بعد الظهر في سكينةٍ تامَّةٍ، وفي أمنٍ من مداهمات السياسة لنفوسٍ وأجساد استسلمت لخطاب الطبيعة، وأصغت لبلاغته، لو لا أن نداء المعدة استدرجنا إلى جلسةٍ ثرثرةٍ في مطعم، مجاورٍ للشاطئ، فتسلَّلت إليها السياسةُ ثانيةً. توفيق يهتبل لحظة عطالة الطبيعة كي يُقْحمنا مجدَّداً في مزاجه، كأنه كان يجارينا، نحن الاثنين، بصمته، الذي أدركنا وجْهَ الاضطرارية والمجاملة فيه حين استرسل في كلامه المعسول المفضَّل. لم أقاطعه حين بدأ يتحدث، الْتَمَسْتُ له العُذْر والصّفح لقمعٍ ألَمَّ به منّا. تركْتُهُ يتكلّم على سجيّته، ممنّياً نفسي بأنني، ووائل، سنفرض عليه شريعتنا بعد قليلٍ تكون فيه أوجاعُ الجوع قد سكنت في بطوننا. أَسْهَبَ في الحديث عن الحركة، موزِّعاً كلامه بين الإشادة والنقد. شعرت، في لحظةٍ،

أنه يحاول جاهداً أن يضُخّ بعض الحياة في معنوياتي المحتضرة، وأن ينفث القوة في عزيمتي. قال ما يعتقده ويعتقد أنني أشاطره الاعتقاد به؛ قال إن الحركة ليست ملك أحدٍ من الأوصياء عليها من خارج، مِنْ حزبين فاشلين متطفلين، كان الأوْلى بهم أن يعودوا إلى بيوتهم، ويكتبوا مذكراتهم، عسى أن يستفيد منها مَن هُم في سنّ أبنائهم وأحفادهم من نشطاء الحركة. وقال إن هؤلاء يقتلون الحركة، ويدقّون المسامير في نعشها، بمزيدٍ من التقرُّب منها، والالتحام بها. وقال إنّ ألسنتهم من داخل شباب الحركة مثل وليد وجمال في الرباط، وأمين وجواد في الدار البيضاء، وسعيد ومحجوب وعزيز في مراكش، وفاطمة وعبد الرزاق في طنجة، ولحسن في أكادير...، حالات شاذة لا تمثّل المزاج العام للمناضلين. ثم ما لبث أن بدأ في تلميع صورة ياسر وكأنه يحدّثني عن شخصٍ لا أعرفه.

قال إن ياسر يختلف عن الآخرين كثيراً، صحيح أنه متشدّدٌ ومُغَال أكثر ممّا ينبغي، مثلما قال، وضعيفُ الشعور بالواقعية، وحادٌّ في أحكامه على مَن يَبْدُون له أقلَّ تمسكاً بالخيارات الراديكالية، لكنّ تمسُّكَهُ بالمبادئ يُعْجبُه فيه كثيراً، ويُعجبه فيه إيمانُه العميق بعدالة القضية التي نناضل عنها. وهو، إلى ذلك كلّه، ليس عدوانيّاً تجاه الذين يخالفونه الرأي، ولا هو بالبذيء الذي يسفّ في القول، ويهبط عن معدّل الأخلاق الثورية، مثل آخرين غيره. وحين ينفعل، يلوذ بالصمت أو بالابتسامة الماكرة، يعوِّض بها عن شطط ردّ الفعل. أضاف، معلِّقاً، أنّ الحركة تحتاج إلى شبابٍ بعزيمة ياسر، وصلابته، وإيمانه، لأن الامتحانات التي ستتعرض لها في المستقبل، ستزعزع ثقة الكثيرين بقدرة الحركة على تحقيق شيء ممّا حلمت به، وربما تدفع آخرين إلى الاستنكاف والنكوص أو اليأس التام.

فاجأني كلامه المتحمّس عن ياسر، وقد كاد في الماضي أن يكون غريمه الدائم! وفاجأني أكثر أن يشبّهه بإيمان في مبدئيتها وصلابة شخصيتها. غير أنه لم يَفُتْهُ أن يستدرك قائلاً إنه لا يتمتع بكاريزماها،

ولا بكياستها، وحساسيتها الوحدوية. قال ذلك وقد ركّز ناظريْه في وائل ليقيس أثر كلامه في صفحة وجه قريبها. لم أفهم سرّ هذا التبدّل المفاجئ في موقف توفيق من ياسر، إلاّ حين سمعته يؤكّد، بمفردات جازمة، أن الحركة ستكسب معركة مقاطعة الانتخابات، وستكنس مواقف الأحزاب المخزنية، وتفضح انتهازيتها أمام الجماهير.

لم أُجِبْهُ إلى تأييدٍ أو اعتراض. لُذْتُ بالصمت، وشعرت بوطأة ذلك الصمت عليه. ولم أقاطعه وهو يتحدث، تركْتُه يسترسل فيه إلى أن أنهاه. ولم أزِدْ، بعدها، عن أن خاطبتُهما معاً بالقول: والآن، حان موعد البحر.

✤

في الخامسة عصراً، جمعْنا أغراضنا وتهيّأنا للرحيل. كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الانكفاء، والهبوب محمَّلٌ بمزيجٍ من الدفء والبرد المعتدلين. مالت رغبتُنا في البقاء أطول إلى الانحسار. مدُّ البحر نفسُه انحسر. والحقّ أنّي أنا مَنِ استبقى رفيقيَّ هذا الوقت كلَّه، وإلاّ فإن توفيق رغب في الإياب منذ منتصف النهار، منذ شعر أن حماستي للحديث في السياسية تدور في منطقة الصفر، واستجابتي للكلام أشبه بالموت المائت. أخذتُ نصيبي من الماء وأشعة الشمس بما يفوق حاجة الجسم، ويُشْبع حاجة النفس، ويُطفئ فيها غُلَّة الحرمان. نسيت ما تعلّمته حول مخاطر تعريض الجسم لأشعة الشمس لفترةٍ تزيد عن اثنتي عشرة دقيقة متواصلة، وعن سرطان الجلد الذي يستوطن الأجساد المستسلمة للشمس. ولم أكن لأتصوّر نفسي أضع الكْريمات الوقائية على جلدي، وأدلِّكُهُ لمقاومة آثار الأشعة، وحماية الأديم من جنونها؛ فلقد يوشك أن يكون ذلك عندي أشبه بوضع أحمر الشفاه على شفتيَّ، والكحل على عينيّ، أو مشاطرة وليد كبائره!

بَدَوْتُ لوائل سعيداً، أكثر من المألوف، وأنا أخبط في الماء، وأرتّل مفردات الغزل في الشمس، كأنّي أكتشف الطبيعةَ وجمالَها أوّل مرة.

ابتسمتُ للملاحظةِ المستغرِبة، ودعوتُ صاحبها إلى أن يسأل توفيق عن عاداتنا، نحن الاثنين، مع الشاطئ في الصوائف منذ سنوات. أردفْتُ بالقول إنّ السياسةَ وحدها حرمتنا من نعمة الطبيعة طيلة هذا الصيف. لم تعجب الملاحظةُ توفيقاً، وتظاهر بأنه لم يسمعها، ولكن تقطيبة وجهه فضحتْه. أمّا وائل فأغرق في الضحك وقال مازحاً: انتصر الرومانسيّ على الثوري. صحَّحْتُ قائلا: انتصر الواقعيُّ على الرومانسيّ.

ودَّعْنا توفيق، الذي ركب دراجته النارية، قبل أن يستقل الحافلة آيبين قرابة الخامسة والنصف. سألني وائل عمّا إذا كان توفيق تَضَايَقَ من صمتي، ومن تجاهلي لكلامه، وإضرابي التام عن الحديث معه في السياسة، فأجبتُه بأنه لا يتضايق من سلوكي، لأنه يفهمني جيّداً، ولأنه تعوَّد مني أشياء كثيرة. وأضفت أنني لم أفعل إلاّ ما اتفقنا عليه، هو وأنا، أمس بعدم إفساد متعتنا بحديثٍ سياسيّ، وبأنني لم أَعْدُ الالتزام بالاتفاق. صمت قليلاً قبل أن يسألني:

ـ أشعر أنك تغيّرت كثيراً هذه الأيام عمّا عهِدتُكَ منذ عام.

ـ أنت مُحِقّ في ملاحظتك. لكني لم أتغيّر نحو الأسوأ، أو هكذا، على الأقل، أزعم.

ـ لم أقل ذلك، يا صديقي، لكني قصدت أن علاقتك بما كنتَ تشغف بالاهتمام به، والحديث فيه، مثل السياسة والشؤون العامة، أصابها فتور شديد في الفترة الأخيرة.

ـ صَدَقت.

ـ لا أريد أن أسألك، يا حسن، عن الأسباب، فقد يكون لك بعض الحساسية في الموضوع. كما لا أرغب في أن ألقى منك ما لقيَهُ توفيق هذا اليوم.

ـ اسأل كما تشاء، لا حساسية لديّ.

لم يسأل، ولم ينبس بكلمة. مرت دقائق خمس، ونحن لائذيْن بالصمت، كأننا على ذلك تواطأنا من دون مشافهة. لعله الآن، مثلي، يدير في رأسه أسئلة صامتة، ويجيب عنها بالنيابة عنّي. حين لا تجد من تسأله، تتحول أنتَ نفسُك إلى سائلٍ ومجيب. لا يكون للسؤال من معنًى ساعتها لأن الشريك منعدم، أو غائِب، أو معطَّل الوظيفة. يشبه ذلك أن تلعب الورقَ، أو النّرد، أو الشطرنج وحدك. من جرَّب اللعب وحدهُ، يكتشف تفاهة الجواب عن سؤال يفترض مخاطَباً غير موجود. تسليةٌ هي تُصبح، أم تَمْضِيَةٌ للوقت، أم تعويضٌ رمزي عن غياب الحوار؟

كانت الحافلة تنحدر نحو حيّ المسيرة، قريباً من مقصِدِنا: حيّ الفتح، حين خرج وائل عن صمته وسألني:

ـ حسن، ألم تعد متحمساً للحركة؟

ضحكتُ للسؤال وقلت:

ـ لا أدري، لكني على يقينٍ أن والدي أصبح أشدّ حماسة منّي.

بيروت: صيف ٢٠١١

من مؤلفات الدكتور عبد الإله بلقزيز

١ ـ **العولمة والممانعة: دراسات في المسألة الثقافية** (منتدى المعارف، بيروت، ٢٠١٠).

٢ ـ **حزب الله: من التحرير إلى الردع (١٩٨٢ ـ ٢٠٠٦)** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ٢٠١١).

٣ ـ **في الديمقراطية والمجتمع المدني** (دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء/ بيروت، ٢٠٠٠).

٤ ـ **زمن الانتفاضة** (منشورات «الزمن»، الرباط، ٢٠٠١).

٥ ـ **أسئلة الفكر العربي المعاصر** (دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠١).

٦ ـ **الإسلام والسياسة** (المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ٢٠٠١، ط ٢، ٢٠٠٨).

٧ ـ **الدولة في الفكر الإسلامي المعاصر** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٢، ط ٢، ٢٠٠٤).

٨ ـ **من العروبة إلى العروبة ـ أفكار في المراجعة** (الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ٢٠٠٣).

٩ ـ **العرب وإسرائيل** (الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ٢٠٠٤).

١٠ ـ **تكوين المجال السياسي الإسلامي ـ النبوّة والسياسة** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥).

١١ ـ **أزمة المشروع الوطني الفلسطيني ـ من «فتح» إلى «حماس»** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧).

١٢ ـ **العرب والحداثة: دراسة في مقالات الحداثيين** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧).

١٣ ـ **حالة الحصار** (دار الآداب، بيروت ٢٠٠٧).

١٤ ـ **المعارضة والسلطة ـ المجال السياسي العربي المعاصر** (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ٢٠٠٧).

١٥ ـ **في الإصلاح السياسي والديمقراطية** (الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ٢٠٠٧).

١٦ ـ **الدولة والمجتمع ـ جدليات التوحيد والانقسام في المجتمع العربي المعاصر** (الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠٠٨).

١٧ ـ **العرب والحداثة (٢) ـ من النهضة إلى الحداثة** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٩).

١٨ ـ **نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين** (ط ٢، مزيدة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٠).

١٩ ـ **رائحة المكان: نص** (منتدى المعارف، بيروت، ٢٠١٠).

٢٠ ـ **صيف جليدي** (منتدى المعارف، بيروت، ٢٠١١).



الحركة

تستوحي هذه الرواية حركة ٢٠ فبراير الشبابية المغربية، وتتناول - في سياقٍ تخييليّ - تجربتها في النضال من أجل الديمقراطية، وترسم شخصياتها، وبيئتها الداخلية، كما تخيلها المؤلف، وعلاقاتها بمحيطها الاجتماعي والسياسي.

والرواية إذ تؤرّخ لحقبة سياسية معاصرة، تتوزَّع بين رصْدٍ سياسيّ لسياقاتِ مطلبٍ وحُلمٍ، ولمآلاته في الوقت عينه، وبين رصْدٍ للحياة الاجتماعية والشخصية، في بيئة جيلٍ جديد من الشباب، في تفاصيلها الإنسانية الصغيرة.

ويُشار إلى أن هذه الرواية هي النص الأدبي الثالث للمؤلف بعد **رائحة المكان** (بيروت: منتدى المعارف، ٢٠١٠)، ورواية **صيف جليدي** (بيروت: منتدى المعارف، ٢٠١١).

الناشر



منتدى المعارف



بريد الكتروني: info@almaarefforum.com.lb